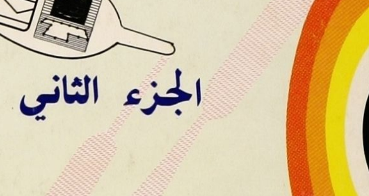
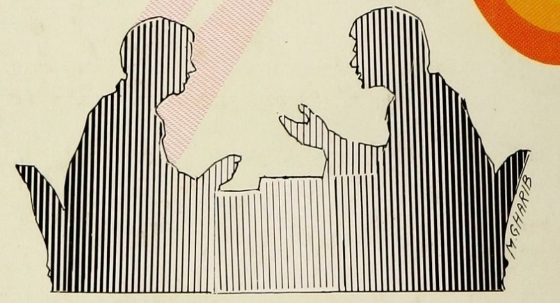
طرق احكام الرقابة على وسائل الغزو الفكري والخلقي



الجزء الثاني



المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب
بالرياض

طرق احكام الرقابة على وسائل الغزو الفكري والخلقي

الجزء الثاني

موضوعات الدورة التدريبية السابعة

المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب
بالرياض

١٤٠٧هـ

المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب
بالرياض

الرياض

١٤٠٧هـ [الموافق ١٩٨٧م]



المحتويـــــــــات

دور التربية الاسلامية

الأستاذ الصادق بلحاج*

من المسلم به ان التربية الاسلامية اكثر ارتباطا بمفهوم التربية من أي شيء آخر يقدم للمتعلم، فهي عملية إعداد للفرد وبناء الشخصية عقليا ووجدانيا وجسميا وهي في هذا الإعداد ترتكز على ان يرتبط الفرد بربه، وان يحدد علاقته بنفسه، وأن يحسن التعاون مع غيره من بني الانسان عامة ومن المسلمين خاصة، على اساس من فضائل القيم وعالي المثل.

فهي ليست مادة علمية كغيرها من المواد، ولكنها تكوين للعقل وتهذيب للوجدان وإنماء للأحاسيس النبيلة وسمو بكريم الخلق ودعم للفضيلة، وكل مجتمع، وخاصة مجتمعاتنا الاسلامية، يشعر باهمية هذه التربية ومع هذا لا يهيء لها فرصة العمل المجدي، اذ انها تعمل على ارضية غير ممهدة، ويحول بينها وبين اداء رسالتها كثير من الصعوبات والمعوقات، بل انها تجد محاربة من أفراد وجماعات داخل المجتمع لا تجده أية مادة اخرى تعلم للتلاميذ، والصعوبات التي تواجه التربية الاسلامية لا ترجع الى طبيعتها أو مادتها، ولكنها تعود الى عوامل عديدة متشعبة منها مايتعلق بمفهوم التربية الاسلامية في خضم التيارات المادية المعاصرة ومنها ما يتعلق بالناشىء في بيئاته الثلاث، ومنها ما يتعلق خاصة بالمدرسة والمعهد من مناهج وبرامج وطرق وأساليب ووسائل ومعدات ومربين وإطارات إشراف.

ولكي نحدد بتواضع مقترحاتنا حول وسائل العمل على إيجاد منهج تربوي موحد في التربية الاسلامية وفي تدريس العلوم الاسلامية بأسلوب حي يضمن احياءها وتجديدها وتألقها وهو موضوع هذا البحث، فلا بد من الوقوف في ايجاز على بعض المظاهر الواقعية التي عليها مادة التربية الاسلامية في مختلف المجالات الحيوية لنعتبر بهذا الواقع عسانا نوفق الى وضع خطة

---

* المفتش الأول بوزارة التربية القومية بتونس.

تربوية تنهض بهذه المادة وتحقق اهدافها في مجتمعاتنا الاسلامية التي هي في اشد الحاجة الى ان يكون افرادها بدينهم مؤمنين وبشريعتهم عاملين والى عزته منتصرين.

ان الواقع ليؤكد تأثر العالم الاسلامي بالنظرة المادية واقتباسه الواضح من الثقافة الغربية، مما جعل المجتمعات الاسلامية يظهر فيها ما ظهر في غيرها من المجتمعات الغربية من انحراف في القيم واهتزاز في المثل وظهور العديد من الأمراض الاجتماعية والانحرافات السلوكية وطغيان التفسير المادي للحياة، ولا شك ان الاسلام لا يعارض الحركة العلمية، ولا يعاديها بل يسايرها ويشجعها مع المحافظة على فلسفته الخاصة في النظر الى الكون والحياة على قيمه ومثله، اذ هو دين اخلاق وسلوك ونظام مدني يرتبط فيه الانسان المسلم ارتباطا يؤكد علاقته بالله ويؤدي ما يفرض عليه هذا الارتباط من ممارسة عملية وانماط سلوكية عن رغبة صادقة واحساس مرهف بالمسئولية نحو الله، ضمانا للراحة النفسية، واحساسا بالذات وتوازن الشخصية المتكاملة، وتنمية لنوازع الخير فيه عن نوازع الشر، هذه الفلسفة التي رضيها الله لخاتم الأديان ليكون وسطا يدعو الانسان الى الايمان بقدرته على استغلال هذه الحياة لتحقيق اهدافه واثبات ذاته وتطوير حياته، كما يدعوه الى ان يضع في اعتباره ان هناك حياة اخرى تحتم عليه الوانا من السلوك والقيم مما يجعلها مؤثرة على حياته تأثيرا لا يتنافى مع مطامحه الفردية والاجتماعية.

ومن هنا تحتمت العناية بالفرد المسلم لينشأ منذ نعومة اظفاره على ما يضمن له النجاة من الاخطار المحدقة به ليكون المسلم الواعي العامل لفائدته وفائدة مجتمعه في ظلال الهدى الاسلامي، فكانت التربية الدينية هي الملجأ مما جعل رجال الاصلاح ومفكرو العالم الاسلامي يجمعون على ضرورة ادراجها ضمن مناهج التربية والتعليم، باعتبارها عملية تعلم وتعليم ترمي الى اكتساب او اكساب سلوك او تعديله وله تأثير على تكوين الشخصية لدى الانسان ليكون متكاملا متوازنا في مختلف قواه ومداركه،

انطلاقا من البيت ومرورا بالمدرسة وانتهاء الى المجتمع، اذ لا بد من التعاون بين هذه البيئات الثلاث: البيت وما فيه من مجال القدوة والاقتداء، والمدرسة وما فيها من مقومات علمية وبشرية ذات مستوى وكفاءة، والمجتمع وما فيه من مؤسسات ووسائل اعلام وترويح ومراكز للثقافة

فإذا نظرنا الى البيت نجد ان الدين من وجهة نظره مسألة شخصية، فالطفل يصلي أو لا يصلي امر لا يهم الآباء، فينشأ هذا الطفل وليس لديه حماس ديني يدفعه نحو الفضيلة ويبعد به عن الرذيلة، وأكثر من هذا فالطفل لا يرى في أبيه أو أمه أو أخيه قدوة يقتدي بها أو رائداً يتبع مسلكه، فالدين شيء على هامش الاسرة ومن ثم فهو على هامش تربية الأطفال. وتلك مشكلة لها آثارها فيما نراه اليوم من ضياع العلاقة الصحيحة بين الآباء والأبناء فلم تعد الابوة تجد مكانتها، ولم تعد البنوة تلقى الرعاية التي تنشدها، وفقد الأب سلطانه الأبوي، ولم تعد الأم ذات مهابة أو جلال. ان الدين يحدد علاقة الآباء بالأبناء، ويضع العلاقة الأسرية واضحة، فاذا ما اهتم البيت بالاسهام في تربية ابنائه تربية دينية، استقرت احوال الاسرة على اساس من الاحترام، ودعم العلاقات، وتقدير الأبوة. وكذلك كانت الأسرة المسلمة

ان البيت هو البيئة الأولى التي تستقبل الطفل بعد صرخة الميلاد، بل إنه البيئة التي يتجاوز تأثيرها عليه الى ما قبل ميلاده، والطفل من خلال العيش في هذه البيئة يتشبع ويقتبس ويمتص عادات وتقاليد ولغة ومعتقدا وغير ذلك من انماط السلوك. وبقدر ما يتوفر في هذه البيئة من قيم ومثل ووعي وادراك تكون شخصية الطفل. ودور البيت في مجال تربية الأبناء دينيا يمكن ان يكون ايجابيا اذا توفرت له إمكانات ـ وهي يسيرة التوفر ـ إذا ما صاحبها صدق عزم وقوي ارادة.

ومن هذه الامكانات:

١ ـ حسن فهم الاسلام في صفاء معانيه وسمو اهدافه، بعيدا عما الصق به

من ترهات وأباطيل ـ وخاصة من الأبوين -
٢ ـ الظهور بمظهر القدوة الحسنة في القول والعمل حتى لا يرى الطفل او لا يسمع (وهو المقلد بفطرته) الا النقاء والحسن.
٣ ـ دعوة الطفل في لطف الى ممارسة بعض الشعائر الدينية، كالصلاة مع الجماعة العائلية او المصاحبة الى المسجد، او المساهمة في إعطاء زكاة فطر لمسكين أو صدقة لفقير.
٤ ـ عرض نماذج من قصص اسلامية وسير بعض الأبطال الذين يكون لمواقفهم بالغ التأثير على نفوس الأطفال.
٥ ـ حسن استغلال كل فرصة تتاح لإيقاف الطفل على ماقام به من مبادرات في حسنها ليشكر عليها ويثاب عنها بما يهواه من انواع الجزاء، وفي قبحها ليحذر من العود اليها مع بيان نقائصها ومثالبها، وقد يستوقف امام عدة أحداث وقعت أمامه أو تعرض عليه بمختلف وسائل العرض ليبدي فيها رأيه ويصدر فيها حكمه، وهذه من أبلغ ما يؤثر في تكوين الناشيء لو يجد الأولياء في توفير المناخ الملائم لها.

أما المدرسة فان مسئوليتها ثقيلة في التربية الدينية نظرا لضآلة ما يقوم به البيت من واجب العناية بتربية الطفل دينيا، ان توفر له القيام بهذا النزر القليل من الاهتمام ولما في المجتمع من متناقضات تزلزل اركان الناشئة وتهزهم في عنف، لذلك يعوّل على المدرسة في الأخذ بيد الناشئة نظرا لما لديها من وسائل على تواضعها اذ يمكن لها ان تختار لهم ما يحسن تقديمه لهم مما يؤثر فيهم تربية وإعدادا

وان من أبرز ما تقوم به المدرسة لتربية الناشئة تربية دينية صحيحة:
١ ـ تقديم الحقائق الدينية في صفاء ونقاء، بعيدة عما خالطها عبر عصور الانحطاط من زيف وخرافات.
٢ ـ اختيار المفاهيم التي تتناسب وسن التلاميذ مما يستهويهم وفي أسلوب جذاب وبوسائل مشوقة

٣ ـ توفر القدوة الحسنة في المربين وهيئة الاشراف التربوي والاداري.
٤ ـ ممارسة الفضيلة مع رفاق السن وأقران العمر كمباشرة التعاون، وتحمل المسئولية وغير ذلك من القيم التي لا تدرك أو تربى الا من خلال الممارسة العملية في حياة اجتماعية
٥ ـ تأثير المعلم على الطفل بما يقدم له من مثل بفضل ما يمتاز به من قوة الشخصية في عطف ولين، ولما يظهر به من استقامة في السلوك وتوازن في المعاملة
٦ ـ قدرة المدرسة في إطارها التربوي على تحقيق انماط من التعاون مع البيت من أجل تحقيق تربية الطفل تربية دينية حقيقية.
٧ ـ اعتماد هذه المؤسسة في اطارها المقتدر على تناول مختلف المشاكل التي تطفح بها الحياة من خلال منظار ديني متعقل يتماشى والمنطلق السليم ويقرر بروح علمية
٨ ـ تنسيق المدرسة للعمل التوعوي في المجال الديني مع المؤسسات المفروض انها تنشط في البيئة الاجتماعية التي توجد بها المدرسة ـ من باب اشعاع المدرسة على المحيط ـ كالمساجد والجمعيات الدينية والمشاريع الخيرية التي يمكن ان يجد فيها الطفل مجالا لصرف نشاطه الديني ومباشرة عباداته ومعاملاته بصفة عملية
٩ ـ تحصين التلاميذ من التيارات الإلحادية والفلسفات اللا دينية عن طريق البحث والنقاش بأسلوب يجعل الدين أمراً حيوياً في ذهن التلميذ وتصوره، لأنه يقبل المعقول ويرفض الباطل.
١٠ ـ تركيز الأخلاق عن طريق الدعم النقلي الواردة نصوصه من الدين قرآنا وسنة الى جانب صياغتها في قالب منطقي يقبلها العقل وتستسيغها النفس حتى يصبح الدافع للعمل بها ذاتيا.

وأما المجتمع فهو البيئة الكبرى التي تتفاعل فيها تيارات وتتلاقح أفكار وتتزاحم فيها عوامل الضغط على الانسان، وهو في عصرها الحديث مجتمع متحرك نشيط في توجيه أفراده نحو ما يسعد حياتهم، ولا شك انه

بيئة انصهار كبرى للأفراد يتعرضون فيها لألوان من الضغط الناشىء عن حركة التغيير، مما قد يحدث لديهم صراعا داخل نفوسهم، وفي كل يوم يدخل المجتمعات جديد من التغير وجديد من ألوان السلوك يتبع، ونحن في مجتمعاتنا الاسلامية اليوم نواجه زحفا حضاريا غازيا من الغرب أثر علينا تأثيرا سلوكيا واضحا، وأكثر من هذا يدهمنا غزو فكري يرمي الى الالحاد وتحطيم ما لدينا من عقيدة وخلق، والفرد المسلم أحيانا ينجرف مع هذا الغزو، فقد صحب هذا التيار صيحات ترمي « المؤمنين » بالتخلف والرجعية، ولكي يكون الفرد متقدما متطورا ولا يكون رجعيا متخلفا يرمي بنفسه في هذا التيار تاركا تراثه وحضارته وأصالته، وبقدر ما يأخذ مجتمعنا المسلم من انواع السلوك الغربي باعتباره ضربا من ضروب التقدم، بقدر ما يغفل عن دواعي القوة التي وصل اليها الغرب.

ان المجتمع هو المسئول عن غزو الثقافة الغربية لعقول الناشئة المسلمة التي اصبحت ضائعة، ولم يبحث عن اسباب هذا الضياع كما انه لم يهتد الى الوسائل الناجعة التي تملأ فراغ الشباب بما هو للدين انسب وللتقدم الايجابي الذي لا يتعارض مع الدين الاسلامي المستوعب لكل اصناف التطور، اقرب.

ومن اهم ما يمكن للمجتمع ان يقدمه لأفراده دعما للدين وتثبيتا للخلق وحفاظا على الأصالة:

١ ـ حسن استغلال وسائل الاعلام بمختلف اصنافها المقروءة والمرئية والمسموعة حتى تكون مؤثرة في الأفراد تأثيرا يؤكد مفهوم التقوى ومحاسبة النفس.

٢ ـ ادراج برامج دينية في مجال التوجيه السياسي والاجتماعي الذي ينظم لفائدة المجتمعات الصناعية او التجارية او الفلاحية حتى يكون تكوين هؤلاء تكوينا متكاملا يجمع بين الوعي السياسي والاعداد النقابي

والصقل الاجتماعي والتعمق الديني.

٣ ـ العمل على انتقاء الافلام واختيار ما يمكن عرضه منها ومن المسرحيات مما لا يتعارض مع كريم الخلق وفاضل السلوك، بل العمل على دعم هذا المجال بالكتابة والانتاج وتكوين الاطارات الفنية والتقنية دعما لتأصيل الفكر الديني وتثبيتا لقيمه، وان ابراز بعض المواقف الخالدة في تاريخ المسلمين لمما يحقق هذا الأمل.

٤ ـ تطوير دور المساجد حتى تكون جذابة بفضل ما ينظم فيها من ندوات علمية ومهرجانات دينية بعيدة عن المألوف مما هو بعيد عن الدين كفرق الاذكار والانشاد المحسوب على الدين.

٥ ـ تطعيم البرامج التهذيبية والتدريبية للفرق الرياضية واعداد الشباب بمفاهيم دينية تؤكد اخلاصهم لأدوارهم التربوية ولمبادئهم التي يعملون على ضوئها ومواثيقهم التي يسيرون على مناهجها.

٦ ـ تحلية جدران أماكن الاجتماع بالمعلقات والمخطوطات المبرزة للحكم التربوية والهدى القرآني والنبوي وان معلقة بالمطعم يكتب عليها بخط جميل:

تطهر قبل الطعام وبعده ـ المعدة أصل الداء والحمية رأس الدواء، لمما يؤثر في الناس ويركز كريم السلوك في صمت. وما الأرتال ومختلف وسائل النقل العمومي والحمامات والمغازات وخاصة الكبرى منها، والمصانع والورشات وغيرها الّا أمكنة تسوعب الناس فيتزودون بمقاصدهم وغيرها مما هو معروض فيها، ومن المعروض الدعوة الدينية والتوجيه الخلقي، وقد تكون اللوحات المضيئة أو الكتابة أو الصور الالكترونية الجارية من بين وسائل عرض هذه التوجيهات.

وقد تتكلم المذيعة معرِّفة ببعض البضاعات ومشيدة برخص الثمن وجودة النوع. وكم يكون كلامها مؤثرا لو تستعرض بعض الحكم الموجهة نحو الأمانة والعفة ومراقبة الله فيستفيد الزبائن وتستفيد الاذاعة على الاقل بالاقلال من الحراس والمراقبين الذين تساهم اجورهم في ارتفاع

اثمان البضاعة وغير ذلك مما هو راجع الى القطاع التجاري من مكاسب ان الأمن والطمأنينة هما أساس الربح وسلامة التعامل.

بهذا وبغيره يقل التناقض بين ما يتزود به الابناء من اعداد ديني وخلقي بالبيت والمدرسة وما يعيشونه في المجتمع من احداث ومظاهر

وبتطبيق مثل هذه المقترحات يمكن للمجتمعات الاسلامية ان تتدرج نحو تطبيق الشريعة الاسلامية في مختلف المجالات بما في ذلك الحدود التي شرعها الله استئصالا للفساد واقامة للعدل والصلاح.

لماذا ندرس التربية الاسلامية بمدارسنا ومعاهدنا؟

ان المتصفح لمناهج التربية والتعليم في العالم العربي والاسلامي ليجد ان هناك شبه اجماع على ادراج التربية الاسلامية ضمن مناهج التعليم وان كان بعض السذج من أدعياء المسئولية التربوية كثيرا ما يعبرون عن استغرابهم من الأمر مدعين ان الدين من متعلقات البيت والمجتمع، والمدرسة لها دور التصحيح والتهذيب وكفاها ذلك مسئولية في الموضوع، بل ان بعضهم ليمعن في ملاحظته الى درجة الحكم على ان البرامج التعليمية قد تتنافى مع ما جاء به الاسلام نفسه «لا اكراه في الدين» ووحدة المناهج والتكوين قد تشمل فيما تشمل بعض التلاميذ المنحدرين من أسر غير إسلامية، وما دري هؤلاء السذج ان الظروف التي تمر بها المجتمعات الاسلامية، والأوضاع التي عليها البيوت في ديار الاسلام لا تسمح بأن تتخلى المدارس والمعاهد عن الاضطلاع بمهمة التربية الاسلامية، بل ان الدور الذي يؤمل قيام كل منهما به دعما للمدرسة والمعهد مشكوك في ايجابيته، اذا فلا بد من التركيز على المدرسة والمعهد في إعداد النشء دينيا، بل ان ذلك لهو من حتمي الأمور مع افتراض قيام كل من البيت والمجتمع بالدور المناط بعهدته أحسن قيام لاختلاف الجوانب التي تتناولها كل بيئة، لأن التربية الاسلامية هي عملية اعداد للحياة بمفهومها الواسع ولم تكن قط عملية تزويد وحشو للأدمغة كما يتراءى للبعض ممن يكرهون هذه التربية كراهية جهل لها.

وتتضح هذه العملية الاعدادية والتربوية للتربية الاسلامية فيما سنعرضه من

أهداف لا يمكن لأي من البيت او المجتمع او لكليهما معا ان يحققا هذه الأهداف:

١ ـ الايمان بالله وبرسوله ايمانا واعيا عن طريق النشاط العقلي والصفاء العاطفي، ومظهر ذلك طاعة أوامره واجتناب نواهيه

٢ ـ تصحيح النظر العقلي في الوجود خالق ومخلوقات عن طريق ما تعرضه المدرسة من حقائق ناصعة وقواعد فكرية ثابتة حفاظا على الوحدة الفكرية، واجتنابا للخلافات المذهبية والطائفية، ولما في ذلك من قوة تزيد في ايجابية المجتمع المتماسك أفراده.

٣ ـ اثبات مفهوم البقاء المحبب للنفس في صورتيه الحقيقيتين الدنيا والأخرى في تعادل كما جاء في الأثر:

«اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»

٤ ـ غرس مفهوم التقوى في النفوس وهو ما يعبر عنه بالضمير الديني اي اليقظة الدائمة بمراقبة النفس وربطها بعلم الله ومراقبته وما في ذلك من عميق الأثر على تحقيق الطمأنينة والنظام الاجتماعيين.

٥ ـ إعطاء المتعلم مُثُلاً ساميةً لتكون له القدوة الحسنة، اذ يتخذها معيارا لمختلف أعماله، وبقدر ما يتأثر بها يمكن له ان يؤثر في غيره ممن يحيطون به وبذلك يتأثر المجتمع كله.

٦ ـ إقدار المتعلم على فهم المصطلحات الدينية فهما صحيحا يسهل عليه ممارسة مدلولاتها بكيفية تيسّر اخذها وممارستها على تعاقب الأجيال، في بعد عن المزالق الخطرة والتشابه المضلل وخاصة في المعاني الغيبية والمفاهيم المجردة كالبعث والمعجزات والروح والملائكة والجن.

٧ ـ تحصين الشباب من ان تزعزع عقيدتهم عن طريق ما يطلعون عليه من فلسفات مادية ونظريات إلحادية ومبادىء هدامة تنادي بالثورة على كل قديم متوارث من عرف وتقليد وفكر ومعتقد.

٨ ـ تصفية الافكار الدينية مما الصق بها من خرافات وأباطيل وبدع وترهات واثبات مدى تقدير الدين الاسلامي للفكر والعقل ومدى تفاعله مع

العلم، وبذلك يكتسب المتعلم قدرة التفريق بين ما هو من الدين وما هو ليس منه.

٩ ـ تعريف التلميذ بأركان وشروط اداء العبادات الدينية وممارسة الشعائر والمناسك عن وعي وفهم وحس إدراك لفوائدها وحكم تشريعها، وكذلك تعريفه بأبواب فقه المعاملات المالية والاجتماعية والحكم والقضاء والحدود والاجتهاد.

١٠ ـ إتاحة الفرص له ليكون له من وضوح الرؤية لخصائص الدين الاسلامي ما يجعله قادرا على حل مشكلات الفكر والاعتقاد ومعضلات الحياة في ضوء ما جاء به الوحي الإلهي وما كشف عنه العلم الكوني، وما في ذلك من إمكانية المواجهة للتيارات الالحادية المستوردة والانحرافات التي تقمصت عن جهل وسوء فهم خصائص الاسلام والتي قد تحدو ببعض السفهاء الى التطاول على مبادئه وأفكاره.

١١ ـ إبراز المفهوم الحقيقي للدعوة الاسلامية باعتبارها دعوة الى الايمان بالحقائق الثابته بثبات نواميس الكون، والمتجددة بتجدد عوامل الحياة ومسايرتها للعلم الكوني الذي يعمق معرفة الانسان لقيمته ومكانته في الحياة التي بوأه الله لها وجعله فيها أكرم مخلوقاته.

١٢ ـ ترويض النفس على ضروب من النماذج السامية في المعاملات الانسانية والمُثل العليا للعلاقات البشرية التي تصور الكمال الخلقي والصفاء الروحي والاستقامة السلوكية في أجمل مظهر وأحسن سمت.

تلك بعض أهداف التربية الاسلامية التي تعمل من أجلها المدرسة قصد تحقيقها في الناشئة الا ان هذا القصد لن يتحقق بالصورة التي يريدها المربون المخلصون مالم يدعموا سعي المدرسة بتعاون البيت والمجتمع، إذ في تظافر الجهود تحقيق الآمال.

إن المدرسة وهي تخلص في تحقيق بعض الاهداف التربوية السالفة الذكر لتقف مبهوتة في كثير من الأحيان امام عدة عراقيل تحد من قدرتها وتقلل من جدواها ومن هذه العراقيل:

أ ـ الحركة العلمانية التي غيرت المجتمعات وأغرت الانسان بقدرته على السيطرة على الكون وكشف اسراره وألصقت سمة الجمود والتخلف للتربية الاسلامية في مادتها واطارها، باعتبارها مادة لا تتماشى وروح العصر مما زهد فيها التلاميذ بعد أن قل اهتمام المسئولين على البرامج التعليمية بها.

ب ـ جمود أغلبية المشتغلين بالعلوم الاسلامية بحركة الحياة وتطور الانسان حتى يتضح موقف الدين من مختلف القضايا الحضارية التي جاد بها العصر وما يتسم به من مرونة مستوعبة وبلاغة تصفية ومقنع تصحيح، وان الاسلام دين كل زمان ومكان.

جـ ـ التناقض الصريح بين ما يلقن اياه أو يعرف به التلميذ من تشريعات سماوية واحكام الهية وبين القوانين الوضعية العلمية، مما يثير في التلاميذ كوامن لها من الآثار ما يزعزع الثقة على الأقل بين التلاميذ والمادة العلمية من جهة وبينهم وبين المربين من جهة اخرى وما قد يكون نتيجة حتمية لكل ذلك من تصدع العلاقة بين مختلف الفئات الاجتماعية والنظم السائدة والهيئات العلمية القائمة

د ـ تناقض ما يتلقاه التلميذ من مواد وخاصة منها مادة التربية الاسلامية ومادة الفلسفة وما يصاغ في هذه الأخيرة من أفكار الحادية مغرية تستهوى الشباب وتسهل انحرافه خاصة اذا كان مدرسوها ممن عرفوا بالتطاول على الدين.

هـ ـ إقتصار التربية الاسلامية على مد التلميذ بالمادة العلمية دون تجاوز ذلك الى التهذيب النفسي والتربية السلوكية، ويتمثل ذلك فيما يظهر بعض المربين من تهديد تلاميذهم بسوء المثوبة على التقصير عن الحفظ او الاستحضار، وبالعناية المتكلفة التي يظهر بها الأخيرون خوفا وطمعا.

و ـ إدراج مادة التربية الاسلامية ضمن مواد الايقاظ ان لم نقل ضمن المواد الهامشية، مما يضعف العناية بها دراسة وتدريبا ومظهر ذلك قلة الوقت المخصص لها وضآلة تأثيرها في حساب المعدلات التي يكون بها الارتقاء أو الاخفاق والرسوب وخاصة انعدام أثرها على التوجيه المدرسي أو الجامعي، لذلك وغيره فكثيراً ما تنقلب حصص هذه المادة حصصا يظهر فيها المعلم يأسه وملله بقدر ما يظهر فيها المتعلم براعته في الاستثمار بالنظام المدرسي وبالخروج عن الإلف والعادة. وقد يضطر بعض المدرسين الى الاستعاضة عنها بما يضمن لهم النظام والهدوء، كأن تنقلب الحصة الى مادة اخرى كاللغة مثلا، او ان تصبح فرصة لعرض القصص او استعراض بعض الاحداث الهامشية قتلا للوقت وسدا للفراغ دون اي هدف تربوي.

ز ـ ضبابية الخرافات والتقاليد الزائفة التي خالطت الشعائر الاسلامية وقصور بعض المدرسين عن ازالة هذه الشعائر عن جوهر الدين وابرازه في صفائه ونصاعته وامكانية انطباقه على الواقع في صوره الطاهرة وعمق تأثيره فيه اصلاحا وتهذيبا.

ح ـ عموم التفاوت في المقدرة الصناعية في مجال التربية والتعليم بين مدرسي التربية الاسلامية وبين غيرهم من مدرسي المواد الاخرى وخاصة منهم مدرسي الفلسفة بالاضافة الى ما قد يظهر به بعض مدرسي التربية الاسلامية من سلوك قد يتناقض مع ما يتحدثون فيه مع تلاميذهم، أو ما قد يتسم به فهمهم للدين من سمات تجعلهم بعيدين عن واقعهم منعزلين عما يجد حولهم من تطور وتغير.

ط ـ عدم اهتمام معظم مدرسي المواد الاخرى بالتربية الاسلامية بل يعمدون الى اعطاء التلاميذ انطباعا غير مشجع عنها، ويشجع ذلك ايضا الجو المدرسي العام البعيد كل البعد عن المظهر الديني عدا بعض الحالات الاستثنائية القليلة.

المعلم والاستاذ:

إن مدرس الدين سواء اكان معلما بالتعليم الابتدائي أو أستاذاً بالتعليم الثانوي هو انسان بما في تعريف الانسان من مفهوم يبعده ان يكون معصوما وهو سليل بيئة معينة تؤثر فيه وقد يؤثر فيها ان توفرت له خصائص التأثير.

والبيئات الاسلامية اليوم اقل ما يقال فيها انها بعيدة عن الاسلام في كثير من مظاهرها نتيجة عوامل عديدة كنا اشرنا الى بعضها. وليس في مقدور مدرس الدين ان يسلم من التأثر ببيئته، لأنه المعول عليه بالدرجة الأولى لإعادة بناء المجتمع الاسلامي على أساس الدين في أصح مبادئه وأصفى معانيه.

ومما تجدر الاشارة اليه من هذه العوامل المشوهة تظافر جهود كثير من المسلمين (عن قصد أو غير قصد) مع جهود الخصوم الألداء للاسلام لتركيز الكثير من مظاهر الانحراف في مجتمعاتنا الاسلامية، فكان البيت أول فريسة لهم صاغوه في صياغتين: إما المحافظة التي هي الى الخرافات والتقاليد الطائفية انسب بالاضافة الى ما كان عليه اهل هذا الصنف من البيوت من جهل وفقر وظلمة فكرية تحول دونهم ورؤية الاسلام على صورته التي أرادها الله له. واما التحلل والتفسخ وقد كان ذلك الأغلب على طبيعة اهل اليسار، وهل يرجى من هذا الرهط خير وينتظر منه اصلاح؟

والفريسة الثانية والحتمية هي المجتمع الذي اجتاحته مظاهر الانحراف كالتجاهر بانتهاك المبادىء وتعاطي المحرمات والتباهي بالتقليد للغرب او الشرق في غير اختيار مما يخيل الى المتأمل وكانه يعايش اقواما خلت مفاهيمهم مما تبقى من الاسلام. وتخلصت قلوبهم مما تبقى من الايمان، فكان المجتمع مزيجا من صورتين مشوهتين: ميوعة وتفكك، وتخلف

وتحجر، وقد زاد الوضع تأزما ما كان بين اهل الصورتين من كراهية وعداء.

اما الفريسة الثالثة فهي المدرسة اذ تجمع خليطا من نتائج البيت والمجتمع، خليطا عجيبا من عناصر متنافرة بعيدة عن الاسلام، وفيها قلة اصطفاهم الله رحمة بهذه الامة، فكانوا من بين المربين الذين حافظوا على ما أمكن الحفاظ عليه من مقومات الأمة الاسلامية والذين يرجع الفضل اليهم في عدم خلو اي فترة من فترات تاريخنا الطويل من مفكرين جادين وعلماء مصلحين بذلوا وما زالوا يبذلون من أجل استنهاض الهمم وايقاظ المشاعر لاصلاح الفاسد وتقويم المعوج عسى ان يسترجع المجتمع الاسلامي عناصر قوته ومناعته

واقع المعلم في المدارس الابتدائية:

ان المعلم التونسي المتخرج من دور المعلمين أو المنتدب لحصوله على شهادة ثانوية تؤهله لمباشرة مهنة التعليم للصفوف الابتدائية يدرس فيما يدرس من مواد مختلفة كاللغة والرياضيات والبراعة اليدوية يدرس الدين في حصص قليلة كانت الى حدود النصف الاخير من السبعينات لا تتجاوز الثلاثين دقيقة في الاسبوع يتناول فيها من القرآن الكريم (حزب واحد في ست سنوات) ان صدق العزم على انجازه حفظا اما الفهم فأمره يحتم التوقف، وقليلا من الاخلاق واشارات مجملة للعبادات. والمعلوم ان المعلمين لم يسبق لهم ان درسوا التربية الاسلامية او اطلعوا على اصول تدريسها في المعاهد ودور المعلمين او الدورات التدريبية اذ ان مادة التربية الاسلامية تدرس بقدر محدود جدا في معاهدهم، وقد وقع الاهتمام بهذا الموضوع بفضل الجهود الخيّرة لبعض الغيورين من رجال الاشراف على التربية الاسلامية والوطنية في تونس. وهذا الوصف لا يشمل المدارس القرآنية في الفترة السابقة للاستقلال، كما أنهم لا يمكن لهم أن يأخذوا أي توجيه من المتفقدين او المرشدين التربويين الذين يباشرون تكوينهم

وتوجيههم ضرورة تخرجهم من نفس المعاهد التي تخرج منها المعلمون «وفاقد الشيء لا يعطيه» فبقي أمر تعليم الدين في المدارس الابتدائية مجال اجتهاد المعلم يخطىء مرارا ويصيب مرة وليس له من مسعف الا بعض التوجيهات التي صاغها له واضعو البرامج الرسمية في سفر البرامج، ومن حسن الحظ ان كانت هذه التوجيهات عملية وممكنة التطبيق.

واقع مدرس التربية الاسلامية في المعاهد الثانوية:

ان المدرسين الذين مارسوا تدريس الدين بالمعاهد الثانوية والاعدادية لم يكونوا بالمختصين الا القليل النزر من اساتذة الزيتونة الذين لم يحالوا على التقاعد بعد حذف التعليم الزيتوني وتوحيد مناهج التعليم في كافة المعاهد الثانوية الدولية منها والحرة، اذ كان يباشر التعليم الديني خليط من المربين ومن المحسوبين عليهم: هناك المعلمون الملحقون بالتعليم الثانوي والمساعدون على التعليم والقيمون العامون وكتبة ادارات المعاهد وبعض النظار ومديرو المعاهد، وأغلب هؤلاء يخصون أنفسهم بدروس التربية الدينية للراحة مع امكانية الكسب على حساب الحصص الاضافية وقد اصبح من المألوف والغريب في آن واحد ان يدرس الدين غير المؤمنين به والعامل بمنهياته من المدرسين، بل وحتى من يجد الفرص له متاحة للتعبير عن رأيه المنحرف في بعض المسائل التي تتعلق بالعقيدة والتشريع. وليس عجبا ان يكون عمل هذا الرهط من المدرسين على هذا النحو لأنهم لم يسبق لهم ان درسوا الدين دراسة واعية وانما لبعضهم معلومات أولية قد يستوون فيها مع تلاميذهم، وفاقد الشيء لا يعطيه واستمر الحال على هذا الوضع حتى بعثت كلية الشريعة وأصول الدين فأصبح للمادة الدينية الاطار المختص والذي على توالي السنين منذ الستينات لم يغط الى حد الآن حاجة التعليم الثانوي اذا اعتبرنا سرعة نمو هذا التعليم في عدد تلاميذه وفصوله ومعاهده من جهة، وما ادخل على مناهج التعليم من اصلاح تناول فيما تناول التربية الاسلامية مباحث ومحاور ووقتا بفضل ما بذله اطار التفقد والاشراف من متواصل المجهود تمثل في تكثيف النشاط التربوي كالملتقيات

والندوات التربوية والأيام الدراسية، وبفضل ما تميز به وزير التربية القومية آنذاك الذي أصبح الوزير الأول فيما بعد من خصائص ذاتية وميزات ايمانية جعلته يحضر معظم هذه الملتقيات ويأمر بالاصلاح تلو الاصلاح الى ان تحققت بفضل الله امكانات مادية وأدبية تجدون صورتها مجسمة فيما يعرض على كريم عنايتكم من برامج رسمية واهداف مرسومة وتوجيهات هادفة ومحاور متنوعة ترمي في مجموعها الى تنشئة الشباب تنشئة دينية متكاملة.

ما هي الأسس التي يعد عليها منهج التربية الاسلامية؟

أ ـ معرفة الدين الاسلامي:

١ ـ في طبيعته:

- الايمان بالله وبالرسل والكتب والملائكة والبعث.
- طاعة الله وعبادته
- حسن التعامل مع الغير.
- الاعتزاز والقوة.
- الاخوة والعدالة والمساواة.
- التشريع والتنظيم.

٢ ـ طبيعة المتعلم:

والمقصود من هذه الطبيعة ما يتعلق بتطور الشعور الديني عنده.

- **مرحلة التصور الخيالي للمفاهيم الدينية** وهي فترة مابين ٣ ـ ٦ سنوات، (رياض الاطفال): وتقتضي هذه المرحلة صياغة المفاهيم المجردة مما يجعلها الى النفس احب، كرحمة الله ونعمه وهدي الرسول وشفاعته وحسن الجزاء ونعيم الجنة

- **مرحلة الواقعية: من ٧ الى المراهقة**: وتقتضي هذه المرحلة الاحتياط من إحكام الربط لكل المفاهيم الدينية ـ بما في ذلك المجردة ـ بالواقع لشدة

ارتباط طفل هذه المرحلة بواقعه الذي يعيشه حتى لا يضل السبيل وذلك بالتأكيد على مفاهيم الخير والجمال المتناهيين اللذين ليس لهما نظير في الواقع لفرط الوصف.

- **مرحلة الفردية والاستقلال الفكري، وهي فترة المراهقة وما بعدها،** وتقتضي هذه الفترة حماية الطفل من التصورات الخاطئة للغيبيات، وذلك عن طريق النقاش والحوار والاستدلال والدعم بما ينهض له العقل ويقوم له الواقع المشاهد والصحيح، وخاصة امكانية التفريق بين العلم والعمل والخبرة الدينية والقيم الاخلاقية وبين هذه والسلوك.

والقصد في هذه المرحلة الخروج بالطفل من مرحلة الصراع الفكري الى مرحلة الثبات والاستقرار، وانتشاله خاصة مما قد يقع فيه من شك ينال من عقيدته نتيجة ما يزود به أو يتزود بنفسه من تيارات فكرية وفلسفات مادية قد تبعثه على الثورة على كل ما هو قائم لما يتصور فيه من ظلم وعسف واستبداد. فالأخذ باليد والمساعدة على ازالة الغموض هو دور التربية الاسلامية.

٣ - حركة التغير الاجتماعي:

حفاظا على ارتباط الدين بالواقع وللاسلام دائما حلول لمختلف المشاكل التي جاء بها العصر إما بالاتفاق او الاختلاف او التهذيب والتصحيح.

ولكي نضع برنامجاً للتربية الاسلامية في أي مرحلة من مراحل التعليم فلا بد من مراعاة هذه الاسس الثلاثة الرئيسية واعتبار خصائصها اعتبارا يضمن نجاعتها وثري مردودها. هذا بالاضافة الى ما قد يفرضه المجتمع من متطلبات في المناهج لمعالجة مشاكله وما قد يحتمه الاطار التربوي من خصائص ايضا مراعاة لمستواه وكيفية اعداده. والخلاصة ان

منهج التربية الاسلامية وخاصة في التعليم الثانوي يجب ان يكون مرنا يمكن الاستاذ من ان يعالج مع تلاميذه موضوعات طارئة يحس بها المجتمع ومشكلات اجتماعية تثار في الحياة اليومية في نطاق ما توحي به بحوث البرامج الرسمية حفاظا على وحدة التكوين وتنفيذا لوحدات المنهج المسطر وفرارا من الوقوع في الأحاديث والخواطر التي لا رابط بين وحداتها الفكرية وأصولها العلمية، كما يجب ان يعطى المدرس حرية الحركة في أسلوب التناول والمعالجة، فكثير من موضوعات التربية الاسلامية تحتاج الى طريقة في البحث تختلف عنها طرق بعض المواضيع الاخرى وذلك مما يضمن للتلاميذ الجدة والتشوف الممتع والاقبال الصادق وهو مطمح كل الادارات الجادة من المسئولين التربويين.

ونتيجة لما تقدم من بيان تبرز معالم المنهج التربوي الموحد في التربية الاسلامية وتتضح مظاهر الاساليب الحية النشيطة لتدريس العلوم الاسلامية إحياء لها وضمانا لتجديدها وتألقها.

وموضوع التوحيد في المناهج والوسائل لا يمثل مشكلة ابدا ما دامت الشريعة الاسلامية واحدة وكون المادة المقترحة في اهدافها وتوجهاتها والطرق والأساليب التي تصاغ فيها وتبلغ بها يجب ان تخضع لحاجات الطفل وظروفه النفسية في مختلف مراحل النمو، وان تلائم ما يكاد تكون عليه المجتمعات الاسلامية من تشابه في الواقع الديني والقيم الاخلاقية والامكانات والرسائل التعليمية، واني لأعتقد اننا واجدون في هذا المجال ارضا خصبة للبناء اذ ستحظى مقرراتنا بحول الله بحسن القبول كما تقبل الارض الظمآى ريها من الماء.

وبناء على ما انا مقتنع به من نجاعة المناهج التعليمية في تونس، ومن غير تعصب، وانا اتذكر ما اعتمدته صحبة رفاق الاخلاص من مراعاة لمدارك التلاميذ في مختلف مراحل التعليم ومن حرص على ان يكون الزاد ملائما في كمه وكيفيه لحاجاتهم ولما يضمن لشريعتنا السمحة من طيب الآثار في النفوس الغضة.

وأما الأساليب التي يمكن ان تتوخى في تدريس المادة، فالى جانب ما قررنا سابقا مما هو خاص بالبيت أو بالمجتمع او بالمدرسة فان التجربة الممارسة أعطت من النتائج ما يبعث على الارتياح بل أثارت استغراب المناوئين الى درجة انهم زلزلوا في افكارهم واصبح الكثير منهم بحمد الله من المشجعين والمعبرين عن إكبارهم لما لاحظوا من آثار اظهرها الاقبال التلقائي والعناية الفائقة التي بدت من التلاميذ رغم ضآلة اسباب الحث والاستنهاض.

وقد أسهم في التأثير الكبير الاطار التربوي الذي جاء عدد منه من رجال التعليم الابتدائي الذين اكملوا تعليمهم العالي بالكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين، واغلب هؤلاء كانوا من قدماء خريجي الزيتونة فأدخلوا حركية مباركة على التعليم عامة والتعليم الثانوي خاصة لما لهم من رصيد تلقوه في حلبات التكوين التربوي بالتعليم الابتدائي في مواد اخرى وبما أظهروه من حسن تقبل ويسر استيعاب للتوجيهات التي مدوا بها في فرص اللقاء بهم بالأقسام التطبيقية والدروس النموذجية والمحاضرات الصناعية وعند الزيارات المساعدة والتفقدات المهنية

ولم نكتف بهذا الرضا الصامت بل عملنا على تحسس النتائج بما أجريناه من استفتاء للمربين وللتلاميذ، وعلى ضوء ما تحصلنا عليه من آراء ومقترحات عقدنا العديد من الملتقيات والندوات على الصعيد القومي تارة وعلى الصعيد الجهوي اخرى، كما أشرنا على نقابتي التعليم الثانوي والابتدائي لتنظيم ايام دراسية لقضايا التربية الاسلامية والتربية الوطنية، وعملنا على توثيق الصلة بين المادتين حتى تفيد احداهما الاخرى ولكن عن وعي بان التربية الاسلامية تشمل الثانية شمولا كليا، الا ان المقاصد في ذلك بعيدة ويطول شرحها في هذه المناسبة وان في تبنينا لهذه التربية المدنية أو الوطنية لفرارا بدروسها من ان تكون تراتيب ادارية جافة أو سرداً تاريخياً لأحداث ضئيلة العبر وكسباً لحصص تعليمية مقررة تدعم فيها المعلومات المستنتجة بالنصوص الدينية والآثار الاسلامية وجعل التهذيب الفكري

والتقويم السلوكي راجعين الى مفهوم التقوى ويقظة الضمير الديني ومراقبة الله عز وجل.

ان ما عليه الاطار التربوي من مقدرة وكفاءة لم يلهنا عن مزيد العناية به والامعان في اقداره على كسب احدث المهارات من خلال تدارسنا معه لمختلف النظريات التربوية والاساليب الحديثة من خلال ما يجد من بحوث تربوية، فنادينا بالتكوين المستمر وهو عبارة عن دورات تنظم بمراكز التعهد والمصطلح عليها (بمراكز الرسكلة) تعرض فيها دروس متلفزة أو تنظم فيها دروس علمية يحضرها الاساتذة والمعلمون، ويخرجون إثر الحوار فيها ومناقشتها بجم الفوائد، اذ تسلط الاضواء على المادة المعنية في كمها وكيفها ومناسبتها الزمنية وقتا وفرصة وصحتها العلمية شرعا ونصوصا، كما يناقش الحاضرون الطريقة التي بها عرض الدرس والاسلوب الذي تعومل به فيه فيلاحظون مدى التدرج في عرض النصوص ويقوِّمون صياغة الاسئلة التوجيهية وما تساعد عليه من حسن اهتداء الى المعاني المرادة استنتاجا وكشفا، ويقفون على مدى ما يتسم به التعليل من منطقي الحجة ومعقول البرهان وما يقوم لذلك من وجيه الدعم بالمنقول والمعقول أو الواقع الموجود. ومما يلاحظونه على الأستاذ في مختلف مواقفه الكلامية والحركية: هدوء إلقائه، مستوى ارتفاع صوته، سلامة تعبيره، مدى قدرته على إدارة الحوار ومناسب البيان، لطف خطابه، اتزان حركاته، حسن إشرافه، ملحوظ مراقبته، معبر إشاراته، وضوح كتابته على السبورة ونظامها، دقة ملاحظته ونجاعة مراقبته، ردود فعله عند المفاجآت، تمكنه من السيطرة على المادة العلمية وحسن التصرف فيها.

ومما يلاحظونه على التلاميذ ايضا: في مظهرهم ووضعهم في القاعة وتوفر أدواتهم ومدى تجاوبهم مع الأستاذ واهتمامهم بالمادة، وأسباب عجزهم عن الاجابة عن بعض الأسئلة، ووقع الدرس في نفوسهم، ومستوى النتائج العلمية والتربوية التي اكتسبوها من الدرس.

إنه بهذه المعالجة يمكن لنا ان نتعهد مدرسينا القدامى لنشحذ أذهانهم ونستنهض هممهم لمزيد البذل من اجل حسن الاضطلاع بالمهمة التربوية كما يمكن لنا ان نكوِّن المعلمين والمدرسين الناشئين تكوينا يضمن لهم يسر اكتساب المهارة الصناعية والكفاءة التربوية التي بها يعملون على صالح تنشئة الأجيال.

ولعمري ان هذا النوع من التكوين يمكن ان يكون مجال اتحاد واشتراك يعين على الاتجاه التربوي الموحد للمناهج والمخططات التربوية في البلاد الاسلامية

إننا نأمل مں هذا التكوين للإطارات التربوية المقتدرة على تدريس التربية الدينية والعلوم الاسلامية الظفر بصنف مں المربيں لهم من السمات الأساسية ما يؤهلهم ليكونوا في مستوى المسئولية المناطة بعهدتهم. ونتصور ان تكون هذه السمات على النحو التالي:

أ ـ الكفاءة العلمية:

١ ـ إلمام الاستاذ بما في الحياة مں اتجاهات خاطئة ومبادىء وافدة وأنظمة سائدة وأديان قائمة، وتحليل لمعناها وغاياتها ووسائلها

٢ ـ فهم الاسلام منظما لهذه الحياة بأسرها، سماويا كما نزل، خاليا من الزيادة والنقصان والتحريف، ومجردا من الهوى والآراء الشخصية، ومنزها عن الطائفية والمذهبية والعنصرية، وشاملا لآفاق الحياة في مختلف مجالاتها.

٣ ـ استيعاب النصوص الاسلامية مں قرآن كريم وحديث صحيح فهما وحفظا

ب ـ قوة الشخصية:

١ ـ الثقة الكاملة بالاسلام والالتزام الدقيق به، ثقة مصدرها الادراك والوعي والفهم، لا مجرد التعصب الأعمى والتحجر والتقليد الساذج.

٢ ـ مجانسة العمل للكلام تجنبا للتناقض الذي يفضي الى الحكم على الاسلام بكونه عاجزا عن اصلاح اهله فضلا عن ان يكون مصلحا للغرباء.

٣ ـ الورع، وهو مراقبة الله تعالى في كل ما يتعاطاه المدرس من نشاط إرادي ظاهر او باطن صادر عن القلب او الفكر او الجوارح، اذ ان ذلك يحقق ثقة التلاميذ بأستاذهم الديني ويدعوهم الى الاقتداء به، وكما هو معروف فلا اصلاح من غير أسوة حسنة ولا أسوة من غير ثقة واطمئنان ولا ثقة من غير ورع.

ج ـ الإلمام بطرق التدريس وأساليب التعليم:

١ ـ تتوزع طرق الهدى حسبما تحتمه الظروف وتفرضه طبيعة المشاكل التي يهتم بها التلاميذ.
٢ ـ جعل أساليب التوجيه تتناسب مع مستساغ الصيغ وأجداها.
٣ ـ اتاحة الفرص للتلاميذ كي يبحثوا عن حلول شخصية لمشكلاتهم ويتشاوروا فيما بينهم حولها ويتحسسوا مدى نجاعتها ورشدها.
٤ ـ تدريب التلاميذ على ملاحظة نقاط السلب ومواطن الايجاب حتى يتمرنوا على النقد الذاتي النزيه ويعملوا على اصلاح ما بأنفسهم تلقائيا وفي غير ما ترهيب ولا ترغيب.

د ـ الصفات الخاصة: الطبيعية والمكتسبة

١ ـ الاستقامة الجبلية حتى يحال بين هذه المهمة وبعض الشواذ والمنحرفين.
٢ ـ سلامة النطق ووضوح التلفظ.
٣ ـ بلاغة التعبير وطلاقة اللسان.
٤ ـ وضوح الأفكار ويسر الافصاح عنها.
٥ ـ القدرة على الاستدلال بالمنطق والعقل.
٦ ـ يسر الاستشهاد بالواقع الحي والنصوص الصحيحة.

٧ ـ جمال المظهر: نظافة بدن وثياب وسلامة ولياقة ونشاط.
٨ ـ الذكاء والمرونة العقلية: حسن اختيار الظرف المناسب والعلم المناسب والمنهج المناسب حسب الحاجة
٩ ـ الموهبة والرغبة في القيام بمهمة التدريس عامة وللتربية الاسلامية خاصة
١٠ ـ النفسية المنبسطة والمتفتحة غير الانطوائية وغير المنقبضة والمعقدة.
١١ ـ الثقافة العامة: فقه ـ اقتصاد ـ سياسة ـ اجتماع ـ علم النفس ـ تربية ـ فنون.
١٢ ـ التجربة والخبرة في الحياة: الاحتكاك بأصناف الناس والوقوف على مشاكلهم.
١٣ ـ الشيم الشخصية: التواضع ـ الاحترام ـ حسن الاصغاء ـ أدب الحديث ـ عدم انتقاص الناس ـ احترام كبيرهم والرأفة بصغيرهم.

وإن تبادل الزيارات والوثائق لمما ييسر عملية التوحيد أو الاتفاق على اختيار منهج يكون اكثر ملاءمة لأوضاعنا الاجتماعية واستعداداتنا الشخصية. كما ان النشاط الحر والمنظم خارج الدروس بالمعهد أو خارج المدرسة تماما مما يمكن ان تأويه النوادي والمساجد، ما يعين على تحقيق الأهداف.

ويمكن ان يكون هذا النشاط:

ـ في صورة محاضرات حول عدة مواضيع ذات أهمية في حياة الشباب أو ذات طابع قومي اجتماعي أو سياسي.
ـ أو تنظيم رحلات دراسية الى بعض المعالم والآثار
ـ أو مباشرة عمل تطوعي تعاوني داخل المعهد أو بعض المؤسسات الدينية او الاجتماعية او المساهمة في مشروع خيري له فوائده الواضحة على طلبة العلم ودوريات البحث.
ـ أو الاشراف على الاحتفالات الدينية في المناسبات والأعياد وما في ذلك من دعوة الى التمسك بأهداب الدين وإقامة شعائرة المشروعة

- والاسهام في البرامج الاذاعية والتلفزيونية في حدود ما تحتمه الحاجة وتفرضه الضرورة.
- أو تخطيط حكم مختارة على لوحات بخطوط فنية تعلق على جدران الفصول والأروقة.
- المساهمة في نشرية دينية خاصة بالمعهد، أو كتابة مقالات دينية في ركن البحوث الدينية من مجلة المعهد.
- إثراء مكتبة المعهد بالتبرع لها بكمية من الكتب الدينية أو بخدمتها تنظيما لها وترتيبا لفهرستها.
- تسجيل بعض القراءات للقرآن الكريم لما في ذلك من تدريب عند سماعها على بليغ قراءة القرآن وحسن أدائه.
- استغلال نادي التصوير لانتاج بعض الاشرطة المتحركة او الثابتة ولابراز بدائع خلق الله في بعض مخلوقاته لما في ذلك من تعبير عن قدرة الله عز وجل وفضله على الكائنات.
- تنظيم ندوات دراسية لبعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية، وتستخلص العبر التربوية من خلال شرحها وبحثها.
- الحرص على ان تكون برامج نشاط منظمات الشباب مطعمة بما له صلة بالأخلاق والدين. الى غير ذلك من انواع النشاط الذي يكمل البناء المدرسي، كما أكملت المدرسة ما بناه البيت وحافظ عليه المجتمع.
- العمل على اشاعة الاناشيد الدينية الحاثة على الايمان والداعية الى صالح الأعمال والمشيدة بمآثر الأبطال وأمجاد السلف الصالح قصد التأثير بها على الناشئة

كل هذه النماذج من النشاط اللا فصلي أو الخارجي يمكن أن يباشره التلميذ والأستاذ في انفراد تارة وبتلازم اخرى، وما اجداه لو يتم في تنسيق يضمن المباشرة من التلاميذ والاشراف والتيسير من الأساتذة والمعلمين.

ان الانزواء عن هذا النوع من النشاط الديني يتيح اسنح الفرص لبعض المتسترين بالدين لكي ينفذوا أغراضهم البعيدة عن الدين فيضلون الشباب بترهاتهم وينشرون الغواية في مأمن من رقابة الخبراء والبصيرين

بأمور الدين، ويكفيني بيانا في هذا الموضوع ان أعرض عليكم هذه الحادثة الواقعية. والتي لولا لطف الله ويقظة بعض الغيوريين على التوعية الدينية لكان لهذه الحادثة من سيء الآثار ما لا يخفى على فاحص آرائكم وواسع مداركم، وذلك ان في أواسط الستينات انبعث في تونس وبالضبط في بعض المعاهد الثانوية التي تعتبر من المعاهد الرائدة في الحركات الفكرية والنشاط التربوي انبعثت فكرة فتح ناد خاص بالتربية الجنسية نقلا عن بعض الشعارات التي برزت في بعض البيئات الغربية، فهرع لهذه الفكرة جمهرة من الاساتذة وخاصة منهم اساتذة الفلسفة وأساتذة العلوم الطبيعية وغيرهم ممن صادف الموضوع هواهم، وأول ما تبادر الى أذهانهم مهاجمة التربية الاسلامية في مادتها ورجالها وصرحوا في غير ما مناسبة بأن هذه المادة واساتذتها يمثلون حجر عثرة وعرقلة مقيتة امام هذا المشروع، فتظافرت جهود كثيرة وربطت العلاقة متينة بين هذا المشروع وديوان التنظيم العائلي ثم اسست لجنة تنفيذية سخر لها من الامكانيات المادية والبشرية ما هيأ لكي تدرج في البرامج الرسمية كمادة ذات كيان منفرد عن بقية المواد.

إلا اننا رأينا أن ترك المجال فسيحا لهذا الرهط ممن أتيحت لهم مسئولية الاشراف على المناهج تخل عن القيام بالواجب وقعود عن الاصداع بالحق ولن يغفر لنا التاريخ ذلك. فاقتحمنا الميدان على الادعياء والسفهاء، وبينا ان التربية الاسلامية هي تربية شاملة تتناول فيما تتناول الجنس ولكن بكيفية هي الى العلم انسب والى الاخلاق اقرب. وباختصار تمكنا من تحويل وجهة هذا المشروع حتى اصبح حركة تربوية همها الاول تنظيم تربصات الاساتذة للتعريف ببعض الطرق التربوية والاساليب البسيطة في مواضيع اجتماعية من بينها مواضيع دينية، وتنظم هذه الاخيرة تحت اشراف متفقد الاختصاص أو من ينوبه من المرشدين التربويين أو الاستاتذة الأولين المختصين.

أردت من عرض هذه الحادثة أن أبرهن على ان من انجع الوسائل لتركيز التربية الاسلامية واعطائها دورها الايجابي، اقتحام أبواب المشاكل التي تثار حولها ومباشرتها بما يلزم من مرونة وصبر ومعرفة حقيقية لنفسية

الطرف المقابل وتناول المواضيع المطروحة معهم في لطف خطاب وحسن تعامل وعرض الحجج المنطقية في رفق وابراز الواقع المفحم بأبلغ الاشارات، وكتم واخفاء كل ما يعبر عن نشوة الانتصار اطفاء لنوازع الحقد والضغينة اذ ليس من السهل القضاء على دعاة الفجور والفسق لما لهم من اسباب المداومة والكر إذ هي داخلية في الانسان وقوية في تأثيرها.

ولا أريد ان اتعرض الى ما يتطلبه الانجاز النشيط لكل درس وفي كل محور من محاور التربية الاسلامية، من خطوات ومراحل لأن الأمر يتعلق بوسائل عملية قد تبحث في نطاق لجان فرعية يمكن ان يكون لي شرف المساهمة فيها، الا ان هناك امورا أساسية يمكن الاشارة اليها باجمال وهي تتعلق بما يضمن تحقيق الأهداف التربوية من اقرب سبيل وبأيسر جهد بفضل ما يمكن ان توفره من تشويق وأن تبعث عليه من تلقائية وعفوية ولذة إقبال، وأن للانتباه وما يشده الدور الخطير في إخصاب النتائج وإثمار الآثار.

انه لمن البدهي ان نعرف ان منطلق كل درس يجب الاّ يشعر بالغرابة بقدر ما يدعو التلاميذ الى طبيعة النشاط الفكري والعملي، دعوة يشعرون في بلاغة ايحائها وكأنهم جاؤوا لتناول الموضوع المعروض عليهم، عن سابق قصد، في حين انه يعرض عليهم لأول مرة وذلك بحسن اغتنام الفرص التي لها علاقة بالمقرر للحصة من محاور المنهج الرسمي.

كما أن تحاور التلاميذ مع بعضهم ومع الاستاذ بأسلوب منظم يتيح الاستماع الكامل وجدية التعبير وطلاقة الافصاح لما يشدهم الى الموضوع اذ يشعرون بمسئولية البحث عما ينير السبيل ويفتح الآفاق ويلهمهم سبيل الخير وأي شعور احسن من شعور أبنائنا بالتكيف والقدرة على بحث ما يجود به واقعنا من أحداث، اذ هم يعيشون عصرهم، ويعالجون القضايا التي يتخبط فيها مجتمعهم، وأي نشوه اقوى من نشوه التعمق في النصوص المعتمدة وتداول ما فيها من عزيز المعاني، ومؤثر التوجيه وحكم التشريع، ورشد التقنين وما يظهر به الاسلام من سماحة وعطف تهفو القلوب اليه وتتحرك المدارك فتأخذ منها نهجه العملي والعقلي والاستنتاج الشخصي

ومصيره في التطبيق السلوكي والانجاز العملي بل واتخاذ الموقف الدفاعي نتيجة ما حصل من اقتناع وجميل اعتقاد بالاضافة الى ما يحصلون عليه مس ثراء لغوي وما يطلعون عليه من التراكيب البلاغية والاعجاز البياني وقمة الاتقان في مجال الافصاح فلا تلقين ولا إلقاء، بل استقصاء ورجوع الى الكتب المدرسية والوثائق العلمية والمستندات المأمونة والمراجع الاصلية، منها يعدون ويتهيأون وبالزاد الذي امكن لهم ان يتحصلوا منها يناقشون فينقدون الضعيف من الافكار ويباركون الوجيه من الآراء ويقتصر دور الاستاذ على الاشراف وادارة الحوار يوجه أو يستوضح ويؤكد بما أوتي من قوة التمييز بين الصحيح وغيره، وبما وهب من مرونة الحفاظ على خصائص عملية التعلم الذاتي حتى لا تنقلب الى عملية تعليم لأن هذه موقوته وزائلة وتلك باقية وخالدة وبالخالد تصلح الأوضاع.

دور الأمن والتربية في تكوين الجيل المسلم

الشيخ أحمد حماني*

سأعالج في بحثي هذا أمرين هامين: الأمن والخوف، واسداء بعض الآراء والاقتراحات للقائمين على حماية مجتمعاتنا العربية من رجال الأمن الدائبين على مقاومة شتى وسائل الجريمة والانحراف. ولما كانت التربية هي الأساس الأول الذي يقوم عليه النشء مما له أثره الكبير في تحديد مساره المستقبلي نحو الفضائل والقيم الروحية، وجدت الصلة وثيقة بين الأمن والتربية في تكوين الجيل المسلم.

وقد اخترت أن يشمل حديثي الأمن والتربية لأني رأيت ان الفضل في هذا الملتقى يعود الى رجال الأمن في امتنا العربية المسلمة. فقد دعانا اليه «المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض» وأشرف على افتتاحه كبير رجال الأمن عندنا، وقد جعلوا من أبحاثه التربية والتعليم لتحقيق تكوين الجيل المسلم الذي يعصمه اسلامه عن الوقوع في حبائل الغزو الفكري من قوات اجنبية مخربة تحاول ان تؤثر تأثيرا سيئا في العقائد والاخلاق، وفي التربية والسلوك وفي العلم والثقافة. وان هذا الغزو (السلمي) لاشد خطرا من الغزو السياسي والحربي والاحتلال العسكري لأنه يحاول أن يفجر بنياننا ويخرب كياننا من الداخل، وها نحن قد تخلصنا من شرور الاذلال والاحتلال السياسي والعسكري ببذل مليون ونصف مليون من الشهداء، ولكننا ما نزال مهددين بهذا الغزو

---

* رئيس المجلس الاسلامي الأعلى ـ الجزائر

الفكري اللعين، الذي يأتينا بأنواع مختلفة من أسلحته، ومنها الغلو في الانحلال الى أبعد أنواع الفجور والفسق والكفر، أو الغلو في التزمت والتحجر الى أبعد الحدود التي لا يرتضيها ديننا، وقد ردها كتابنا القرآن المبين، ونبينا إمام المرسلين.

فشكرا لرجال الأمن ـ في امتنا العربية المسلمة ـ الذين تنبهوا لهذا الخطر الشديد وجعلوا في براجمهم التنبيه اليه، والعمل لمقاومته بمثل هذا الملتقى، وعساهم ان يتدخلوا ـ بما لهم من نفوذ وسلطة وقوة وحنكة وأمانة لحماية أمتنا العربية المسلمة من أخطار جسيمة تهدد كياننا في هذا الميدان.

نعمة الأمن ونقمة الخوف

الأمن الشامل ـ للفرد والمجتمع ـ نعمة كبرى، والخوف والرعب من أشد ما يصاب به الانسان من المصائب والبلايا.

والأمن من مقاصد الشريعة في الخلق بل هو من الضروريات في قيام مصالح الدين والدنيا، هذه الضروريات (إذا فقدت لم تجر مصالح الدين والدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين[1].

ذكر ذلك ابو اسحاق الشاطبي ثم قال «ومجموع الضروريات خمسة وهي حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا انها مراعاة في كل ملة[2]». وكل مجتمع ضمن فيه حفظ هذه الضروريات عاش في هدوء وسلامة، فان فقدت كلها فقد بلغ أسوأ الأحوال.

وديننا السمح اعتنى عناية كبرى بالأمن والخوف ونوه بذلك في مختلف

---

١ ـ الموافقات للشاطبي ج ٢ ص ٨.
٢ ـ الموافقات للشاطبي ج ٢ ص ١٠

الآيات والسور القصيرة والطويلة، والمكية والمدنية.

ففي سورة قريش ـ وهي مكية من قصار المفصل ـ امتن على قريش أجوار بيته بضمان الطعام اذ يجوع غيرهم، وضمان الأمن اذ يخاف الاخرون، وأمرهم بعبادته وحده شكرا لهذه النعم اذ قال: **﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾**[1].

والمجاعات من أشد ما يعذب به الشعوب، والخوف من أسوأ ما يصاب به الفرد والجماعات وقد خافت قريش مرارا ـ وخصوصا لما غزاهم أصحاب الفيل، فأخذ الله أصحاب هذا الجيش أخذ عزيز مقتدر، وكان على قريش أن يشكروا الله بعبادته وحده، وان يستجيبوا لداعي الله لما جاءهم، ولكنهم سدروا في غوايتهم، وكذبوا رسله لما جاءهم، واجترأوا على حرمة البيت فصدوا عن سبيل الله ومنعوا الناس ـ فيه ـ من الايمان والتوحيد، وحرية العبادة.

وتعللوا بالعلل السخيفة للامتناع من الهداية وللبقاء على الشرك والكفر: **﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**[2].

وقد كان هذا الأمن، وهذا الرزق استجابة لدعوة ابراهيم الذي ابتهل الى ربه يوم أسكن ذريته بواد غير ذي زرع فقال **﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾**[3]، ثم قال **﴿ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾**[4]

---

١ ـ سورة قريش. الآيتان: ٣، ٤.

٢ ـ سورة القصص. الآية: ٥٧.

٣ ـ سورة ابراهيم. الآية: ٣٥

٤ ـ سورة ابراهيم. الآية: ٣٧.

وما تزال هذه المعجزة القرآنية شاهدة باستجابة دعوة ابراهيم وصدق القرآن الى اليوم، فمع أن مكة واد غير ذي زرع فان كل ثمار العالم تجبى الى مكة وتصل اليها، وتوجد فيها في كل فصول السنة، ويتمكن السكان والزوار من أكلها بابخس الأثمان بالنسبة الى غيرها. كما ان الأمن فيها - والحمد لله - على الانفس والأموال والاعراض والعقول والدين - متوفر مضمون لكل واحد، بفضل تطبيق شريعة القرآن فيها. وهو لا يتحقق في غيرها من الدول والعواصم الكبرى، مع تخصيص الجيوش الجرارة والعدد الوافر من حفاظ الأمن، ولو حسبنا عدد المختصين لحفظ الأمن في العواصم العالمية مثل باريس ولندن ونيويورك وموسكو وطوكيو لوجدنا عددهم يفوق كل ماعند الدولة الساهرة على الأمن بمكة، ويملكون من الأسلحة والذخائر ووسائل قمع الجريمة مالا يخطر على البال مما لاتملكه دولة الحرمين، ومع كل ذلك فان الجرائم التي تقع عندهم - في هذه العواصم - لاتعد ولا تحصى، والناس فيها خائفون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم ودينهم! بينما لا يخافون بمكة او بدولتها المترامية الأطراف الا من الله القوي الشديد العقاب، وما ذلك الا بفضل تربية القرآن وتطبيق أحكامه وضمان لمكة ان تكون حرما آمنا.

جاهلية جهلاء ونور مبين

وكان العرب بجزيرتهم - في جاهلية جهلاء وضلال مبين ، قد عدموا الأمن وسادتهم الفوضى، وذاقوا كل أنواع البلاء، وأحسن وصف لمجتمعهم - وذلك في مكة التي كانت حاضرتهم فضلا عن غيرها من اطراف بواديهم - ما جاء في كلمة جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي اذ قال:

«أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي فينا الضعيف، وكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته

وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ماحرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا الا نظلم عندك أيها الملك»[1] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي قال لهم ـ لما اشتد بهم البلاء بمكة «لو خرجتم الى أرض الحبشة، فان بها ملكا لايظلم عنده أحد، وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه»[2]

ومن كلام جعفر رضي الله عنه نعلم مقدار ما كان عليه المجتمع العربي في الجاهلية من اختلال الأمن وانعدام كل الضروريات، فلا حرية في الدين ولا ضمان للمال (يأكل قوينا الضعيف) ولا حرمة للعرض (قذف المحصنة) ولا حماية لليتيم ولماله، ولا احترام للعقل. وقد جاء نور الاسلام ليزيل كل ذلك الظلام فكانت الجولة الأولى للباطل قبل ان ينهار، ولكن بعد شدائد من المحن، وبعد ضحايا عديدة. وقد امتن الله على المسلمين ـ وكان بلاء منه ما أصابهم ـ بعد ان رفع عنهم الخوف، وأمرهم ان يتذكروا حالهم الأولى فقال ﴿**واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم**

---

١ سيرة ابن هشام ج ـ ١ ص ٣٥٨ ٣٥٩
٢ = سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٣.

تشكرون﴾[1] وقد شكروه فزادهم قوة وأمنا وفتح عليهم مكة ثم الأوطان الكثيرة وساد الأمن كل أطراف الجزيرة العربية، بل كل وطن فتحه العرب حتى كانت الظعينة تسير وحدها من أقصى ما فتحوه الى أقصاه لا تخاف الا الله.

والحق ان من أشد ما يصيب الانسان من أهوال الخوف والرعب أن يكون تحت العذاب فعلا أو يكون خائفا يترقب نزول مصيبة به في نفسه أو في أهله أو في ماله أو في عرضه من عدو لا يرحم، يشاهد كل يوم فتكاته الوحشية تنزل بمواطنيه وجيرانه وأهل بلده، وما فهمت الآية الكريمة: ﴿فخرج منها خائفا يترقب﴾ الا بعد أن عشت آمادا في مثل هذه الحالة لا أدري متى ينزل البلاء - ثم نزل وحاق بي وبغيري الأذى، قبل أن يأتي اليسر، ويذهب الحرج ويتحقق قول الله تعالى ﴿ان الله يدافع عن الذين آمنوا﴾[2] فينصر أمتنا المؤمنة نصرا مؤزرا فالحمد لله والشكر له.

وقد صور القرآن الكريم خوف أشد القلوب قوة وأعظمها ايمانا، وحزنه ان يصيب نبيه ونبينا سوء ممن اجتهدوا أن يلحقوا به الأذى، وبذلوا في ذلك المال والجهد العظيم، وبلغوا الى باب الغار فقال: ﴿الاّ تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾[3].

سكينة الايمان والثقة بالله الواحد القهار، وما كان من دفاع مادي

---

١ - سورة الأنفال. الآية: ٢٦

٢ - سورة الحج. الآية: ٢٨

٣ - سورة التوبة الآية: ٤٠.

سوى بيت عنكبوت، وعش حمامة - فيما قيل - ليرى المؤمن ان السلاح المادي ليس به وحده النصر، وانما النصر الحقيقي للايمان فلا خوف معه وبه ولا قوة للانسان بدونه.

وحينما تحقق النصر الجزئي للمسلمين بالهجرة الى المدينة وأصبح لهم «دار الاسلام» تألبت عليهم العرب في كل أطراف المدينة، وفتكت ببعضهم خيانة وغدرا، وببعضهم أثناء المعارك الشديدة - جاءهم من الله الوعد بالنصر المبين في قوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون**﴾[1] وقد استجابوا، فآمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات، وعبدوا الله وحده لايشركون به شيئا، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا الرسول - وكان أحب اليهم من أنفسهم وأولادهم ووالديهم ومالهم - فحقق الله لهم ما وعدهم به فاستخلفهم في الأرض، ومكن لهم دينهم فاظهره على الدين كله، وبسط لهم الأمن في كل أطراف الجزيرة، بل في كل بلاد فتحوها واستقاموا فيها، ولمّا وفوا بشروط ربهم المشترطة عليهم - وفيّ لهم وأصلح بالهم.

حال المسلمين قبيل الهجرة

وكان المسلمون - قبيل الهجرة الى المدينة - قد بلغوا من السوء ما يصوره ابن اسحاق عنهم أدق تصوير قال:

«كانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم في دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه، ومعذب

---

١ - سورة النور الأيتان: ٥٥، ٥٦.

في أيديهم وبين هارب في البلاد فرارا، ومنهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه[1]

كانت هذه حال المسلمين عندما اذن للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة بعد ان اجمعت قريش - في دار الندوة - على الفتك به، واقتراف جريمة اغتياله بطريقة شيطانية.

وكانت الهجرة بداية طور جديد في حياة الاسلام، هو طور المقاومة الفعالة ودفع العدوان بالعدوان، **﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾**[2]. كانت الهجرة بداية حماية «السلام» باستعمال العنف وردع العدو بمثل سلاحه. وقد اتخذها المسلمون - عندما أرادوا أن يستعملوا بداية لتاريخهم - بداية له لانها في الحقيقة بداية انتصار الاسلام وقد ذكر المحققون انهم أعرضوا عن استعمال تاريخ الوفاة كبداية لانه يذكرهم بذكرى أليمة جدا هي موت نبيهم. والهجرة - وهي مفارقة المؤمن أرضه واهله وماله في سبيل عبادة الله وتنفيذ تعاليم دينه من ارض لا يمكنه ذلك فيها الى أرض اخرى يتمكن فيها من ذلك - من اعظم وجوه العبادة والتقرب الى الله سبحانه، وقد هاجر الى الحبشة كثير من المؤمنين منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله وعلى رأسهم جعفر بن ابي طالب. ولا يهون على المرء ان يرتحل عن أرضه واهله وماله الا اذا بلغ الغاية من الضيم واختلال الأمن. والخوف على نفسه وماله وعرضه ودينه.

الأمن والسلام في دار المسلمين

المسلمون اجدر الناس بمعرفة الأمن، وأعرفهم بقيمته اذا حكموا الشعوب، وأسّسوا الدول، وكانت لهم «دار إسلام». لهذا رأينا انهم كانوا حريصين جدا ان يأمن الناس كلهم تحت حكمهم لأن ذلك من تعاليم دينهم ومن شكر الله على نعمة النصر والحكم.

---

١ - سيرة ابن هشام ج ٢ ص: ٧٥

٢ - سورة الشورى. الآية: ٤١.

وهكذا كان شأنهم من أول يوم كانت لهم الدولة والسلطان، فكفلوا الحرية والأمن والسلام والعدل لكل الناس على اختلاف اجناسهم، ودياناتهم، ومذاهبهم ولغاتهم، حتى أصبح ذلك طبيعة حكمهم، من خالفه أتى بما ينكر ويستهجن.

وهل ينسى انسان ـ مهما كان جاحدا حقودا على العرب والاسلام ـ قولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحاكم مصر وفاتحها عمرو بن العاص بعد ان اقتص للقبطي المسيحي من ابنه (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا؟).

ومن قبل عمر بن الخطاب في صنيعه مع ابن حاكم مصر وفاتحها اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل من نفسه فانه يوم بدر كان يسوي الصفوف، فوجد الجندي سوّاد بن غزية مستْنبلا من الصف، فضربه بالدرة على صدره وقال: (استو ياسواد) فقال سواد. (أوجعتني يارسول الله وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني من نفسك، فما كان منه صلى الله عليه وسلم الا ان اعطاه الدرة وكشف له عن صدره وقال له استقد فاحتضنه سواد وقبّله[1]، وما كان يريد غير هذا لأنه كان يحب ـ وقد حضر الموت ـ ان يكون آخر عهده بالدنيا ان يمس فمه جسم رسول الله.

وكانت المدينة المنورة غير خالصة للعرب، من اسلم منهم ومن لم يسلم بل كان يسكنها غيرهم من يهود، ويأتي اليها النصارى والمشركون كتجار وزوار وقد اراد النبي صلى الله عليه وسلم ان يسود فيها الأمن والسلام، وان تضمن الحرية الكاملة لكل الساكنين فيها والواردين عليها

قال ابن اسحاق: «كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه يهود، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم شروطا[2] وجاء في العهد أيضا «وان المؤمنين موالى بعضهم بعضا دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فله النصر والاسوة غير

---

١ القصة في ابن هشام في غزوة بدر وقد رويت بالمعنى

٢ ـ سيرة ابن هشام ١١٩ ج ٩

مظلومين ولا متناصر عليهم   لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وانفسهم الا من ظلم وأثم فانه (لا يهلك) الا نفسه وأهل بيته» ثم عطف على يهود بني عوف كل يهود اهل المدينة مع القبائل المحالفة معهم، ان عليهم النصر على من حارب هذه الصحيفة كما اشترط عليهم الا يعينوا المشركين المحاربين على المسلمين، والا يأووهم[1].

ولكن اليهود خانوا ـ كعاداتهم ـ وغدروا بالعهد، طائفة بعد أخرى فأخزاهم الله وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، أولهم خيانة بني قينقاع ثم غدر بنو النضير وحاولوا اغتيال رسول الله، وآخرهم غدر بني قريظة يوم الأحزاب. وحتى يكون السلام كاملا آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الانصار والمهاجرين، وقال «تآخوا في الله اخوين اخوين» واخذ بيد على وقال: «هذا أخي» وكان حمزة وزيد بن حارثة أخوين، وابو بكر الصديق وخارجة بن زيد اخوين، وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين، وسعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف اخوين، وطلحة بن عبيد الله وكعب ابن مالك اخوين[1]، ولكل هؤلاء الاخوة قصة شيقة في اخوته مع اخيه، منها قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع، وقصة طلحة مع كعب رضوان الله عنهم.

سيادة الأمن وتعكيره

كانت الاجراءات التي اتخذها الاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام حرية ان يسود معها الأمن العام، ولكن شقاء اليهود، وجبن المنافقين وحسد الفريقين، كل ذلك ابى الا ان يعكر الجو من آن لآخر فقد تواطأ الفريقان: المنافقون واليهود على الكيد للاسلام، والهزؤ به وبأهله، مما يستفز الحليم ويثير من لا يثور

لقد ضمن الاسلام حرية التدين، ونص على ان لليهود دينهم

---

١ ـ انظر سيرة ابن هشام في باب الهجرة الى المدينة

٢ ـ ابن هشام ج ٢ ص: ١٢١

وللمؤمنين دينهم، ولكن بعض رؤساء اليهود لم يملكوا أنفسهم فراحوا يهزأون بآيات الله، ويسخرون من القرآن ومن المؤمنين. لما أنزل الله قوله تحريضا للمؤمنين على الانفاق في سبيل الله **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾**[1] قال قوم من اليهود منهم حيي بن أخطب ـ في قول الحسن، وقال عكرمة وغيره هو فنحاص بن عازوراء «ان الله فقير ونحن اغنياء»،
أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم أي انه فقير على قول محمد صلى الله عليه وسلم لأنه اقترض منا[2] ولم يصبر علماء المسلمين على سماع مثل هذا القول، ولطم ابو بكر من قاله، فشكاه الى النبي فاستنطق أبا بكر لماذا لطم اليهودي؟

فأخبره بما قال، وانكر اليهودي قوله فصدق القرآن قول ابي بكر وقال: **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾**[3] ونزل في تسلية النبي قوله تعالى: **﴿فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾**[4]، ثم أنزل قوله تعالى: **﴿لتبلون في اموالكم وانفسكم، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور﴾**[5]، وهذه تعاليم القرآن وأوامره للمسلمين ان يصبروا ويتقوا، وان يضبطوا أنفسهم ويوطنوها في تحمل المكاره حفظا للنظام، وحرصا على السلام ما لم يتجاوز المعتدون الحدود، ويتسببوا في الفتنة والشغب فان كان ذلك نال المشاغبون جزاءهم الوفاق.

افساد اليهود واخلالهم بالأمن

كان اليهود يساكنون أهل المدينة، ويتعاملون مع العرب في الحجاز،

---

١ سورة البقرة. الآية: ٢٤٥
٢ ـ القرطبي: الجامع لاحكام القرآن ج ٤ ص: ٢٩٤
٣ ـ سورة آل عمران. الآية: ١٨١ انظر تفسير الآية في ابن كثير وغيره.
٤ ـ سورة آل عمران. الآية: ١٨٤
٥ ـ سورة آل عمران. الآية: ١٨٦

واشتهر منهم في المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وهم من حلفاء الخزرج، وبنو قريظة وهم من حلفاء الأوس، وقد لعبوا أدوارا خبيثة في الحروب المتواصلة بين الأوس والخزرج ، وكانوا وحدهم المنتفعين من استمرارها ما يقرب من قرن ونصف قرن.

فلما جاء الاسلام اطفأ نار الحرب ووحد بين القبيلتين وضاعت منافع اليهود، فاستاءوا، واجتهدوا في ايقاد نيران الحرب من جديد فلم يستطيعوا، وكلما اوقدوا نارا للحرب أطفأها الله. ورغم ان الاسلام وادعهم، وضمن لهم حرية الديانة، والأمن في انفسهم وأهليهم واموالهم على ان لا يحدثوا حدثا، ولا يأووا محدثا فان بعض رؤسائهم خانوا العهد، وأخذوا يكيدون للاسلام، ويتصلون بعدو المسلمين المحارب لهم ويحرضونهم على العدوان، ويصيبون المسلمين بأنواع الأذى، وكل ذلك مخالف لمقتضى موادعتهم.

انتهاك حرمة الدين والمال والعرض

خلافا لما ضمنه الاسلام لجميع الناس من العيش في أمن وسلام وحرية فان بعض رؤساء اليهود لم يحترموا عهدهم وعقدهم، وأخذوا يتصلون بالعدو كما تقدم، ويأوون المحدثين، ويمدون المحاربين للاسلام بالمال والسلاح والنصيحة والرأي. كما أنهم كانوا يكيدون للمسلمين بمخالطة المنافقين، والاستهزاء بالمؤمنين، ويرجفون في المدينة، ويشيعون البلبلة، وينالون من أعراض المؤمنين والمؤمنات.

وقد ذكر الله بعض ما يصنعون فقال عن هذه المؤامرات المفسدة من المنافقين واليهود ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يُكذبون، واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون، الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا

الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون﴾[1].

كانت هذه حالهم في نشر البلبلة والاخلال بالأمن، والارجاف في المدينة، وقد أوعدهم الله ان يستأصل شفتهم في قوله تعالى: **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الاّ قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾**[2].

وقد بلغ من سفه وحمق بعض رؤساء اليهود ـ وهو كعب بن الأشرف ـ زعيم بني النضير حلفاء الخزرج ان أظهر العداوة وأخذ يتصل بقريش ويرثي موتاهم ويهجو النبي صلى الله عليه وسلم، ويشبب بنساء المسلمين. قال ابن هشام انه لما بلغه نبأ انتصار المسلمين ببدر وقتل صناديد قريش تساءل: «أحق هذا؟ أترون ان محمدا إن أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير لهم من ظاهرها فلما تيقن الخبر قدم مكة وجعل يحرض على رسول الله وينشد ويبكي اصحاب القليب[3] ولم يكفه هذا من السفه وخرق العهود، فلما رجع الى المدينة «شبب بنساء المسلمين حتى اذاهم[4]» «وكان شاعرا، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه، ويؤلب عليه كفار قريش ويشبب بنساء المسلمين[5]

وضع حد للفتنة والقاء درس عملي على اليهود

وعندما استفحل امر كعب، واصبح خطرا على الأمن في الدين والأنفس والأموال والأعراض أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلص منه، وانتدب ـ بتطوع ـ لهذه المهمة رجال الأمن من الأوس، وعلى رأسهم محمد بن مسلمة الاشهلي، ومعهم ابو نائلة اخو كعب بن

---

١ ـ سورة البقرة. الآيات: ٤ ١٤

٢ سورة الأحزاب. الآيتان: ٦٠ ـ ٦١

٣ سيرة ابن هشام. ج ٢ ص: ٤٣١.

٤ ـ المصدر السابق ص: ٤٣٦

٥ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٤ ص: ٣٠٣.

الأشرف من الرضاع. واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقولوا قولا يتمكنون به من عدو الله فاذن لهم، وتقدم اليه ابو نائلة قبل جماعته فقال:

«ويحك يابن الأشرف، اني جئتك لحاجة اريد ذكرها لك فاكتم عني. قال افعل. قال: قد كان قدوم هذا الرجل - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - علينا بلاء من البلاء: عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا.

فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت اخبرك - يابن سلامة - ان الامر سيصير الى ما اقول.

فقال سلكان بن سلامة - وهو ابو نائلة - : اني قد أردت ان تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك، وتحسن في ذلك.

فقال كعب: أترهنوني أبناءكم؟ وفي رواية نساءكم؟ فقال ابو نائلة لقد اردت فضيحتنا، كيف نرهنك نساءنا وانت اشب اهل يثرب واعطرهم؟»[1].

فهذا مبلغ الغرور والعدوان ، والفساد والانحلال، وقد عرض عليه ابو نائلة ان يرهنوه الحلقة (السلاح) فقبل بذلك ورضي، وكان مراد الأمن الا ينكر عدو الله وجود السلاح معهم، وقد تمكنوا منه، وضربوه واستراحوا من عبثه بالأمن ولقنوا بقتله - وهو أعظم اليهود وأجرأهم - درسا لا ينسى. قال رئيس الفرقة الفدائية محمد بن مسلمة رضي الله عنه: (ورجعنا الى اهلنا، فاصبحنا وقد خافت اليهود لوقعتنا بِعدو الله، فليس بها يهودي الا وهو يخاف على نفسه[2] وهذه نتيجة البغي والفساد، فقد اراد المسلمون ان يكون تعايشا مثاليا يسع كل الناس والاديان ، فأبى اليهود الا الخيانة والفوضى والخوف، فاصبحوا الخائنين المطرودين المغرى بهم كشأن

---

١ - سيرة ابن هشام ج ٢ ص: ٤٣٧.

٢ - سيرة ابن هشام. ج ٢ ص: ٤٣٩

من يؤذي الله ورسوله ثم يؤذي المؤمنين ويرجف في المدينة ويأوي المحدثين.

وكانت هذه سنة المسلمين في الذين يعبثون بالأمن، مع جنوح رسول الله ﷺ الى العفو والصفح الجميل. وطالما قام عمر أو غيره من حراس الأمن يستأذن رسول الله في ضرب اعناق من ارتكب جرما فظيعا بينا ـ فيأبى رسول الله سفك الدماء. ومرة استأذن الابن رسول الله ﷺ في ضرب عنق ابيه رأس المنافقين بعد ان قال قولا عظيما في الاسلام والمسلمين، وهو عبد الله بن أبي الذي قال: (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) يريد بالأعز نفسه ورهطه من المنافقين وبالأذل رسول الله وحزبه من المؤمنين، فلما رجعوا الى المدينة وقف ابنه عبد الله بن أبي ـ وكان من حزب رسول الله والمؤمنين ـ بباب المدينة واستل سيفه فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك فقال مالك ويلك؟ فقال والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله فانه العزيز وانت الذليل فلما جاء رسول الله شكا اليه عبد الله ما وجد من ابنه فقال الابن المؤمن: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له وفي رواية أنه قال لأبيه والله لا تدخل المدينة أبدا حتى تقول: رسول الله الأعز وأنا الأذل وتحدث الناس بأن رسول الله سيقتل هذا المشوش للأمن وقد استأذن عمر رسول الله في قتله كما استأذنه في ذلك سيد الأوس أسيد بن حضير فلما سمع بذلك ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي أتى رسول الله ﷺ وقال: «يا رسول الله بلغني انك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه فان كنت فاعلا فمرني فأنا احمل اليك رأسه

فقال رسول الله «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[1] فإيذاء المؤمنين، وشتم اعراضهم والتشبيب بنسائهم، والعدوان على دين الله ورسوله، والارجاف في المدينة بنشر الاخبار التي تبث البلبلة وتشيع الخوف وتفسد السوق المالي وتسبب الخسائر كل ذلك منهى عنه ولا يصح في شريعة الاسلام ومجتمع المسلمين، وعلى الحكام المسلمين ان يحموا منه أمة

---

١ ـ أنظر: ابن كثير عند تفسير الآية من سورة المنافقين (يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل).

الاسلام. وقد أدب الله المؤمنين وحذرهم من أثر الارجاف في المدينة ووعظهم، وعلمهم ان لا يبادروا بنشر أنباء أمور الأمن والخوف حتى يرجعوها الى أهلها فقال **﴿واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتهم الشيطان الا قليلا﴾**[1] قال العلامة صاحب المنار في تفسير هذه الآية «قيل ان هذه الآية نزلت في المنافقين ـ وهم الذين كانوا يذيعون بمسائل الأمن والخوف ونحوها ما ينبغي ان يترك لأهله، وقيل هم ضعفاء المؤمنين. أقول: ويجوز ان يكون الكلام في جمهور المسلمين من غير تعيين لعموم العبرة، ومن خبر احوال الناس يعلم ان الاذاعة بمثل احوال الأمن والخوف لا تكون من دأب المنافقين خاصة بل هي مما يلغط به أكثر الناس، وانما تختلف النيات فالمنافق قد يذيع ما يذيعه لأجل الضرر، وضعيف الايمان قد يذيع ما يرى فيه الشبهة استثناء مما في صدره من الحكمة، واما غيرهما من عامة الناس فكثيرا ما يولعون بهذه الأمور لمحض الرغبة في ابتلاء اخبارها، وكشف اسرارها أو لما عساه ينالهم منها فخوض العامة في السياسة وأمور الحرب والسلم والأمن والخوف أمر معتاد، وهو ضار جدا اذا شغلوا به عن عملهم، ويكون ضرره أشد اذا وقفوا على أسرار ذلك وأذاعوا به، وهم لا يستطيعون كتمان ما يعلمون، ولا يعرفون كنه ضرر ما يقولون، وأضره علم جواسيس العدو باسرار امتهم وما يكون وراء ذلك.

ومثل امر الخوف والأمن سائر الأمور السياسية والشئون العامة التي تختص بالخاصة دون العامة[2].

اعتناء المسلمين بالأمن:

وهذه الآية الكريمة علمت المسلمين مقدار ما يجب ان يولوه من عناية بأمر الأمن والخوف، كسائر أمورهم، وان تكون طائفة منهم من أولى الأمر يرجع اليها في شئون ذلك «ينظرون فيه، ويستنبطون مثله ويستخرجون

---

١ سورة النساء. الآية: ٨٣.

٢ ـ تفسير المنار ج ٥ الطبعة الأولى. ١٩٢٨م. ص: ٢٩٨

خفاياه بدقة نظرهم، فهو اذا من الامور التي يكتنه سرها كل فرد من افراد أولى الأمر، وانما يدرك غوره بعضهم، لأن لكل طائفة منهم استعداداً للاحاطة ببعض المسائل المتعلقة بسياسة الأمة واداراتها دون بعض، فهذا يرجع رأيه في المسائل الحربية، وهذا يرجع رأيه في المسائل المالية، وهذا يرجع رأيه في المسائل القضائية، وكل المسائل تكون شورى بينهم[1]

هذا مقتضى نظام الحكم الشوري الذي وصف الله به المؤمنين، وأمر به رسول رب العالمين نظام الشورى - بين أولي الأمر والمختصين في المسائل، كلٌ في ميدان اختصاصه الذي يتقنه ويصح ان يجتهد فيه، قال في صفات المؤمنين ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم**﴾[2] جاء هذا في سورة مكية، فلما وقعت الهجرة كان رسول الله يستشير أصحابه من ذوي الاختصاص، وخصوصا في شأن الأمن والخوف تدريبا لهم - استشارهم قبل خوض معركة بدر، ثم استشارهم في مصير أسراها، ثم استشارهم هل يخرج الى لقاء قريش - يوم أحد - أم يلقاهم بالمدينة، وكان يعمل باستشارتهم فاذا كان الرأي للأغلبية رجحه حتى ولو كان غير رأيه كما فعل في الخروج الى أحد، وقد أكد أمره بالشورى في الآيات التي نزلت في سياق قصة احد، وبعد المصيبة فقال: ﴿**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله**﴾[3]

لقد اهتم رسول الله ﷺ بالسلام والامن منذ ان كانت للاسلام دار بالمدينة وكان يكلف بذلك كبار اصحابه، فممن كلفه بتتبع أخبار العدو والتجسس عليه أو باستنطاق المشبوهين: طلحة بن عبيد الله، وعلي بن ابي طالب، والزبير بن العوام وغيرهم من المهاجرين والانصار رضوان الله عنهم.

---

١ - تفسير المنار ج. ٥ ص: ٢٩٩ - ٣٠٠
٢ سورة الشورى. الآية: ٣٨
٣ - سورة آل عمران. الآية: ١٥٩

واشتهر من بين السابقين الأول من الانصار سيد من سادات المسلمين هو قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري.

«كان قيس بن سعد بن عبادة من النبي مكان صاحب الشرطة من الأمير، واعطاه رسول الله ﷺ الراية يوم فتح مكة إذ نزعها من ابيه لشكوى قريش يومئذ»[1] قال ابن عبدالبر «كان قيس بن سعد بن عبادة من كرام اصحاب رسول الله ﷺ، وكان أحد الفضلاء الجلة وأحد دهاة العرب، وأهل الرأي والمكيدة في الحرب مع النجدة والبأس والسخاء والكرم، وكان شريف قومه غير مدافع هو وأبوه وجده»[1] وفي تاريخ البخاري ان هذه الخدمة دامت مدة عشر سنين. قال البخاري من طريق مريم بن أسعد - «رأيت قيس بن سعد وقد خدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عشر سنين»[2] ووصفه ابن حجر في الاصابة فقال «كان قيس ضخما حسنا طويلا اذا ركب الحمار خطت رجلاه في الأرض»[3].

وبعد وقوع الفتنة عند مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ومبايعه علي، ومخالفة المخالفين له انضم قيس الى علي وبايعه، وكان من قادة جنده الابطال، وقد عينه علي واليا على مصر، وحاول معاوية مرارا ان يكايده فلم يستطع.

قال أبو عمر بن عبد البر رضي عنه «كان قد ولاه على مصر فضاق به معاوية واعجزته فيه الحيلة، وكايد فيه عليا ففطن علي بن ابي طالب بمكيدته فكايد أصحاب علي، فلم يزل به الاشعث واهل الكوفة حتى عزل قيسا وولى محمد بن ابي بكر، ففسدت عليه مصر»[4]

---

١ - الاستيعاب لأبي عمر بن عبدالبر. ج. ٣ ص: ٢١٨ الاصابة ص: ٣٧٩.
٢ - الاصابة لابن حجر ج. ٣ ص: ٢٣٩
٣ الاصابة لابن حجر ج. ٣ ص: ٢٣٩
٤ - أنظر الاستيعاب والاصابة في ترجمة قيس - ٢١٧ ٢٣٩ ج: ٣

ومع ذلك فان قيسا بقي على وفائه، ولم تؤثر فيه الدسائس ولم يفسد عليه دينه وقد روى عنه انه قال: «لولا الاسلام لمكرت مكرا لا تطيقه العرب»[1] وبهذا القول من هذا الصحابي الجليل وأول امراء الشرطة في الاسلام نعلم مدى تأثير الاسلام في الرجال وان دهاء المرء وكيده ومكره الشديد لا يجوز ان يستعمله في مضرة امته ودينه ارواء لحقده وشفاء لغضبه. وانتصارا لشخصيته.

ولما قتل علي بيد المجرم عبد الرحمن بن ملجم اخزاه الله بايع قيس لابنه الحسن بن علي، واستعد في خمسة آلاف من الابطال كلهم بايعوا قيسا على الموت، روى البخاري في صحيحه عن الحسن البصري «لما سار الحسن بن علي رضي الله عنهما الى معاوية بالكتائب قال عمر بن العاص لمعاوية أرى كتيبة لا تولى حتى تدبر اخراها قال معاوية: من لذراري المسلمين؟ فقال: أنا فقال عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة نلقاه فنقول له الصلح»[2]

وقد تم الصلح واجاب اليه الحسن وصدق فيه قول جده ﷺ «إن ابني هذا سيد، ولعل الله ان يصلح به بين فئتين من المسلمين»[3] رواه البخاري وغيره. ولم يرض قيس عن هذا الصلح، وحمله الغضب على ان يتفوه بما لا يليق في حق الحسن فاجتمع اليه قومه فاخذ لهم الحسن الأمان على حكمهم والتزم لهم معاوية الوفاء بما اشترطوه، ثم لزم قيس المدينة واقبل على العبادة حتي مات بها في خلافة معاوية سنة ستين وقبل سنة تسع وخمسين[4]

وظيفة صاحب الشرطة:

أنس بن مالك رضي الله عنه هو الذي قال عن قيس بن سعد رضي الله عنه انه كان من النبي ﷺ مكان صاحب الشرطة من الأمير، وقد عاش انس بعد وفاة الرسول ﷺ أكثر من ثمانين سنة إذ توفي عام ٩٣هـ وسكن

---

١ المصدر المذكور
٢ صحيح البخاري. ج ٤ طبع المطبعة الميمنية ص: ١٤١
٣ ـ صحيح البخاري.
٤ ـ الاستيعاب لابن عبدالبر هامش الاصابة ج. ٣ ص: ١٢٩

بالعراق تحت حكم الحجاج بن يوسف وعرف أشد وأقصى حكم يعتمد على الشرطة. فلم يكن هذا المنصب معروفا بهذا الاسم في زمن النبي ﷺ، ولكن ظهر بعده سريعاً في النظام الاسلامي وفي عهد الصحابة والتابعين وكان المسلمون - في دولتهم - يعتبرون وظيفة صاحب الشرطة دينية من الوظائف الشرعية متصلة بالقضاء.

قال ابن خلدون «توسع النظر فيها من احكام القضاء قليلا، فيجعل للتهمة في الحكم مجالا، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القول والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة[1] ثم تطورت هذه الوظيفة بتطور انظمة الحكم واختلافها وانقسمت كما قال ابن خلدون - قسمين:

١ - «وظيفة التهمة على الجرائم، واقامة حدودها، ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين، ونصب لذلك - في هذا العصر - حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالي، وتارة باسم الشرطة».

وقال ان هذا القسم صار راجعا الى السلطان سواء كان له تفويض من الخليفة ام لا

٢ - وبقي قسم التعازير واقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعا فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم، وصار ذلك من توابع وظيفة ولايته[2]

وقال الدكتور حسن ابراهيم حسن عن خطة صاحب الشرطة «واعتبرها الفاطميون من النظم الادارية الهامة فكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم ومن اهل العصبية والقوة. إذ يتولى الجند الذين يعملون على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة، والمفسدين[3] ونقل عن ابن خلدون انها كانت في بلاد الاندلس على نوعين كبرى

---

١ - مقدمة ابن خلدون الفصل الحادي والثلاثون في الخطط الدينية الخلافية.

٢ - المصدر السابق.

٣ - تاريخ الاسلام السياسي ج. ٣ ص: ٢٧٨

وصغرى، جعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى ايديهم واقاربهم ومن اليهم من اهل الجاه، وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة[1] وقال المقريزي عن صاحب الشرطة في الأندلس «هو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر، وكثير من الامور الشرعية راجع اليه قد صارت تلك عادة تقرر عليها القاضي، وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك[2] وهكذا نرى ان المسلمين قد سبقوا الى ابتكار كثير من اختصاصات الشرطة الى اليوم مع انتخاب رجالها على أسس دينية خلقية

الحسبـــــة:

ومن وظائف الأمر المحدثة في الدولة الاسلامية، الحسبة «وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين، يعين لذلك من يراه اهلا له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان والمتعلمين، ولا يتوقف حكمه على تنازع او استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه، وليس له اصدار الحكم في الدعاوى مطلقا، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها من المكاييل والموازين، وله ايضا حمل المماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها

---

١ - المصدر المذكور نقلا عن ابن خلدون. ص: ٢٨٠

٢ - المرجع السابق.

وسهولة أغراضها فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك ان تكون خادمة لمنصب القضاء[1].

فالمسلمون يعتبرون وظيفة الشرطة ـ رجال الأمن ـ ووظيفة الحسبة (شرطة البلدية) كلتيهما من الوظائف الدينية، ولا يتولاها من الرجال الا الأكفاء ممن تتوفر فيهم شروط معينة، منها البسطة في العلم والجسم، والذكاء والخبرة والدهاء والصلابة والتدين، وكانوا يشترطون فيمن يتولاها ان تكون له عصبية قوية تمكنه من التنفيذ، أويكون مستندا الى قوة السلطان.

وقد كانت شخصية قيس بن سعد تجمع الصفات التي ينبغي ان تتوفر في صاحب الشرطة: البسطة في العلم وفي الجسم، والدهاء والكفاءة في قيادة الجيوش، والقيام بالولايات والسياسات، والنزاهة التامة وعدم استعماله الدهاء في مضرة أمته

ويمثل هذا حرص الاسلام على الأمن والاستقرار والهدوء والسلام في مجتمعه في عهده الأول: في عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين ثم كانت تحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور، وقد رأينا مثالا عن صاحب الشرطة في هذا العهد، فهل نستطيع ان نعرف امثلة من العهود التي جاءت من بعد؟ نستطيع ان نذكر باختصار مثالا من الدولة الأموية، وآخر من الدولة العباسية اجتمعت في كل منهما اكمل صفات المسئول عن الأمن من حزم وشدة وبطش، وان غلا بعضهم في البطش والقهر والظلم ولكنه توصل الى نشر السلام والأمن.

الحجاج بن يوسف الثقفي

نذكر عن العهد الأموي شخصية الحجاج، فان أول ما عرف به الحجاج بن يوسف الثقفي انه كان شرطيا في جيش عبد الملك بن مروان، فأظهر حزما وصرامة في تنفيذ أوامر التعبئة والسير والنزول، وطبقها بكل صرامة حتى على حاشية الخليفة نفسه.

---

١ ـ انظر مقدمة ابن خلدون الحسبة ـ في الوظائف الدينية.

وهذا مما رشحه ان يسند اليه الخليفة الحازم عبد الملك ولاية العراق ويقال ان عبد الملك لما بلغه اضطراب العراق وكثرة الفتن بها جمع اولي النجدة من جنده وخطب فيهم واعلمهم عظيم خطبها وعسر اخماد نيرانها وقال: «فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع وقلب ذكي وانف حمي فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها وينصف مظلومها، ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد ويأمن العباد؟ فلم يجبه احد حتى قام الحجاج فقال: انا لها فسأله عن اسمه وعن قبيلته فأخبره. فزجره وأعاد القول فقام مرة ثانية فأعاد زجره ثم طلبهم للمرة الثالثة فما قام غيره فسأله عن وسيلته فأجاب بما اقنعه:[1] وفي قول عبد الملك ما يعين المهمة وهي اخماد الفتنة وقهر الغيلان، وانصاف المظلوم ومداواة الجرح وصفاء البلاد وامن العباد.

ولما رشح نفسه ثلاث مرات سأله عبد الملك لاداء مهمته فقال: ما فحواه «انه مستعد لها بالعقوبة والعفو. والجفاء والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب، بجنان غير هيوب فمن جادلني قطعته، ومن نازعني قصمته ومن دنا مني اكرمته ومن طلب الأمان اعطيته ومن سارع الى الطاعة بجلته» فقبل منه عبد الملك ما رشح به نفسه واعطاه لما طلبه: قليلا من الجند والمال[2]

والحق ان الحجاج وصل الى العراق وهي تضطرم بالأهواء والفتن. وليس في أهلها من يأمن على نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه، فبدأ عمله بخطبته المشهورة، واعلن لهم عن خطته الواضحة، وفرق فيهم اعطياتهم واقسم انه ـ بعد ثلاث ـ ان وجد فيهم من اخذ مرتبه ولم يخرج ان يضرب عنقه كائنا من كان، وكان الحجاج عظيم الذكاء والدهاء واسع الخبرة بفن الشرطة ومن يصلح لها روى عنه انه ـ لما كان واليا على العراق اختار قوما من اهل العراق وجد عندهم ما لم يجده عند مختصيه من أهل الشام، فشق ذلك على الشاميين وتكلموا فيه فأراد ان يعطيهم درسا فركب في جماعة من

---

١ قصص العرب الجزء الثالث ص: ٣٤

٢ ـ قصص العرب عن الكامل ج. ٣ ص: ٣٥

الفريقين واوغل بهم في الصحراء فلاح لهم من بعد قطار ابل فدعا برجل من أهل الشام وقال له امض فاعرف ما هذه الاشباح واستقص خبرها، ووجه بآخر من أهل العراق اثرة، ورجع الشامي فقال: انها ابل فقال: الحجاج: أمحملة أم هي غير محملة؟ قال: لا ادري ولكن اعود واتعرف ذلك ورجع العراقي فاقبل عليه الحجاج واهل الشام سميعون فقال: ماهي؟ قال ابل، قال وكم عددها؟ قال الرجل ثلاثون ـ وماتحمل؟ ـ زيتا ـ ومن اين صدرت؟ قال من موضع كذا قال ومن ربها؟ ـ قال فلان ـ فالتفت الحجاج الى اهل الشام وقال:

أُلام على عمرو ولو مات أو نأى ـ لقل الذي يُغني عناءك يا عمرو

واستطاع الحجاج أن يخمد نيران الفتن الداخلية والحروب المتواصلة المردية، وان يوجه القادة العظام بالجيوش الجرارة نحو الجنوب والشرق والشمال وتحت قيادة الحجاج، وولايته وتوجيهاته وواصل المهلب بن ابي صفرة وابناؤه ضرباتهم القوية ضد الفتن الداخلية والحرب الأهلية حتى أخمدوا نيرانها، وأراحوا المسلمين من شرها ثم توجهت الجيوش الاسلامية الموحدة نحو الجنوب الشرقي حتى بلغت اقصى بلاد السند، وجبال هيمالايا، واقصى بلاد الشرق حتى بلغوا بلاد الصين، واقصى بلاد الشمال، ولمعت في هذه الفتوح اسماء: محمد بن القاسم الثقفي، ويزيد بن المهلب، ثم قتيبة بن مسلم الباهلي وغيرهم.

ولولا يقظة الحجاج وشدة شكيمته، ولولا القضاء على الفتنة الداخلية، واعتماده على أكفاء الرجال، ومعرفته بهم وحزمه معهم لدامت الفتنة، واكلت الأمة العربية بعضها بعضا والفتنة محذورة، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمدح الحسن بأنه سيصلح الله له بين طائفتين من المؤمنين ، وقد حذر الله سبحانه من الفتنة وبين شدة ضررها في قوله تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ ويكفي لبيان فظاعة الحرب الداخلية أو الفتنة ان الامة الاسلامية خسرت في معركتين اثنتين فقط هما معركة الجمل ثم صفين تسعين الفا، فيهم جلة الصحابة

والتابعين، منهم طلحة، والزبير وعمار بين ياسر، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن طلحة، وغيرهم من صناديد الرجال رضوان الله عنهم.

فاذا كان الحجاج قتل اثناء ولايته للعراق كثيرا من الأبرياء آخرهم سعيد بن جبير رضي الله عنه فانه حقن دماء كثير ممن كانوا ستأكلهم الفتنة ثم وجه الجيوش الاسلامية نحو وجهتها الصحيحة، ولقد تسبب العراقيون في سفك دماء علي بن أبي طالب، والحسين بن علي، وآله فابتلاهم الله بالحجاج ليؤدبهم.

عبد الله بن مالك

وقد برز الحجاج - من اصحاب الشرطة والولاية، ورجال الأمن في الدولة الأموية وهم كثير، ويعجبني في شرطة العباسيين رجل آخر برز ايام قوة الدولة العباسية وعزها، ذلك الرجل هو عبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي ثم محمد الهادي.

كان عبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين، وكان ولي عهده هو ابنه موسى الهادي، فكان لا يعجب المهدي ببعض رفاق ابنه وولي العهد وندمائه، فيبعث باسمائهم الى صاحب شرطته ليقبض عليهم ويحبسهم ويضربهم تأديبا، وصيانة للهادي عنهم. فكان ذلك يسوء ولي العهد في اصحابه ويرسل سرا الى صاحب الشرطة المذكور يسأله الرفق بهم والتخفيف عليهم، فلا يلتفت الى وساطته في اصحابه، بل يمضي فيهم أوامر الخليفة، ويحبسهم ويؤدبهم.

فلما توفي المهدي جلس الهادي على كرسي الخلافة وساءت ظنون صاحب الشرطة قال عبد الله بن مالك:

«أيقنت بالتلف، فبعث الي يوما فحضرت ودخلت عليه متكفنا متحنطا، واذا هو جالس على كرسي، والنطع والسيف بين يديه فسلمت عليه فقال: لا سلم الله عليك، تذكر يوما بعثت اليك في أمر الحراني، لما أمر امير المؤمنين بضربه فلم تجبني؟ وفي فلان وفلان، وجعل يعدد ندماءه؟

فقلت نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي ان اتكلم؟ قال: نعم. فقلت

انشدتك الله أيسرك أنك وليتني ما ولاني أبوك وأمرتني بأمر، فبعث الي بعض ولدك بأمر يخالف أمرك، فاتبعت امره وعصيت أمرك؟ قال لا، قلت فكذلك انا لك، وكذلك كنت لأبيك[1]

وقد أقنعت هذه الحجة الخليفة الجديد، واستصوب رأي صاحب شرطة أبيه واستدناه وخلع عليه، فلما انصرف الى داره تبعه الخليفة في موكبه اليها، وتحرم بأكل طعامه، وجلوسه على بساطه وأكد رضاه له عنه وبشره بأنه اقره في منصبه، وحمل اليه هدايا كبيرة وكثيرة.

وهذه القصة تبرهن على يقظة الخليفة المهدي، وحرصه على صلاح بطانة ولي عهده، ونفي الخبث عنه، وتبرهن على امانة صاحب الشرطة وشجاعته وحزمه في تنفيذ أوامر رئيس الدولة وعدم التفاته الى الوساطات المعطلة للأوامر، والمعرقلة للتنفيذ، فانه لا افسد منها لتدبير الدولة والاخلال بالقوانين ـ كما تبرهن على حزم الهادي وتقريره للمسئولية ومعرفته بقيمة هذا الرجل العظيم الذي يجرأ على رفض وساطة ولي العهد في مقابلة تنفيذ أوامر رئيس الدولة وقد تيقن ـ بعد ان حمل الأمانة ـ ان الصواب مع صاحب الشرطة، وعذره فيما كان معه بالأمس ليقينه انه سيكون معه مثلما كان مع ابيه

ان أجدادنا العرب كونوا دولتهم على غير مثال، واسسوا حضارة لهم أساسها الاسلام، والمبادىء المستنبطة من آيات كتابه، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس لهم من هاد في ميدان القضاء والأمن والادارة والحكم الا ذاك، إلا ماجاء فيهما ـ اعني كتاب الله وسنة الرسول ـ فان لم يجدوا نصا، اجتهدوا واستنبطوا ولم يقتبسوا من الروم نظامهم، ولا من الفرس شريعتهم ولا من قبط ولا من الهند، وهذه رسالة عمر بن الخطاب تلميذ المدرسة الاسلامية النجيب الى ابي موسى الاشعري في القضاء ما تزال مرجعا فيه لأعظم رجال التشريع في العالم حتى اليوم.

ان ديننا ـ في ميدان الحكم والأمن ـ يوجب على من يتولى الأمر

---

١ ـ قصص العرب، ج. ٣ ص: ٧٦

الايمان والقوة والحزم والأمانة والوفاء والعدل والاحسان، وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ويوصيه ـ مع ذلك بالرفق، ويشترط فيه الكفاءة التامة لمنصبه، وقد سأل ابو ذر الولاية ـ وهو ما هو في اصحاب النبي ـ فمنعه منها وأوصاه الا يتولاها لأنه كان به ضعف، وهي ـ الولاية ـ امانة ثقيلة لا يحملها الا الاقوياء يقول المولى سبحانه وتعالى **﴿انا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا﴾**[1]

دور التربية والتعليم في تكوين الجيل المسلم

وللتربية الاسلامية اتصال متين بالأمر ورجاله، اذ هي وسيلة من وسائله، والحسبة تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل على تغييره باليد واللسان. ولا تقتصر التربية والتعليم ـ في المجتمع الاسلامي ـ علي تربية الصغار وتعليمهم، ولكنها تمتد الى الكبار وتتناولهم. وقد كانت تنزل آيات كتاب الله فيبادرون الى امتثال ما جاءت به رجالا ونساء ويلتزمون أحكامها ابتداء من تبليغها اليهم، فقد أنزلت آية تحريم الخمر وبعضهم في منادمة واحتساء لها، فالقوا ما بأيديهم ـ فورا ـ من كؤوس، وأهرقوا ما عندهم حتى سالت أودية في شوارع المدينة.

وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت «رحم الله النساء المهاجرات الأول، لما نزل **﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾**[1] «شققن أزرهن فاختمرن بها»[2]، وعنها ان نساء الأنصار لما انزل الله سبحانه **﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾** انقلب رجالهن اليهن يتولون عليهن ما أنزل الله فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته واخته وعلى كل ذي قرابته فما منهن امرأة الا قامت الى مرطها المرجل فاعتجرت به تصديقا وايمانا بما انزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كان على رؤسهن الغربان[3]، وكل هذه المبادرة لامتثال الأوامر واجتناب النواهي من الكبار

---

١ ـ سورة الاحزاب. الآية: ٧٢

٢ ـ رواه البخاري. أنظر القرطبي: الجامع لاحكام القرآن ج. ١٢ ص: ٢٣٠

٣ ـ أخرجه أبو داود وابن أبي حاتم. انظر تفسير ابن كثير للآية

والصغار، والرجال والنساء نابعة من الايمان المتين والاذعان للتربية من الاسلام، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالهم الكامل، وقد شهد له القرآن بذلك في قوله تعالى ﴿**وانك لعلى خلق عظيم**﴾[1] سئلت عائشة رضي الله عنها عن هذا الخلق العظيم فقالت «كان خلقه القرآن» تعني التزامه ما دعا اليه القرآن وامتثاله مثل قوله تعالى: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[2].

ومثل قوله ﴿**ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم**﴾[3] كان بعض كبار اصحابه يقول ذاك رسول الله ﷺ وكان اصحابه يقتدون به، ويتأدبون بأدبه، وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال: (ادبني ربي فأحسن تأديبي[4]. ومعنى أدبني «علمني» رياضة النفس ومحاسن الاخلاق الظاهرة والباطنة» والأدب ما يجعل للنفس من الأخلاق الحسنة والعلوم المكتسبة[5]

وإذا كانت التربية تتناول المسلمين جميعهم فان من اوكد واجبات المجتمع الاسلامي - افرادا وجماعات - ان يصونوا بالتربية الصحيحة أبناءهم، ويدبروا شئونهم، ويوجهوهم الوجهة الصالحة الطيبة النافعة في أمور دينهم ودنياهم، في معاشهم ومعادهم.

والتربية - لغة - اصلاح شئون الغير ورعاية امره، ويقال لمن قام باصلاح شيء واتمامه قد رباه. ويطلق الرب على معان منها المالك والسيد والمطاع، والمصلح والمعبود.

---

١ - سورة القلم. الآية: ٤.

٢ - سورة الأعراف. الآية: ١٩٩

٣ سورة فصلت. الأيات: ٣٣، ٣٤، ٣٥.

٤ - علم عليه - في الجامع الصغير بالصحة - وفيه روايات، وقال شيخ الاسلام ابن تيمية لا يعرف له سند ثالث.

٥ - فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى، ج. ١ ص: ٢٢٤

قال في تفسير المنار «الرب السيد المربي، الذي يسوده ويربيه ويدبره ثم قال - في تفسير الفاتحة - «وتظهر ربوبيته للناس بتربيته اياهم، وهي قسمان تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال ابدانهم، وقواهم النفسية والعقلية وتربية شرعية تعليمية وهي ما يوحيه الى افراد منهم - يعني الرسل - لتكمل به فطرتهم بالعلم والعمل اذا اهتدوا به. فليس لغير الرب ان يشرع للناس عبادة، ولا ان يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه»[1] وقد بين الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - التربية الإلهية الكاملة لعباده بدنيا وروحيا، ومقتضاها ان التربية الشرعية انما تكون باتباع ما جاء من الرب المعبود، فهو الذي يوحي الى عباده الذين اصطفى بما يشاء ويختار وعلينا الامتثال والاتباع، فمدبر الكون لا يجوز ان يترك عباده هملا يجرون وراء مناهج في التربية وضعها بشر يخطئون ويصيبون وقد يكونون ماديين لا يتقيدون بدين، ولا بخلق متين، وفيهم من يرى ان سعادة الانسان لا تتحقق الا بالتحلل الكامل، والانفكاك من كل خلق ودين، والعودة الى طريق الحيوانات العجمى.

وقد اصاب الدكتور رابح تركي في رفضه الاعتماد في تربيتنا لنشء اسلامي صحيح النسبة والتربية - على مناهج تربوية مستوردة وضعها علماء أمم اجنبية عنا قد تكون صالحة لهم، مفيدة لأبنائهم مطابقة لعاداتهم وتقاليدهم ومناهجهم في الحياة ولكنها بعيدة عن تربيتنا مجافية لاخلاقنا، ضارة لنا. قد تفسد علينا ناشئتنا، وقد تلحق الضرر بنا، فعلى علماء التربية فينا ان يضعوا لنا مناهج مبنية على مراعاة ديننا وأخلاقنا، وعاداتنا السليمة. وقد اعتمد بعض خبرائهم على كتب منها لجان جاك روسو الفيلسوف الفرنسي، وسيرته مع «مربيته» معروفة كشفها بنفسه وفضحها ولا يجوز ان يعرف ذلك مراهقون، فضلا عن اخذ آرائه في التربية

وقد مر ان التربية الاسلامية لا تختص بالصغار، وان كانت تصاحب تعليمهم وتسايره في كل مراحله الى آخرها، وبعد ذلك تستمر في تذكيره

---

١ - انظر الجزء الأول من تفسير المنار عند قوله تعالى (رب العالمين) من الفاتحة.

حتى نهايته وفي القرآن الكريم ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[1] ومن باب التذكير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وجوب تربية الصغار وتعليمهم

تبتدىء تربية النشء مبكرا جدا من الأبوين الأب والأم والقرابة، وعلى الانسان ان يكون قيما على اهله حافظا لهم، واقيا لأجسامهم وأرواحهم من الهلاك المادي والمعنوي ومن لم يقم بذلك عد مقصرا قال تعالى: ﴿يأأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾[2]

وفسرها علي - رضي الله عنه - بقوله: (علموا انفسكم واهليكم الخير، أدبوهم) وفسر الأهل بما يشمل الزوجة والولد، انظر تفسير الآية.

وفي الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال: (علموا الصبي الصلاة ابن سبع واضربوه عليها ابن عشر) رواه أحمد والترمذي وغيرهما، وعلم عليه في الجامع الصغير بالصحة، وفي حديث آخر حسن: (علموا أبناءكم السباحة والرماية، ونعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل واذا دعاك ابواك فأجب امك) وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمثل هذا الى أهل الشام فقال: (ان علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية) وكان من مَهَر في هذه في العرب سموه (الكامل)، وعرف بالمهارة في هذه الأنواع من الرياضة والقراءة عدد من الصحابة منهم اسيد بن حضير وسعد بن عبادة ورافع بن خديج[3]

فالعناية بتعليم الصغار وتدريبهم لاتهتم - فقط - بحشو أدمغتهم بمحفوظات وتعريفات وزاد ثقيل الهضم، ولكنها تهتم - الى ذلك - بالدين والعلم والأخلاق وتهذيب الروح وتنمية الادراك والفهم والحركات الرياضية للجسم مما يكسبه مرونة ومهارة ويعده للكفاح والمدافعة وقد جاءت الشريعة الاسلامية لاصلاح الناس واعدادهم اعداداً كاملا للحياة

---

١ - سورة الذاريات. الآية: ٥٥.

٢ سورة التحريم. الآية: ٥.

٣ - المناوي: فيض القدير على الجامع الصغير في شرح الحديث السابق. ج ٤ ص ٣٢٧.

وقد جاء في الحديث: (المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) وقال تعالى: **﴿كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[1].

المسلم وسط: لا افراط ولا تفريط

إن اساس التربية الاسلامية تكوين الانسان المسلم الصالح لحياة الدارين انه الانسان (الوسط) الذي لا يغلو في الدين ولا يفرط في الدنيا.

فقد غلا أقوام من اهل الكتاب في دينهم وحرموا على انفسهم زينة الله وما أحل من الطيبات زعما منهم ان الغلو في الروحانية والبعد عن كل مادة وملذة وتعذيب الانسان نفسه هو وحده الذي يرضي الرب ويقرب الانسان منه وقد جاء النهي عن ذلك الغلو في كتابنا **﴿قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾**[2]

وفي آية أخرى **﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾**[3]. وقد غلت اليهود في ماديتهم، وأسرفوا في عدوانهم، وتحللوا من كل خلق كريم فأخذوا الربا ـ وقد نهوا عنه ـ وأكلوا أموال الناس بالباطل، وخانوا الأمانة وقالوا ليس علينا في الأميين سبيل، وأفسدوا في الأرض، وقتلوا الأنبياء، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكذبوا على الله. وسموا أنفسهم شعب الله المختار) يباح لهم مالا يباح لغيرهم من الخلائق في زعمهم. وهم الكاذبون.

وجاءت الشريعة الاسلامية وتربيتها بغير هذا الافراط ولا التفريط

---

١ سورة آل عمران. الآية: ١١٠

٢ ـ سورة المائدة. الآية: ٧٧.

٣ ـ سورة الحديد الآية: ٢٧

من النصارى واليهود الذين بدلوا وغيروا، وحرفوا الكلام عن مواضعه وكانت الأمة الاسلامية خير امة لأنها الأمة الوسط: جنبت الطرفين الافراط والتفريط **﴿وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾**[1].

أحب قوم من خيار اصحاب الرسول ان يجتهدوا في عبادتهم بانقطاعهم عن بعض الملذات فاجتمعوا وقال بعضهم «انا اقوم الليل ولا أنام» « وقال آخر انا اصوم الدهر ولا أفطر» وقال آخر «وأنا لا اتزوج النساء» وقال آخر «وأنا لا آكل اللحم» وسمع الرسول بمقالتهم، فخطب فيهم وقال ما فحواه «ما بال أقوام يقترحون أشياء ليست في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل اللحم، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» هذا فحوى ما رواه البخاري وغيره[2] وفي القصة نزل قوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين﴾**[3]

فالنبي صلى الله عليه وسلم تبرأ من الغلو والغلاة ـ حتى في العبادة وطلب القربات، والله سبحانه سماه عدوانا، والغالين معتدين، لأنهم أقدموا على التحليل والتحريم، وذلك من خصائص إله الناس.

وكذب الذين قالوا نحن شعب الله المختار يجوز لنا ما لا يجوز لغيرنا، وسواء كانوا من جفاة أهل مكة من الذين ما جاءهم ـ قبل القرآن ـ من كتاب ولا نذير، أم من يهود وهم اهل الكتاب، فالناس كلهم من آدم، وآدم من تراب لا فضل لأحد منهم على آخر الا بتقوى الله وصلاح القلب والأعمال **«ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[4].

---

١ ـ سورة البقرة. الآية: ١٤٣

٢ ـ. انظر تفسير الآية في المنار

٣ ـ سورة المائدة. الآية ٨٧.

٤ ـ سورة الحجرات. الآية: ١٣

الإغراق في المادية مرفوض في التربية الاسلامية، والغلو في الدين والتزمت والإيغال في الروحانية غير مقبول فيها والمقبول هو ماجاء في وعظ قوم قارون لقارون، فقد آتاه الله من خيرات الدنيا ما جعله يعجب بها ويلهيه عن المنهاج القويم فقالوا له ﴿**لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله اليك، ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين**﴾[1] فلما لم ينته عن غروره، ولم يرتدع عن فجوره خسف الله به وبداره الأرض، وهذا مآل كل خليفة لقارون، وكم منهم في الأرض.

الايمان أساس كل تربية في الاسلام

ان الايمان هو اساس كل تربية سليمة، وقواعد الايمان جميعها حديث جبريل عليه السلام اذا قال: (اخبرني عن الايمان. فقال عليه السلام: ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)

ومتى سكن الايمان القلوب اطمأنت النفوس وسكنت، وأقبلت على المبادرة الى الخير وعلى عمل الصالحات، والتزمت بالحق تعمل به، وتتعاون عليه وتخلقت بالصبر على المكاره تقتحمها وعن الملذات الحرام تجتنبها.

هذه التربية جاءت بها سورة في ثلاث آيات من المفصل هو قوله تعالى ﴿**والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[3]، قال الامام الشافعي لو لم ينزل على **الناس غيرها لوسعتهم**[4]

وأول بنود الايمان التصديق بالقلب والنطق باللسان ان الله موجود، لا اله الا هو ولا رب سواه، ولا معبود غيره، فاذا اعتقد الانسان ذلك

---

١ ـ سورة القصص. الآيتان: ٧٦، ٧٧

٢ رواه مسلم وغيره.

٣ سورة العصر. الآيات: ١ ـ ٣.

٤ انظر تفسير هذه السورة للاستاذ الامام محمد عبده في تفسير جزء عم.

تحررت نفسه واصبح لا يشعر بسلطان عليها الا لخالقها ورازقها ومحييها ومميتها فلا تعبد الا اياه ولا تخاف الا منه ولا تدعو غيره، والتوحيد في الاسلام توحيد مطلق لا يشرك المسلم غير الله معه في شيء من أمره، حتى الانبياء والمرسلون والملائكة المقربون ليسوا الا عبادا لله مكرمين لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله فضلا عن ان ينفعوا غيرهم أو يضروه.

وقد انحرف عن التوحيد الخالص قوم من أهل الكتاب: **﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون، اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله، والمسيح ابن مريم وما أمروا الاّ ليعبدوا إلها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون﴾**[1] وما أمرهم بهذا القول ولا اذن لهم فيه ـ انبياؤهم فهم فيه يكذبون على انفسهم وعلى انبيائهم وعلى الله، وما قال عيسى للنصارى الا **﴿ان اعبدوا الله ربي وربكم﴾**[2] و **﴿اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾**[3]

وقد اتبع سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ـ قوم انتسبوا الى الاسلام ونسبوا لرسولنا عليه الصلاة والسلام، أو لقوم هم عندهم من الصالحين قريبا مما قالته اليهود والنصارى في انبيائهم وصالحيهم مع انهم يقرؤون في كتاب الله يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام: **﴿قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الاّ ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾**[4] فاذا كان هذا مقام رسول الله ﷺ فكيف بغيره ممن نسب الى الصلاح ـ حقا أو باطلا ـ وبنيت على قبره القباب واصبح القبر معبودا من دون الله تقدم له القربان والنذور ويدعى صاحبه للنفع ودفع الضرر

---

١ ـ سورة التوبة الآيتان؛ ٣١ ـ ٣٢

٢ ـ سورة المائدة. الآية: ١١٧

٣ سورة مريم. الآية: ٣٠.

٤ ـ سورة الاعراف. الآية: ١٨٨

ان هذه نقطة اساسية في التربية والتعليم يجب ان ينشأ عليها أجيال المسلمين، فان النفوس متى نشأت على الايمان بالله والتوحيد الخالص لا يخشى عليها ان تذل وتخضع لغير الله، وما أصاب المسلمين من اختلاف ومن اختلال وفساد وتأخر وانحطاط في شئونهم الدينية والدنيوية الا نتيجة انحرافهم عن التوحيد الخالص ذلك ان من بلغ به السوء الى رجاء النفع ودفع الضر من الاموات أو من الجمادات أو من ضعفاء المخلوقات أو من الأوهام والخيالات كان حريا ان يخضع لغيرهم من ذوي السلطان من الظالمين، من مثل من قال فيهم أبو الطيب:

وقد ضل قوم باصنامهم فأما بزق رياح فلا
فتلك صموت وذا ناطق اذا حركوه فسا أو هذى

وقد بلغ السوء بالمسلمين الى الدرك الاسفل من عبادة المخلوقين، والاستكانة لقهر الظالمين ممن ساموهم الخسف، من جراء اصابتهم في عقيدتهم، ومن وحد الله وعبده وخافه لم يكبر في نفسه ولا في عينه احد غيره ولهذا شرع التكبير في كل ركعة من الصلاة.

مناهج التربية الاسلامية:

ان فصول مناهج التربية الاسلامية ـ التي يجب ان يعود عليها في تربية صحيحة لكل اجيالنا ـ مبعوثة في كتاب الله، وفي سنة رسول الله القولية والفعلية والاقرارية والسيرة النبوية كلها امثلة من التربية المثالية وما على علماء التربية منا الا ان يستخرجوها، وينفذوها وسيجدون ابناء الاسلام أسرع انقياداً لها، وأقرب اليها، وأسعد بنتائجها، فليست التربية في الاسلام مبينة على مجرد نظريات ولكنها مبنية على نصوص وعلى آيات، من آيات القرآن

وفي آيات التربية واسلوبها وتلقينها للناس ودعوتهم اليها يقول الله **﴿قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾**[1] ويقول **﴿ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا**

---

١ ـ سورة يوسف. الآية: ١٠٨

وقال إنني من المسلمين ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الّا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم﴾

وفي اسلوب التربية قال تعالى: **﴿أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**[1].

ومن فصول التربية الاسلامية تربية صغارنا وكبارنا على خلق التعاون والتحابب ونكران الذات والذوبان في المصلحة العامة، وقد جاء فيها قوله تعالى: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله﴾**[2] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثال الكامل لنا في مثل هذه الاخلاق وكمالها وسموها، وقد وصفه الله سبحانه بقوله: **﴿لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**[3] وقد امرنا الله سبحانه ان تكون لنا فيه الاسوة الحسنة فقال: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾**[4]

الشـــــورى:

ومس اعظم وسائل التعاون بين المسلمين ترك الاستبداد في تدبير شئون المسلميں والركون الى الشورى، والخضوع الى نتائجها، يدل على ذلك فحوى الآية السابقة في التعاون، واصرح منها قوله تعالى في مدحهم **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**[5] وهي آية مكية عززتها آية مدنية هي قوله تعالى **﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين﴾**[6].

---

١ سورة النحل. الآية: ١٢٥

٢ - سورة المائدة. الآية: ٢

٣ سورة التوبة. الآية: ١٢٨

٤ - سورة الأحزاب. الآية: ٢١

٥ سورة الشورى. الآية: ٢٨

٦ - سورة آل عمران. الآية: ١٥٩

وكان رسول الله ﷺ معصوما ومحالٌ ان يقر على خطإ ـ لو عمل برأيه ـ ولكنه كان اسوتنا وقدوتنا فكان يستشير اصحابه تربية لنا وتعليما: قد استشارهم قبيل معركة بدر وتنازل الى قول جندي في جيشه:

قول الحباب بن المنذر، واستشارهم في مصير أسارى بدر، ثم استشارهم قبل الخروج الى أحد، ونفذ رأيا لأغلبيتهم لم يكن رأيه ولا رأي كبار المستشارين. وكذلك كان شأنه في كل ماليس سبيله الوحي من العبادات والحلال والحرام فهذه لا رأي فيها لأحد، ولا يدخلها الاجتهاد. وأما امور الناس الاخرى فان لأهل الرأي والتدبير والخبرة قولا يرجع اليهم فيه. ومع تأكيد الاسلام على التزام التعاون والشورى في تدبير امورهم فان اكثر الناس اعراضا عن هذا الخلق، واستهانة به، وانصرافا عنه هم المسلمون لهذا شاع الاستبداد فيهم، وعم أوطانهم، وتؤولت نصوص الشريعة الصريحة الواضحة بغير معناها الصحيح فاذا كان رسول الله المعصوم أمر بالمشاورة وعمل بها، وتنازل الى رأي المدلين بها فمن يستغني عنها؟ واذا كان ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من كبار الصحابة ومن عظماء الخلفاء وقادة الجيوش في عز الدولة الاسلامية ـ قد أعملوا مبدأ الشورى فان كل الناس بعد هؤلاء اقزام. ومن فصول التربية الاسلامية الصبر الجميل عند المحنة والثبات على المبدأ والرضاء بالحكم عند القضاء، وعدم استعجال الراحة بالنصر

وقد كان المسلمون أقلية بمكة، وكان المشركون يستفزونهم ويعذبونهم فكان الله يأمرهم بالصبر بمثل قوله تعالى ﴿**ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور**﴾[1] وقوله ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم**﴾[2] ولما كانت مصيبة أحد، وأصيب من كبار المهاجرين والأنصار سبعون فيهم سيد الشهداء حمزة ومثل به المشركون اشنع تمثيل توعدهم رسول الله ﷺ ان يمثل بهم اذا تمكن منهم فأدبه ربه ـ وأدب المسلمين اسوة

---

١ - سورة الشورى. الآية: ٤٣.

٢ سورة الاحقاف. الآية: ٣٥.

به بقوله تعالى ﴿وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[1] وقال عليه الصلاة والسلام (كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم) وأراد أن يدعو على طائفة منهم فانزل الله تعالى قوله ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون﴾[2].

فالأمر لله وحده والعباد كلهم عباده، فان شاء عذب الظالم بظلمه، وان شاء تاب عليه وعفا عنه وهداه الى الحق وشرح صدره للاسلام: عذب ابن قميئة وعتبة بن ابي وقاص بما سفكا من دم رسول الله ﷺ يومئذ، ولكن تاب على آخرين وهداهم الى الاسلام، ومنهم الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن ابي جهل، وابو سفيان، وضرار بن الخطاب، وضرار بن الأزور رضي الله عنهم، وما منهم الا وله اثر كريم في الاسلام، وكفى بموقف خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص في حروب الردة والفتوح الاسلامية، ولو ماتوا بدعاء الرسول ﷺ اثر احد لكانوا من الهالكين الخاسرين ولكن رحمة الله ادركتهم ورأفة رسول الله ﷺ بهم كانت خيرا لهم.

العدل المطلق وتحريم التعالي واحتقار الانسان

ومن أبهى فصول التربية الاسلامية التزام العدل المطلق في الشهادة وفي الحكم والمعاملة، والترفع عن التعصب والتحيز، واقتراف الظلم والجور، فان الاسلام بلغ بأمته الى مالم يبلغه احد من الناس حتى اليوم.

يقول الله تعالى في الشهادة والحكم: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا، اعدلوا هو اقرب للتقوى﴾[3] وفي آية النساء قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آ منوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين ان

---

١ - سورة النحل. الآية: ١٢٦

٢ سورة آل عمران. الآية: ١٢٨

٣ - سورة المائدة. الآية: ٨.

يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا﴾[1] ففي الحكم وفي الشهادة يجب الالتزام بالعدل ولا يجوز الانحراف لقرابة قريبة ولا لعداوة شديدة، لا لجاه وغنى، ولا لضعف وفقر رحمة بالضعيف فالله اولى بالعدل من كل واحد. بهذه التربية بلغ المسلمون القمة ونزل اعداؤهم الى الدرك الاسفل، وها نحن نرى الانسان يعذب ويهان ويحتقر في بلاد الانجليز والفرنسيين والامريكان ولا ذنب له الا لونه أو جنسه أو دينه ويتواطأ على الاستهانة به الشرطة والقضاء والحكام والشعب، وانما اقتصرنا على ذكر هؤلاء الأوطان لأنها تزعم وتدعي انها قمة في المدنية

فكيف نطمئن الى ما عندهم من فن التربية ومناهجها اذا كان هذا أثرها في مجتمعهم؟

لقد انتهى المسلمون من قضية التفوق والاستعلاء الجنسي بتأديب الله ورسوله لهم، ودان بها العرب كلهم من يوم فتح مكة، فان رسول الله ﷺ خطب في قريش وقال ما فحواه: «يا معشر قريش، ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والاجداد كلكم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا ابيض على اسود الابالتقوى» ثم قرأ قوله تعالى **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير﴾**[2]

ومن تأثير هذه التربية فيهم ان بلالا رضي الله عنه ـ وهو مولى حبشي اسود اللون سبق صناديد قريش الى الاسلام وثبت وصبر فكان عمر بن الخطاب يقول عنه لذلك «سيدنا بلال».

ويوم جاء أمر عمر الى القيادة باستنطاق خالد بن الوليد، واعتقاله حتى يجيب تقدم منه بلال وحل عمامته واعتقله بها طاعة لأمر أمير المؤمنين. واراد ان يزوج أخاً له من عقيلة من عقائل قريش فتقدم من أهلها وخطبها منهم وشرح بكل صراحة ماضيه في العبودية والمهانة، وحاضره في الاسلام

---

١ ـ سورة النساء. الآية: ١٣٥

٢ سورة الحجرات. الآية: ١٣ وانظر خطبة النبي في سيرة ابن هشام.

وعزته، فزوجوه ولم يروا كفاءته تنقص عن كفاءة حرة قريشية، ولو تجرأ على ذكرها في الجاهلية لكان له مقام آخر فقد كانت قريش تأبى ان تجالس رسول الله ﷺ أو تسمع منه ما دام يجلس معه بلالا وخبابا وعامراً وغيرهم من ضعفاء المسلمين فنهاه الله ان يطردهم بقوله ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾[1] فالله سبحانه وتعالى اعلم بالشاكرين، وانه لا ينظر الى الصور ولكن الى القلوب والأعمال. ومن قبل قريش قال قوم نوح عن المؤمنين ﴿**وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا**﴾[2] وانا لنرى التربية (الليبرالية) واهلها ما يزالون لم ينتهوا من حل عقدة هذا المشكل العويص البعيد الغور في نفوس اممهم وذويهم، بينما اجتثه الاسلام من اربعة عشر قرنا مضت. وارى انهم في بلدانهم ما يزالون في عصر قوم نوح وعصر جاهلية اهل مكة من العرب.

من وظائف التربية الاسلامية تعليم النشء التعليم الصحيح واعطاؤه العلم النافع مما يقيم به دينه ويصلح به دنياه وقد تعوذ رسول الله ﷺ من علم لا ينفع

ولا أضر على الأمة من «علم هو نفس الجهل، وأوضح الأمثلة على ذلك اساءة فهم شئون الدين والدنيا، واستجابة المنكر باسم المعروف. كاشعال الفتنة و(الجهاد) ضد الدولة المسلمة التي ان (قصرت) بعض الشيء فانها لم تأت بالكفر البواح، أليس هذا الفهم سقيما وما جاء الا من ان تعليم الدين كان مغشوشا، و «العلم» المتلقى كان جهلا.

من وظائف التربية الاسلامية النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولائمة المسلمين وعامتهم، ومن وظائفها السمع والطاعة ـ في المعروف ـ والتزام الجماعة وتحريم الفتنة واشعال نارها، ومن شذ شذ في النار.

ومن تاريخنا ان الأئمة الأربعة ـ وهم المقتدى بهم كلهم قد اصابوا المكروه، فضرب مالك، وسجن ابو حنيفة واعتقل الشافعي، وعذب احمد

---

١ ـ سورة الانعام. الآية ٥٢.

٢ سورة هود. الآية: ٢٧

ابن حنبل وسجن وأهين وما حدثت أحدا منهم نفسه ان يشق عصا الطاعة، ويفرق الجماعة، وينقض البيعة ولو شاء الامام احمد رحمه الله ان يدعو العامة لنصرته والأخذ بثأره لزلزلت بغداد بأهلها واشتعلت الفتنة، ولكنه كان أعلم واتقى لله وأصفى وأنقى، فصبر حتى جاءه نصر الله، و (مات) الاعتزال وأهله، وانتصر احمد ومذهبه وصدق قول الله تعالى **﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾**[1]

ان التربية الاسلامية، والتعليم الكامل يعصمنا من الفوضى التي تعرضت اليها امتنا في ظروف انحطاطها، وحتى الآن، ان ابناءنا فقدوا الشخصية، وصاروا ذائبين في غيرهم. فمنهم من (تغرب) وأسرف في تغريبه حتى صار يشك في الواضحات ويجادل في البديهيات ومنهم من (شرق) وانكر المعلومات بالضرورة، وتنكر لدينه وماضيه وقوميته، وهجا امته ودينها ومبادئها وسيلتقي الفريقان في ساحة العمل والواقع، ولا يتفقان الا على شيء واحد، وهو التنكر (لأمة الاسلام) وتربية الاسلام.

هل الى احياء التربية الاسلامية من سبيل؟

ان هذه النهضة الاساسية التي احدثها الاسلام - بتربيته وتعليمه - في نفوس البشر ضرورية اليوم لاحياء امتنا وتماسكها، واستعادة عزها ومجدها وسيادتها وقوتها

ولا سبيل لها لاسترجاع ذلك الا بالاسلام، فالاسلام هو الذي يوحد صفوفنا ويؤلف بين قلوبنا ويمحو الزيغ والفساد من عقائدنا، ويذيب الانانية من نفوسنا، ويزيل الضعف والخور من أخلاقنا، ويعيد الثقة الينا وان علماءنا قادرون على استخراج فصولها من نصوص شريعتنا، وان المعلمين والمربين لقادرون على غرسها في ابنائنا وبناتنا وجعلها من اخلاق امتنا وان اولى الأمر منا والساسة والقادة فينا لحري بهم - بل يرجى منهم - ان يكونوا حريصين على التمسك بما هو من مصلحة امتهم في التربية والتعليم.

فأمة الاسلام - منذ ان كانت - لم تترك هملا، ولها ماضيها ومبادئها

---

١ سورة الرعد. الآية:

سمعت بالأمس تساؤلا: هل يجوز ان يجنح في التربية الى العنف ام يكتفي فيها بالرفق واللين. وذكر أنهما نظريتنان تترجح الثانية منهما.

وقد تذكرت ان انس بن مالك رضي الله عنه دخل في خدمة رسول الله ﷺ وتربيته وعمره عشرة أعوام، وبقي في تربيته وخدمته عشر سنين كاملة ثم روى عنه اهل الصحاح انه قال: (ما قال لي رسول الله ﷺ لشيء فعلته لم فعلته؟، ولا لشيء لم أفعله لِمَ لم تفعله؟ ومعنى ذلك انه لم يسمع منه في مدة عشر سنين كلمة تأنيب وتوبيخ فضلا عن الضرب والقهر فاستعمال اللين والرفق هو أسلوب النبوة في التربية. واستعمال العنف يوجب تدخل السلطة ومن وظيفة صاحب الحسبة - كما تقدم - مراقبة المؤدبين والمعلمين ومنعهم من ضرب المتعلمين، كما انهم كانوا يراقبون الحمالين ويمنعونهم من حمل ما يفوق طاقتهم، وكذلك اصحاب السفن لئلا يحملوا السفينة فوق حمولتها فتتعرض للغرق. كل ذلك يدل على تدخل التربية الاسلامية في حفظ مصالح الناس في ابدانهم واموالهم واعراضهم ومنع الضرر والخوف عنهم ومن اجاز التأديب فانه يشترط الا يهشم لحما، ولا يفتح جرحا ولا يكسر عظما فان تجاوز الامر الى ذلك فالقصاص من العنيف.

وقبل الختام اشير الى ان النهضة الاسلامية العربية بالجزائر اعتمدت على التربية والتعليم، فقد انهكت الحروب المتوالية المقاومة للاستعمار شعب الجزائر، وبلغت به شفا الهاوية، وفقد فيها كل شيء ما عدا الاسلام، فان نوره بقي في نفوس أهله.

وقد اثبت شعبنا - بالفعل - انه اصيل في العروبة وفي الاسلام، وان له وطنا هو من (دار الاسلام) وان التربية الاسلامية ما تزال تؤتي ثمارها، وتؤدي دورها، وكل مدارس نهضتنا كانت تحمل اسم (مدرسة التربية والتعليم الاسلامية) لهذا فنحن مقتنعون جد الاقتناع بان نجاح أجيالنا في كل أطوار حياته إنما تكون بتطبيق التربية الاسلامية.

المراجـــــــــع

١ ـ الاصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني. مطبعة السعادة: القاهرة. ١٣٢٨هـ.

٢ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ابن عبدالبر في هامش كتاب الاصابة. مطبعة السعادة: القاهرة ١٣٢٨هـ.

٣ ـ تاريخ الاسلام السياسي. حسن ابراهيم حسن. النهضة المصرية: القاهرة.

٤ ـ تفسير المنار محمد رشيد رضا. الطبعة الأولى. مطبعة المنار: القاهرة.

٥ ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. دار الكتاب العربي: بيروت.

٦ سيرة ابن هشام. أبو محمد عبدالملك بن هشام. مطبعة الحلبي: القاهرة.

٧ ـ صحيح البخاري. دار الفكر: القاهرة.

٨ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوي.

٩ مقدمة ابن خلدون. ابن خلدون. دار الفكر: القاهرة.

١٠ ـ الموافقات في أصول الشريعة. الشاطبي. دار المعرفة: بيروت.

الحركات الاسلامية في منهجها وقيادتها

الدكتور عبدالحميد محمد المنيف*

ان الحملات المناهضة للاسلام التي تتزعمها الصليبية العالمية بكافة وسائلها تضافرت على مقاومة الصحوة الاسلامية وتحمست في وقوفها في وجه الزحف الاسلامي والتحول بالمسلمين من صف الريادة والقيادة، متخذة في موقفها هذا جميع الوسائل بما في ذلك الحركات التبشيرية داخل المجتمعات الاسلامية وغيرها ووسائل التشكيك والتجهيل والتضليل العالمي ومساندة الاستعمار برؤوسه الثلاثة الشرقية والغربية والصهيونية، وان المجابهة التي تتلقاها الدعوة الاسلامية والمجتمع المسلم في كافة انحاء العالم وعلى يد جلاوزة المكر والكيد والحقد، ليدعو كل ذلك المسلمين، افرادا وجماعات وحكومات الى مراجعة النفس ومدارسة الحالة الحزينة الكئيبة وتحريك الهمة للمسارعة الى انقاذ هذه الأمة الممزقة من الفناء والذوبان، اقتناعا بان لكل فرد منا ولكل مجموعاتنا ثم لكل حكومة من حكوماتنا في حساب اعدائنا وما يضمرونه نحونا دوره المعين، ويومه المحدود، وان غدا لناظره قريب. اذ كما هو معلوم ان هذه الحملة المسعورة لن يفلت من عواقبها أحد، فلقد انطلقت من تخطيط قائم على مبدأ صليبي عدواني، يجعلنا كلنا في صعيد واحد ويبيت لنا جميعا مصيرا واحدا فكلنا فلسطين اليوم واندلس الأمس ولبنان المستقبل، ولا تغرنا منهم مظاهر الصداقة الموهومة والمودة الزائفة وبوادر العطف والحماية فتلك ـ لعمري ـ ﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا﴾[1]، كما ان لكل منا عندهم موعدا لن يخلفه. ﴿ان موعدهم الصبح أليس الصبح

---

* مدير الدراسات ونائب عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ـ الجامعة التونسية

١ ـ سورة النورة آية: ٣٩.

بقريب﴾[1]. وذلك - في مقدراتهم هو مصير المجموعات والحكومات الاسلامية المتمزقة والمنقسمة على نفسها والتائهة في طريق الضلال والغرور والغباوة. إنه اقتطاع وابتلاع مرحلي مبيت، لا نبعد في هذا الحال كثيرا عن حال الثيران الثلاثة التي جرت على لسانهم الحكمة القائلة: "أكلت يوم أكل الثور الأسد"

ومن هنا أصبح أكيدا على كل مسلم سواء كان على الصعيد الفردي أو الجماعي أو الحكومي وحتى يحفظ على الأقل كيانه ويحمي ذاته تأدية واجبه المفروض عليه كمسلم ان يتحرك لمجاهدة هذه الحملة العدوانية الشرسة ومقاومتها والاجهاز عليها، وان يعمل بجد وحماس واخلاص على حماية نفسه وحماية مجتمعه وخدمة ابناء جنسه، وان يسارع للاستجابة الى الداعي لما فرضه الله على الناس من حد للعدوان من جهة، ومن تبليغ للحق ونصرة للعدل وأخذه بيد المستضعفين من ناحية أخرى.

ولعل هذا اللقاء جاء ليحقق هذا المعنى ويهدف له، كما أقيم ليعبر عما في النفس من القلق والحسرة وليترجم عما عقد عليه العزم من الاستجابة الى صوت الواجب، فوجب شكر القائمين عليه. ووجب ضم الجهد اليهم ومد يد المساعدة لهم والانضمام اليهم في هذه الدعوة المباركة الى التفكير والبحث عن طريق تعتمد لتوحيد الصفوف والطاقات، لتحريك الهمم من أجل مضاعفة الجهود الى ارجاع الثقة في النفوس وارجاعها بالنفوس ومن أجل الرجوع الى الله واللوذ به والاعتماد عليه في تحرير المسلمين مما يراد بهم، ومن أجل العمل على خدمة الدعوة الاسلامية وتنشيطها ومساعدة العاملين في ساحتها وتمكينهم من أداء واجبهم داخل مجتمعاتهم وخارجها امتثالا لقوله تعالى: **﴿فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون﴾**[2]، واستجابة لداعي قوله سبحانه تعالى: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون الي الخير ويأمرون**

---

١ - سورة هود آية: ٨١.

٢ - سورة التوبة آية: ١٢٢

بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون﴾[1]

ولعل هذا بعض الحوافز لما جاء عقب ما أكدته الأيام فقام مقام الجزم القاطع واليقين الراسخ والايمان الجازم الذي لا ريب فيه من أن الكفر ملة واحدة، وان كل عدو ترجى مودته الا عداوة الدين، وان العزة والكرامة والحرية والسيادة لا تقوم على الاستجداء وانما:

على قدر اهل العزم تأتي العزائم　　وتأتي على قدر الكرام المكارم[2]

وما نيل المطالب بالتمني　　ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وليس بعد قضية فلسطين المسلمة ولا بعد حرب لبنان وتحالف الكافرين على المسلمين خصوصا عقب هذا الاستسلام الثنائي الى اعتداء الغاصبين المستعمرين، ليس بعد هذا ولا ذاك مايدعو للتردد وللأمل والرجاء والانتظار واذا كان الهدف المهم من وراء هذه اللقاءات ومن وراء هذه البحوث خدمة الدعوة الاسلامية وايجاد المناخ الصالح لها وتوفير ما يلائمها من العدة المادية والقوة الروحية فالواجب الأكيد الملح والذي يفرض نفسه ويتقدم كافة المواضيع والمشاكل الاسلامية القائمة مراجعة الحالة المزرية التي نحن عليها ومعالجة البنية الاجتماعية والاسلامية ومدى صلتها بالاسلام وقيمها الحقيقة. وذلك حتى نتمكن من انتهاج منهج سليم ينتهي بنا ـ حسب السنة التي سار عليها الرسول (ﷺ) في الدعوة لهذا الدين الى ايجاد الفرد المسلم الصالح واقامة المجتمع الاسلامي الصالح وهذا قد يسوقنا حتما الى مراجعة سريعة واستعراض خاطف لتاريخ الأمة الاسلامية بطريقة نقدية نقف بها على العورات والانحرافات التي مالت بالمسلمين عن مواصلة المسيرة الأولى فانتهوا الى ما انتهوا اليه حتى يقع الاعتبار ويتحقق الاتعاظ لعل الله يوفقنا الى أنجع السبل ويحدث بعد ذلك أمرا.

---

١ سورة آل عمران آية: ١٠٤

٢ ديوان ابي الطيب المتنبي.

والحق ان تاريخ المسلمين والمعاصر منه بالخصوص، ملىء بالتحرك للتنشيط في سبيل الدعوة الاسلامية والقضية المطروحة هي الرجوع بالاسلام الى سالف عزه وبالرجوع بالمسلمين الى حظيرة دينهم عقيدة وفهما وسلوكا. فلقد طال بنا التباكي والمسكنة، وبحّت اصواتنا من التشكي والتوسل وقمنا بالمحاولات المتعددة وصرفنا الكثير من الطاقات ولكن الأيام لم تكتب لنا فوزا، ولم تحقق لنا فلاحا، ولم تعدل منا انحرافا ولا ارتدادا. فلم نقف موقفا نرتاح فيه ليومنا اكثر منه لأمسنا، بل كانت حالنا اليائسة في ايامنا هذه لا تقل قسوة ولا شؤما عن تلك التي عناها الشاعر العربي حينما قال:

رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه[1]

انا بحثنا وما زلنا نبحث عن ثوب نرتديه ونلبسه يحمينا من لهب التراجع عن ديننا وزمهرير الانحراف والشرك والتبعية والاستغلال. فكنا نضعه ثوباً مرقعاً وننسجه نسيجاً خليطاً اقتبسناه مما قدم لنا من حضارة الغرب وتفسخها وانحلالها وما أريد لنا من السير في موكب التبعية.

فبلادنا بلاد منسوبة الى الاصلاح، ولكن الذي يجري في بلادنا مرفوض من الاسلام ومحرم لديه، ونحن نحاول ان نحمله عليه، والناس كلهم مبتهجون او في حكمه واهل الحل والعقد من اهل الفكر والعلم راضون يبحثون له عن مسوغ ويختلقون له مخرجاً ومبرراً. والقليل منهم يكتفي بالحوقلة والهمهمة او الصمت يتوارى من الناس من سوء ما الصق به من الخزي والعار الا الذين آمنوا فجاهدوا وكافحوا وقليل ماهم.

ومجتمعنا في البلاد الاسلامية يصر على انه مسلم، ولكن كيف هي حال افراده من مختلف الطبقات نساء ورجالاً صغاراً وكباراً؟ وكيف هي وجوارحهم وقلوبهم ودخائلهم؟ والكل في الخيرات يتمرغون وفي البحبوحة يتنعمون ﴿**وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم**﴾[2] الحقيقة ان واقعنا لا

---

١ - ابي الطيب المتنبي.

٢ سورة النور. الآية: ١٥

يصدق انتسابنا فنحن احد رجلين: اما جاهل بدينه واما عالم جاهل بما يفرض عليه دينه[1] قال ﷺ: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم[2] ان الذي يعلم ولا يعمل بعلمه فكأنه جاهل به. قال تعالى: ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملاً.

اننا كلنا نعمل في محاولة لاصلاح اوضاعنا لا شك في ذلك، ولكننا لم نضع ايدينا على موطن الداء ايضا، ولم نتأس كذلك برسول الله ﷺ

سوادنا يعيش وهو لا يعلم عن دينه الا ما ورثه تقليدا عن الآباء ولسان حالنا يقول ﴿حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾[3] وخاصتنا يعيشون لأنفسهم ابتغاء متاع الحياة الدنيا. فلا عجب اذن مما تردينا فيه، ولا ننتظر اكثر مما نحن فيه ولا نحسد عليه نحن لا نشكو مؤسسات ولكننا نشكو من يديرها. ونحن لا نشكو ارشادا ولا توجيها، ولكننا نشكو سلوكا واخلاصا ونشكو من يعيش المعرفة ولا يعمل بمقتضاها

نحن في حاجة الى البحث عن السلوك الحسن لا عن القول الحسن، ونحن في حاجة الى البحث عمن يتولى مهمة الارشاد والتوجيه والدعوة على اساس انها دين لا على اساس انه محترف ومرتزق تعود على من يتعاطاها بما تدر به الخزائن من أموال ومتع وجاه. نحن ـ كما هو الواقع المر ـ ما زلنا في بداية الطريق ان لم نكن في مضيعة نبحث عن بداية هذا الطريق، فلو سمحنا لانفسنا بالنقد الذاتي ونقبله لتبينا ان ما نبذله من طاقات حولنا نستلهم المدد من غيرنا لاصلاح أحوالنا لو بذلنا على أنفسنا لكان أجدى وأنفع. ومع ذلك فاننا ـ والحال كما ذكر ـ نبحث عن موقع لنا بين الناس على أساس أننا مسلمون ونمثل الاسلام وندعو له في حين أننا أحوج ما

---

١ ابن حيان في كتابه روضة العقلاء، والبيهقي في المدخل موقوفا على ابي الدرداء.

٢ الحاكم من حديث حذيفة والطبراني في الاوسط من حديث ابي ذر.

٣- سورة المائدة. الآية: ١٠٤

نكون لاصلاح أنفسنا وفهم ديننا على غرار من سبقونا بالايمان وتنزل عليهم القرآن فعملوا به وتلبسوا بما جاء به وبينته السنة النبوية دون احتياج الى منهجية جدلية منطقية فلسفية تعتمد القول والتأويل والتخريج للوصول الى نتائج سواء أقرها الاسلام أو لا يقرها فتفرض عليه فرضاً وتلبس لبوس الصحة والقبول.

ان هؤلاء السابقين الأولين كانوا يتعرفون على الاسلام ليعملوا به وليدعو الناس للعمل به لا ليدرسوا فقط ويتحولوا به من عالم الجوارح الظاهرية والباطنية الى العالم النظري الكلامي لا يتجاوز فصاحة القول وحسن اللقاء وبراعة اليراع وبلاغة الاسلوب وذلاقة اللسان وأبهة المظاهر والمجالس والمراكب والمساكن والمآكل

فاذا ما اردنا بحق ان نقوم بخدمة انفسنا في خدمة ديننا ومجتمعنا فعلينا بالتأسي برسول الله ﷺ في الطريق والمنهج قال تعالى:
﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[1]، وعلينا بالتحلي بما تحلى به اصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وأجله القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا﴾**[2]

ثم بعد هذا علينا ان نتجنب في بناء مجتمعنا الاسلامي لاصلاحه والعودة به الى حظيرة دينه ان نتجنب الترميم والترقيع والتلفيق وان نضع ايدينا على الداء لنستأصله نهائيا نعالج الجذور بالعودة الى مفاهيم الاسلام فنفهمها على حقيقتها، والى اقامة احكامه وحدوده والتحلي بأخلاقه متخلصين من كل تبعية وولاء لغير الله سبحانه وتعالى باخلاص وشجاعة

---

٢ - سورة الأحزاب. الآية: ٢١

٣ - سورة الفتح. الآية: ٢٩

وجرأة وتجرد، لا ندين لغير الله ولا نشرك به احدا، غير هيابين ولا مستعينين باحد سواه. شعارنا: لا اله الا الله، محمد رسول الله ولا حكم الا لله، والله أكبر من هنا وجب البحث عن السبيل الى هذا الذي عقدنا العزم على تحقيقه حتى نتمكن من ضبط ادوار الأمة الاسلامية لانقاذها مما هي عليه من الهوان والعبودية والضياع، كما وجب البحث عن المنهج الذي نتوخاه لتمكين الاسلام والمسلمين من القبض على زمام المبادرة واعلاء كلمة الله على ضوء التأسي والاقتداء. الذي لا شك فيه انه لا بناء بدون قاعدة ولا أساس. ومعلوم ان اساس البنية الاجتماعية هو الفرد الذي يتكون منه ومن امثاله المجتمع.

ولما كان الدين الاسلامي دين عقيدة ودولة بلامراء، بنيت دعوته على اساس اجتماعي حضري، فكان الناس عامة يرعاهم ويهديهم الى الخير والسعادة والاصلاح. وكانت مسيرته قائمة على منهج رباني سار عليه الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضوان الله عليهم. فأولى هذا الدين بمقتضى ذلك ـ الأفراد كل العناية والترويض والتوجيه والاصلاح في مرحلة امتدت سنوات طوالاً مدة اقامته عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة بعد البعثة وهو يدعو الناس الى الاسلام

وكان ذلك بغية تكوين الفرد الصالح. حتى اذا ما اكتملت النفوس وتهذبت الطباع وتحولت الافراد الى عمد راسخة ثابتة متناسبة مع ما ينتظر من أمانة واستخلاف، مستوعبة للمكارم والمحامد والفضائل، متحمسة لما تلقته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، متحمسة بما القاه عليها وبلغه لها عن الله سبحانه وتعالى، توجه عليه الصلاة والسلام مهاجرا من مكة الى المدينة المنورة ليبني من تلك النفوس الطاهرة والعناصر الصالحة المجتمع الاسلامي الصالح والدولة الاسلامية الشامخة والمتخلقة بالاسلام والقائمة على مبادئه والمتعاملة باخلاقه والحاكمة بما انزل الله والآخذة بيد الانسان لتسمو به الى المستوى الانساني متحررا شامخا أمنا مطمئنا بعيدا عن الذل والمهانة والاستغلال والاستعباد، متخلقا بالاخلاق التي اصطفاها الله له

ليستحق مرتبة تعمير الكون والاستخلاف فيه والسير به وفق مشيئة الله وسنته

وهذه هي المرحلة المدنية التي قاسمتها المرحلة المكية عمر بعثة الرسول ﷺ وهكذا توفرت للامة الاسلامية بهذه الطريقة عناصر الحصانة من كل نكسة وانتكاسة. وهكذا تميزت الدعوة الاسلامية، بمنهجها العجيب القائم على التوازن بين الفرد والجماعة والتكامل بينهما، ففيها رعاية الفرد واصلاحه حتى يتحول الى عنصر صالح يتألف منه المجتمع الصالح انطلاقا من ان النفوس الخربة غير قادرة على اقامة مجتمع صالح تتألف منه امة جديرة بالحياة. تلك هي سمة عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم وتلك هي حالة الصحابة وحالة التابعين وتابعي التابعين.

ثم خلف من بعدهم خلف تحكمت فيه الاهواء بحكم بعد اصحابها عن المنهج النبوي، وبحكم دبيب الجهل بالدين فيهم وتحولت هممهم بهم عن توجيهاته متجهه بهم نحو حب المناصب والتكالب على السلطة والتصارع عليها، ونحو التعلق بالمتاع وحب الذات والاندفاع نحو الشهوات والهيام بالدنيا راكضين وراءها، متباغضين متنافرين، تحدوهم الأنانية وتستبد بهم الطبقية ويقهر منهم القوي الضعيف وتلاشت بينهم القيم. فتصدعت بذلك صفوفهم وتخاذلت هممهم وتداولتهم يد الخسف حتى استطابوا الذل واقاموا على الهوان ولم يبق لهم أي اعتبار

وتمثلت حالهم بحال من عناه الشاعر بقوله:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت ايلام

وانتهى العالم الاسلامي الى ماهو عليه الى الآن من التمزق والتفكك والتبعية والاستغلال والعبودية يستبد بهم الجهل ويدفع بهم الى الهلاك الشره الى الحكم والتقاتل عليه والاستبداد به واطلاق يد العابثين المستغلين في المسلمين تفعل فيهم ما تشاء كأنهم قطيع من الغنم أو طائفة من العبيد في قبضة الرياح تميل بهم كل مذهب ونالهم في الاندلس من التعذيب والتنكيل والتشريد والتنصير، وضاعت من ايديهم البلاد الاندلسية وغيرها في الماضي

البعيد، ولا ندري ماذا سيفعل بفلسطين وجاراتها لا قدر الله.

كل ذلك سببه التنكر للدين والانصراف عن تعاليمه واحكامه بل والتحمس للتنازل عن الاحتكام لغيره كما هو الحال بالنسبة لفلسطين والرضا بالتحول بها من دولة اسلامية الى دولة علمانية بعيدة عن الحكم بما انزل الله وعن حظيرة الاسلام والمسلمين. وهكذا نكرر ونؤكد ونقول: فخلفت اجيال جهل وجاهلية اخذت تبتعد سراعا عن معين الاسلام وتتساهل فيه ويغيب عن قلبها وعقلها ومشاعرها الايمان والعمل به كما تحول الاسلام عندها وعلى يدها من عالم السلوك والتلبس الى ساحة القلم واللسان، ومن ميدان الفهم والاقتناع والاقبال على الاخذ به والسير على هدية ابتغاء مرضاة الله الى مجال العاطفة والمتعة العقلية والاجواء العلمية الفلسفية والتبحر فيها والتباهي به بالغلبة على الاقران لتسنم ذروة الشهرة والجاه وللتحلية به زينة للمجالس وللخوض به في ميادين بعيدة عن طبيعة الاسلام، وللسير به نحو غايات ليست من اهداف الرسالة المحمدية ولا من مقاصد القرآن الكريم ولا من محاور السنة الشريفة

ان الدين الاسلامي دين عملي وليس دينا نظريا قوليا ولا جدليا كلاميا. وهو دين واقعي واجتماعي وليس دينا عاطفيا رهبانيا. وهو ايضا دين الحياة ودين الناس جميعا لا دين فلاسفة ومناطقة وجدليّين يعيشون للمجالس والمناظرات في اجواء خاصة تجعله حكرا عليهم، لا يحيا مع الناس ولا يتفاعلون معه ولا يرجعون اليه للخشية والاعتبار وهو كذلك دين كد وسعي واجتهاد يحرض على ذلك ويرفض خلاف ذلك. فهو يدعو للعمل ويحرص عليه فيقول مثلا: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾[1]. وهو في الوقت نفسه يمقت أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون فيقول: ﴿**ياايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون، كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون**﴾[2].

---

١ سورة التوبة. الآية: ١٠٥

٢ سورة الصف. الآية: ٢ ـ ٣.

وقريب منه قوله ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[١]، ولعل كتب التاريخ والأدب العربي وما جاء فيها منسوبا الى المسلمين في ايام لهوهم واعراضهم عن جوهر كتابهم وما قصته علينا شعرا ونثرا من الوان الظلم والعسف والمنكر والفجور والتميع والتفسخ والاستهتار بالدين ومن الوان البغي والطغيان والانحراف والاعتداء والتقاتل والتناحر تكفينا الحجة على ما نقول.

فاذا كان وعد الله سبحانه وتعالى الذي جاء به القرآن ـ وهو وعد الحق ـ جاء مبشرا بالنصر لمن ينصر الله ﴿يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[٢]، وجاء واعدا بالاستخلاف للموحدين الصادقين العابدين الخاشعين لله ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[٣]، واذا كان وعيده وعيدا بالخيبة وسوء المنقلب منذرا بالهزيمة وموعدا بالدمار والفناء والخيبة للظالمين المنحرفين مصداقا لقوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه اليم شديد[٤]، ولقوله سبحانه: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[٥] ولقوله ايضا: ﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[٦]. اذا كان وعد الله

---

١ ـ سورة البقرة. الآية: ٤٣.
٢ سورة محمد. الآية: ٧.
٣ ـ سورة النور. الآية: ٥٥.
٤ ـ سورة هود. الآية: ١٠٢
٥ ـ سورة هود. الآية: ١١٧
٦ سورة المائدة. الآية: ٥٤.

ووعيده كذلك فان الاحوال التي تمر بها الأمة المنسوبة الى الاسلام منذ اخذ اهلوها بالإعراض عن الدين والقرآن وحفظه الى ما نحن فيه مما لانحسد عليه، ناطقة بصدقها وكاشفة عن مدى ربط الأسباب بالمسببات حسب سنة الله تعالى وحسب حكمته وارادته، وصارفة هذا المجتمع عن مراتب العزة والسيادة. وذلك لانصرافهم عن الاسلام وفهم حقيقته وماهيته، ولهذا لم نصادف في تحركاتنا على جميع الأصعدة ـ في الحرب وغير الحرب ـ نصراً ولا كرامة ولا فلاحا. وكيف يكون خلاف ذلك وقد افتقدنا الثقة في النفس والوثوق في الله وازددنا مقابل ذلك تعلقا بالاعداء تعلق الرضيع بثدي امه نعيش في دوامة نبحث عن التخلص مما نحن فيه ولا مجير والغريب في الامر اننا كلما ازددنا ابتلاء ازددنا انغماسا في الحمأة. فنحن ـ والحالة هذه ـ ما زلنا في تحسسنا لطريق النجاة لا نثوب لرشدنا ولا نرجع لذاتنا نصلحها بهداية القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة على صاحبها افضل الصلاة وازكى التسليم بل ونتغافل عن الداء ونبتعد عن الدواء ونزداد ارتماء في احضان الاعداء تعلقا بهم واستنصارا بهم على انفسنا وعلى اخواننا. ففي الماضي كان الاعتماد على الاسبان والبرتغال واضرابهما، وفي الحاضر جاء دور المعسكرين الشرقي والغربي من امثال امريكا وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي.

فها هي الأيام اكدت انه بقدر انتمائنا وارتمائنا في احضان هؤلاء بقدر ابتعادنا عن ذاتنا وطبيعتنا وملتنا. انهم يمدوننا ـ بسخاء مفرط ـ بالاسلحة الفتاكة ويشعلونها فتنة عمياء تأتي على الاخضر واليابس، ويوقعون بيننا واخوتنا العداوة والبغضاء، ولكنهم يشحون علينا في ساعة العسرة بالدواء لأمراضنا وبالغذاء لمجاعتنا وبالمأوى للمشردين منا ويحرضوننا على التقليد والتسليم بأقوالهم والتسبيح بمجدهم والرفض لما عدا ذلك: كما يحقرون في اعيننا ديننا واحكامه ومنهجه في الحياة، وينفروننا من قومنا وأحوالنا وقيمنا ومن لغتنا والرجوع الى علومنا الاسلامية فقها وعملا ويشجعوننا على الاستسلام لشهواتنا حتى اتخذنا إلٰهنا هوانا، وتمكن منا الخوف من الناس

والخشية منهم والطاعة للمخلوق والاحتكام لأحكامه وعدم الخشية من الله والاقامة على معاصيه كما اتينا في نادينا المنكر واقمنا عليه وأمرنا به، وتجنبنا المعروف ونهينا عنه، وتجاهلنا القرآن وآياته، واعرضنا عن حفظه والعمل به، وابتعدنا عن السنة والاقتداء بصاحبها عليه الصلاة والسلام ولم ينفعنا وعد ولا وعيد ولا ترغيب ولا ترهيب.

كل امرنا هو الاستغاثة بأعدائنا محتمين بهم مستحضرين لعظمتهم ومهابتهم، مستبعدين خالق السماوات والارض متجاهلين حضوره وانه اقرب الينا من حبل الوريد وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليهم حفظة ولو كنا بحق مسلمين ومؤمنين لما وضعنا اصابعنا في آذاننا، ولاعتبرنا بالأمم الذين قص الله علينا قصصهم قال تعالى: **﴿واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾**[1].

وقال ايضا: **﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة اولم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا. ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون﴾**[2].
أفبعد هذا ننتظر من الله عونا أو نصرا أو استجابة دعاء! قال تعالى: **﴿وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**[3] وقال ﷺ: ان الله طيب لا يقبل الا طيبا، وان الله امر المؤمنين بما امر به المرسلين. فقال تعالى: **﴿يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾**وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾**[4] ثم ذكر الرجل يطيل السفر

---

١ سورة الاسراء. الآية: ١٦
٢ - سورة فصلت. الآيتان: ١٥ - ١٦
٣ - سورة محمد. الآية: ٣٨.
٤ - سورة طه الآية: ٨١.

اشعث اغبر يمد يده الى السماء: يارب! يارب! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام فأنى يستجاب له. وقال جل من قائل **﴿ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور﴾**[1].

لقد مرت بالعالم الاسلامي قرون من الانحطاط والتخلف والضياع وكلما امتد به الزمن ازداد ايغالا في الجهل والجهالة، وكان طوال هذه الفترة يحاول ان يصحو فقامت في كافة انحاء البلاد الاسلامية حركات اصلاحية تدعو الى العودة الى الدين وعلومه واللغة العربية والى الجهاد في سبيل الله للانعتاق والتحرر واعادة البناء الاسلامي ولكن هذه الحركات سرعان ما تلقى مقاومة عنيفة وجابهتها القوى المعادية بمكرها وطرقها وقاومتها بألوان من المقاومة فخططت لها واجهضتها واتخذت لذلك سبيلين اثنين كلما اوغلت في احدهما واعياها السير فيها تحولت الى الثانية فكان سبيلها الأول ان تستعمل القوة والكبت والاضطهاد وكانت سبيلها الثانية ان تراوغ وتصنع من الحق باطلا وذلك مثلا باقامة المدارس على منهج معين مدروس وضعته خصيصا لغسل الأدمغة ووفرت له كل ما لديها من المغريات من ناحية وبارسال الارساليات الى الغرب للانصراف بشبابنا الى حياة الغرب ولهو الغرب والى فكر الغرب وبحوث الغرب التي صاغها لنا المستشرقون باشراف الكنيسة والاستعمار العالمي وافلحت بكلا المسلكين في خلق شباب يزداد عدده يوما بعد يوم قد حرم الثقافة الاسلامية ونفر منها واشرب روح الغرب وهام بها فتبناها وراح يدافع عنها ويمكنها في النفوس ويتبنى محاربة المدرسة الاسلامية بطريقة او بأخرى رغما عن كل هذا المجهود وكل هذه الدسائس كانت هذه الحركات تلقى من الشعوب الاسلامية حرارة وتعلقا وحماسا وتعاطفا والتحاما فتخطو خطوات عملاقة في العمل الاسلامي حتى اذا قاربت اجتياز العوائق والموانع واصبحت قاب قوسين من الفوز بدينها

---

١ سورة الحج. الآية: ٣٨

وبالعودة الى الحكم في ظل التشريع الاسلامي والفكر الاسلامي واعتماد الكتاب والسنة وادرك الاعداء ان الأمر أخذ يفلت من أيديهم، تحركت يد البغي والاستكبار تضرب ضربتها متوارية خلف الكثير من الستائر والاتراس وراء العديد من الاباطيل والترهات معتمدة في ذلك على مخطط خطير وعجيب، قوامه زرع عدم الثقة بالنفس وزرع الخوف في المسلمين بعضهم من بعض، وتمكين التفرقة والبغضاء من قلوب الاشقاء وتشكيك البعض بالبعض واشعال نار الفتنة فيما بينهم مع مواصلة العمل التربوي التثقيفي الهدام القائم على افراغ القلوب والعقول من ادراك مفاهيم الاسلام وتعاليمه لتقف به عند المظاهر والظواهر تخليطا وتشويها وتجهيلا.

وما ان استقام عود الحركات التحريرية حتى غاب عن اذهان الكثير من الشباب الذي قدر له ان يتعلم في المدارس العلمانية التي اقامها الاستعمار مكرا وخديعة مفهوم الاسلام الصحيح ورسالته في الحياة، وقد اشتبه الأمر لديهم بين دين الكنيسة ودين المسجد والمعهد والسياسة والقضاء ولم يبق المفهوم الصحيح قائما مع شيء من الغبش والضباب، الا في عقول طائفة ضيقة من الشباب كتب لها الاحتكاك بالدين في المعاهد الدينية تساعدها المطالعات الاسلامية والاتصالات باصحاب الحركات الاسلامية الاصلاحية فانتصبت قوى الاستكبار والحقد لمقاومة هذه الفئة الأخيرة من الشباب بالكيد والدس والاستنقاص بالباطل والرمي بالجمود والنقائص واقامة الحواجز في وجهها واظهارها في مظهر من الحرمان وفي وضع اجتماعي لا يرغب فيه الكثير من الناس، وباشعال نار الحقد والبغضاء والفتنة بين هذه الطائفة الأخيرة وبقية افراد الأمة من المجتمع الاسلامي.

ولقد ساعد على انجاح هذه الحملة الماكرة ماكان من بعض العلماء المحمولين على الدين من مواقف شائنة، يندى لها الجبين، وذلك بمخالفة افعالهم لأقوالهم وتسفيه جوارحهم لألسنتهم، كما تقلد البعض منهم مناصب قضائية فلم تحمد فيها سيرته، فعرف فيها بالظلم والارتشاء وسوء

السلوك وانزوى البعض الآخر عن المجتمع وانشغل عن الناس بخويصة نفسه وترفع عنهم فلا يعنية من امرهم شيء اللهم الا ان يرى في حياة مترفة وبذخ مادي ومتاع وانحراف، وان يخرج على قومه في زينته ويطلع بفاخر المركب ورفيع الملبس وشامخ القصر وشهي المأكل فأصبح العلماء جميعهم في نظر الناس وبما فعل السفهاء منهم رمية المغامز المغرضه، ولاكت الألسن اعراض الجميع ما صلح منهم وما فسد وزحزح علماء الدين عن مراكز التقدم والاقتداء ولم يبق لهم احترام ولا تأثير على العامة ولا على الخاصة، ولم تحفظ لهم هيبة ولا وقار يتندر بهم القوم ويتفكهون وتتلهى بهم المجالس ويتغامزون.

اما غير العلماء من المثقفين المتغربين من غير المثقفين فقد جمع بينهم الجهل بالدين وطبيعته وماهيته خصوصاً وفيهم من تغربت عقولهم وتغبشت رؤيتهم واختلطت عليهم الافهام وساعدهم على تنقصهم للدين ما تسرب اليهم من الغرب من فصل الدين عن الدولة وعن واقع الحياة حتى رأوا فيه معوقا يعوق الأمة عن التقدم والانطلاق فاغرتهم الدوائر الاستعمارية والصليبيون عموما ومن لف لفهم بالدين واهله فاخذوا يحاربون النشء الذي تربى التربية الدينية ونهل من حياض العلوم الاسلامية وهو يخطو نحو استلام مشعل الهداية والعودة الى الدين وفرض تعاليمه على المجتمع والدولة وتغيير المنكر والعودة بالمسلمين الى حياة الصالحين والمخلصين، وهم يعتقدون انهم يحسنون صنعا بانفسهم وبالناس جميعا حاربوه وحاربوا مؤسساته العلمية ومعاهده التربوية واخذوا يقطعون الأمة اشلاء ويمزقونها اربا، ويقضون على اللباب ويبقون على المظاهر كل ذلك لنزداد ابتعادا عن ديننا واخلاقنا وليفصل حاضرنا عن ماضينا ونكون به من الجاهلين فيستريح الأعداء من صحوة الاسلام والمسلمين.

ومن اجل ذلك وجب تكريس الجهود لاعادة وصل ما انفصم. كما وجبت العودة الى الاسلام لفهم حقيقته والتفقه فيه واحياء علومه والتعرف

الى ماهيته واهدافه والى الساحة التي يعمل فيها والى المجال الذي يرتبط به ويؤثر فيه حتى لا يبقى في اذهاننا ولا يستبد بها الاعتقاد والاقتناع بكونه دينا لا يتجاوز اعتاب المساجد مقصورا عليها ولا يتعداها في وهم بأنه دين طقوس وعبادات بعيدا كل البعد عن واقع الحياة ومرافقها من المعاملات والتشريعات والحكم والتنظيم والدعوة اليه والجهاد في سبيل حفظه وانتشاره وسيادته وبسط سلطانه ونشر نوره على العالمين وسياسة مجتمعه وتنفيذ أحكامه وتمكين هدايته من الغلو، وحتى يسود العدل والأمن والرخاء ويفك اسر المستضعفين ويتحرر الناس من الأهواء والنزوات ويرتاح البشر من التحكم والقهر والعبودية والاستغلال ، وحتى تتخلص العقول والمدارك والارادات من التبعية المقيتة والاعجاب بالغير.

هذه هي الحالة التي عليها المسلمون منذ ابتلائهم ومحنتهم. وهذه هي حالة اعدائهم معهم انه صراع مستمر واقتناص دائب، وعداء لا يفتر، وحقد وبغضاء قال تعالى: ﴿**قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر**﴾[1] وقال سبحانه: ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾[2] فكان واجبا على الطليعة المسلمة ومن ضمنها العلماء الذين هم ورثة الانبياء، ومن ضمنها ايضا الحكام الذين هم الأمناء على هذه الأمة ان يتشاوروا ويتعاونوا فيجمعون امرهم ويبذلون جهدهم ويجتهدون في رأيهم ويتدبرون احوالهم ويخططون انشطتهم واعمالهم ويتابعون تخطيطهم فيتحركون وينفذون ما اجمعوا عليه وقرروه واقروه ويجتنبون الهوامش ويلتزمون بما يعملون، ويقوّمون سلوكهم ويستقيمون في حياتهم حتى يحصلوا على ثقة الله ورضاه ويسترجعوا ثقة الناس فيهم فتعود الأمانة اليهم وتنفذ كلمتهم ويطاع أمرهم ونهيهم وتنساق الأمة وراءهم متماسكين متضامنين يسيرون سيرهم وينتهجون منهجهم، وذلك لأن الناس على دين ملوكهم ولأن الناس تبع لعلمائهم وحكامهم.

---

١ - سورة آل عمران. الآية: ١١٨

٢ - سورة البقرة. الآية: ١٢٠

قال ﷺ : صنفان من امتي اذا اصلحوا صلح الناس واذا فسدوا فسد الناس: الأمراء والفقهاء[1]

ولعله من المفيد جدا ومن الضروري الحتمي ان يرجعوا الحياة لتجمعات المسلمين وان يتخذوها مناسبات لمعالجة شئون المسلمين والنصح لهم في دينهم ودنياهم فيشركونهم ويبادلونهم الرأي ويقدمون الحلول لقضاياهم ويتناصحون فيما بينهم عملا بما أوجبته اشارة الرسول عليه السلام التي وردت في قوله ﷺ: الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وكان واجبا ايضا ان يقوموا حراسا على الدين وحرمته وكتابه وسنته فيذكرون بالقرآن والسنة يحرضون أنفسهم ويحرضون الناس معهم على حفظهما والعمل بهما والذب عليهما، وان لا يبخلوا على الناس بما عندهم من معرفة وسداد رأي وان يعيشوا مع احداث قومهم واحداث العالم. ومن الواجب ايضا ان لا يقتصروا على تلك التجمعات الدينية فحسب وان كانت هي عامة لجميع طبقات الناس بل يضيفون الى ذلك عقد المؤتمرات والندوات واقامة الملتقيات للاستفادة من الخبرات وللتعاون والتواصي بالحق والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتنظيم الجهاد في سبيل الله وتربية المسلمين على ما فيه خير الفرد والجماعة. ومهما يكن من الامر فان هناك قضايا رئيسية بين يدي الدعوة الاسلامية والعمل لاعلاء كلمة الله لا بد من حل معضلاتها، وامور اساسية هي من الأمهات في التحرك الاسلامي لرفع شأن المسلمين ولابد من التعجيل بها نذكر منها مايلي:

أولا: يلزم البدء اولا بالذات بتخليص برامج تعليمنا من الوصاية والتوجيه الخارجي ومن التبعية والاعتماد على توجيهات الغير وتجاربه والاتكال عليها وتقبل ما يقدم الينا منه على انه الحق لا ريب فيه ولا محيد عنه، وبجعل تعليمنا تعليما اسلاميا موجهامرتبطا ارتباطا وثيقا بالاسلام روحا ومادة ولحما ودما.

---

١ ابن عبدالبر وأبو نعيم من حديث ابن عباس.

ثانيا: كما يتحتم علينا الإعتناء بلغة القرآن اعتناء يجعلها العمود الفقري في حياتنا بجميع شعبها ومرافقها مع اضعاف شأن اللغات الأجنبية والاعتزاز بها والتباهي باتقانها الا بقدر الحاجة الماسة لها، ومع محاربة التباهي باهمال اللغة العربية والافتخار بجهلها وتجاهلها في المجالات العلمية والفكرية والادارية وشئون الحياة كما هو الحال عند بعض الخاصة وبعض الأوساط التي تشعر بالمكانة الخاصة بموجب ما حباها الله به من مال وجاه وتفتح ذلك لأن اللغة العربية تمثل شخصيتنا وتمثل القناة الوحيدة لبلوغ القرآن الينا وفهمه والتعرف الى معانيه ومقاصده وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب، مع العلم بان اللغة العربية ليست حكرا على احد ولا ملكا لقوم معينين، وانما هي لغة الأمة الاسلامية سواء كانت الأمة العربية أو غيرها من الأمم.

ثالثا: كما يجب على كل مسلم التفقه في الدين وحفظ القرآن ومدارسته واتقان معرفة السنة والسيرة، واستيعاب ذلك في جميع مراحل التعليم بكافة شعبه ابتداء من المرحلة الأولى الى آخر مرحلة من المراحل العليا للتعليم جنبا الى جنب مع مواد التخصص لكل شعبة من مختلف شعب المعرفة لا تستثني شعبة من الشعب، ما دمنا لا نحفظ القرآن ولا نفهمه وما دمنا نجهل الكتاب والسنة والسيرة ومادمنا لا نعلم من ديننا الا القليل من العبادات مع ما في ذلك من التجوز، وما دمنا نعتمد على الغير حتى في معرفة ذاتنا وتاريخنا وتربية ابنائنا وابلاغ المعرفة لشبابنا، وما دمنا ندعو الناس ونحثهم ونحث حتى المربين منهم على اقتفاء أثر الغير ونتبنى مناهجه وطرقه وآراءه، وما دمنا نحارب انفسنا بمحاربة ديننا ولغته عن وعي وعن غير وعي، ما دمنا نفعل ذلك فانه لا يكتب لنا الفوز والفلاح بل ولا نعد من الأحياء ولا يرجى لنا خير ولا نصر ولا ينتظر منا هدى ولا رقي ولا يقام لنا اي اعتبار

رابعا: كما تلزم العناية بالثقافة والمعرفة والعلم على منهج اسلامي بعيد عن التفسخ والتميع والانحراف. وذلك بتحريض النشء والزامه على الاقبال

على كافة فروع المعرفة والتخصص فيها علاوة على التشبع بالعلوم الاسلامية خصوصا منها الكتاب والسنة، مع ملاحظة الالحاح المتزايد على العناية بأمرين اثنين لا يقبل بحال الجهل بهما وتجاهل شأنهما وهما: جغرافية جميع البلاد الاسلامية، وثانيها العالم الاسلامي بجميع مراحله ابتداء من الجاهلية واستمراره مع ركب الحياة.

أما بالنسبة لجغرافية البلاد الاسلامية فلكي يتعرف المسلمون الى بلادهم وطاقاتهم وامكانياتها وثرواتها فنمسك الأمور بأيدينا ويقع التكامل بيننا ونستغل خيراتنا بأنفسنا فيرجع جميع مردودها للأمة الاسلامية كافة لا لغيرها من الناس، ولتبقى الطاقة البشرية المسلمة تعمل حرة لا مملوكة، وسيدة مصونة الكرامة والذات، مهابة غير مهانة ولا كسيرة الجناح

وليس المقام بالذي يسمح بتعداد مكاسب المسلمين من معرفتهم لجغرافية بلدانهم الطبيعية والبشرية والاقتصادية وما لها من امكانيات وخيرات.

وأما بالنسبة للتركيز على تاريخ المسلمين ووجوب الوقوف على المحاسن والعورات والهزات والانتكاسات والتقلبات، فذلك لأن التاريخ في الحقيقة سجل الأمة والمجتمع، ففيه من الأحداث ماحدث فيما بين المسلمين أنفسهم. وفيه ايضا مما هو من الأحداث التي تكشف عن معاملة المسلمين لغيرهم وغير المسلمين للمسلمين وما في ذلك من تسلط وقهر وابادة. وذلك حتى يقف المسلمون على الحبيب والعدو وعلى ما كان منهم مع انفسهم او مع الأخرين وعلى ماكان من أعدائهم ازاءهم من حروب وتنكيل وتقتيل ووحشية وتحرش بالمسلمين واذكاء لنار الفتنة بينهم وفي كل ذلك كشف عما في النفوس عموما من قيم واخلاق ومبادىء. فيتعرف الأبناء الى ماكان يصدر من آبائهم المسلمين من قبل من كريم الفعال وحسن المعاملة وما يتمتعون به من انسانية وعلو نفس واستقامة سلوك بوحي من مبادئهم واخلاقهم واسلامهم. وكيف زالت نعمتهم لما مالت بهم اهواؤهم

وانصرفوا الى دنياهم. ويوازنون بين ذلك وما لغير المسلمين من تصرف وتحكم ومن مواقف تعبر عادة عن الجانب الأخلاقي والحضري والانساني في اصحابها كما يقفون على العداوة الدفينة من الكفار والنصارى واليهود التى يكنونها الى المسلمين التي عبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾[1].

ثم تتضح لهم الأسباب التي آلت بالمسلمين الى ماوصلوا اليه من ذل وصغار وذلك لاستخلاص العبر التاريخية من جهة وللتمكن من اتخاذ طريقة للاصلاح تتجنب هفوات الآباء والأجداد فينقذون حاضرهم على ضوء احداث ماضيهم من جهة اخرى.

هذا ولا ننسى ان ننبه الى حتمية مراجعة كل ما كتب عن المسلمين واعادة النظر والتأمل فيه ونقده وابعاد طابع الاستشراق عنه وتمييز الغث فيه من السمين ثم اعادة التأليف من جديد بروح نزيهة يحدوها تقصي الحقائق وتمييز الزائف من الجيد وفضح التشويه المتعمد المدروس في الكتب التي اعدتها الأقلام الرخيصة المريضة، المتعلقة بالعداء للاسلام والمسلمين، والمدفوعة بدافع صليبي مليء حقدا وعمى، وكذلك ابراز غش اعدائنا لنا وغش المؤلفين والمؤرخين المتحاملين منا بدافع سياسي او ظرف خسيس كما هو الحال في الحديث عن الفرقة الاسلامية من طرف بعض المتعصبين وفي التحدث عن بعض الأحداث السياسية والاجتماعية من طرف المأجورين والمتحزبين والطائفين، علماً بأن المؤرخين صنفان: صنف يكتب للتاريخ. وصنف يكتب للأهواء والقصور وفرق بين هذا وذاك.

فتأتي البحوث الجديدة الأمينة المخلصة للحق لتكشف عن عورات المغالطين غير النزهاء والخائنين للأمانة العلمية مهما كانت نزعتهم وانتسابهم. نكرس جهودنا هذه للانتاج الرفيع الذي يكلفنا من المجهود والمراجعة والتنقية الشيء الكثير اذا ما اردنا بحق المعالجة الجدية واستئصال الداء، واذا ما عزمنا على انتخاب الأصلح وعلى صنع جيل مسلم ومؤمن

---

١ ـ سورة آل عمران. الآية: ١١٨

مستقيم بعيد عن مناطق النفوذ وغير متأثر بنزعة من النزعات ولا بعامل زيغ وانحراف.

خامسا: ومن الواجب ايضا الحرص على تنشئة نشء مؤمن عالم بدينه عارف به معرفة صحيحة تتجاوز الشكل والمظهر الى المضمون والمقصد حيث يتمكن من روح الاسلام ويلتحم به وتجري اخلاقه ومبادئه وفروضه في دمه وعلى جوارحه فيحيا بها ويتحمس لها ويدعو اليها ويتجند في جند الله حاملا النور والهداية الى الناس، مقتديا بالرسول ﷺ وبالرعيل الأول من الصحابة رضوان الله عليهم. وبذلك ينسلخ المجتمع كله بجميع فئاته وطبقاته بما يحييه ويساعده على ادراك ذاته والتحمس لكيانه فيصبح قادرا على العطاء، وغير مفتقر لمن يرشده ولا عالة على احد يهديه سواء السبيل ولا محتاج في تحركه لمن يمده بالمعرفة ويزوده بها علما بان فاقد الشيء لا يعطيه وان الضال لا يهدي السبيل.

ولعل الجهل بما ذكرنا مع التصور الخاطىء لمفهوم الدين الاسلامي هو الذي حدا بالبعض من ابناء امتنا الى الوقوف وقفة مخجلة في دعوته للناس الى قصر الدين على المساجد لا يتجاوز اعتابها الى ما سواها، ولا يتعدى الطقوس التي تقام فيها الى المرافق الاخرى للحياة سياسة وادارة وتوجيها واحتكاما.

ولولا جهله بأمر دينه وكتابه ما تجرأ هذا التجرؤ، وما صدر منه مثل هذا القول وهذه الدعوة. والآيات كثيرة تكشف عن هوية الدين الاسلامي ورسالته في الحياة. وحياة الرسول نفسها خير شاهد على ان هذا الدين دين الفرد والمجتمع والدولة ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[1].

أفهلا يكون بعد هذا التصور وهذا المنطق وهذا الادعاء ان نبدأ معالجة القضايا الاسلامية من هنا حتى نقترب من الجدوى والنجاعة في خدمة الامة الاسلامية؟

---

١ سورة المائدة. الآية: ٤٤.

وهذه واحدة من عديد القضايا تقوم دليلا على وجوب التفكير في تهيئة الأفراد واعدادهم للعودة الى الاسلام قبل كل شيء حتى لا نقع في الخطأ ولا نخبط خبط العشواء، ونحن نحسب اننا نحسن صنعا عندما نتجاهل العناية بتكوين الفرد الصالح وننصرف واهمين الى تكوين المجتمع الصالح. والمجتمع الصالح لا يقوم على أفراد ينقصهم الصلاح. وما دمنا لا نعود الى الاصلاح الجذري ولا نقتدي بسنة الرسول ﷺ في دعوته وما دمنا نتغافل على الداء وعلاج العضو الفاسد ما دام المريض مريضا وما دمنا نحن في اماكننا لا نفعل شيئا ولا نجني ثمارا ﴿**والعاقبة للمتقين**﴾[1].

سادسا: كما يجب التحول بالدعوة الى الاسلام من المنابر والاقوال والقرارات الى ميادين العمل والورع ومرافق الحياة والافعال. وذلك باحياء سنة الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله وبدفع الناس الى سبيل الحق ونصرته وتمكينه في الأرض وبمقاومة الباطل وردع الطغيان وباكتساح البيوت وتوعية من فيها واصلاحه وبالاتصال بالمستضعفين وتعليمهم دينهم والدفاع عنهم وصيانة حقوقهم واموالهم وبمساعدتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودفعهم الى التسابق على فعل الخير فيؤلفون فيما بينهم مجتمعا تقيا نقيا قنوعا حسن الاخلاق فاضلا

وكذلك بندب العلماء العاملين التقاة النزهاء الذين عرفوا في ماضيهم بأهلية الامامة والتصدر والجهاد والقيادة والتوجيه والارشاد من الذين يخافون الله ولا يعصون والذين لا يعبدون اهواءهم ومطامعهم ولا ينساقون وراء شهواتهم ونزواتهم ولا يعرف عنهم زيغ ولا انحراف ولا يخشون الا الله. فاذا انتدب لهذا العمل غير هؤلاء فذلك اقوى الحجج واكبر الادلة على فساد القيادة وعدم الجدية في خدمة الاسلام والمسلمين.

من اجل ذلك كان لزاما على حملة هذه الرسالة ان يكونوا ممن يعملون بما يقولون ويطبقونه في جميع احوالهم بالتلبس والسلوك ولا يكونون ممن عنوا بهذا الاستفهام الانكاري التوبيخي الوارد في قوله تعالى: ﴿**أتأمرون الناس**

---

١ ـ سورة القصص. الآية: ٨٣.

بالبر وتنسون انفسكم﴾[1] وان يجاهدوا لسيادة شرع الله مع محاربة الانحراف والفساد في الأرض ومع الايمان بالله وبالعمل الصالح والاحتكام الى الله ورسوله وتجنب الموبقات وبالسعي وراء مرضاة الله ومقاومة البغي والفسوق والظلم والطغيان والعدوان وبالوقوف بجانب الحق والثقة في الله والاخلاص له والتعلق به

سابعا: ومن الواجب ايضا احياء وتنشيط رسالة المساجد قال تعالى: **﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾**[2]. وقال سبحانه: **﴿وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾**[3]

ذلك ان للمسجد في الاسلام دورا هاما. ففيه تقام الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصلاة العيدين، وقد اتخذه النبي ﷺ مقرا لتعليم الصحابة دينهم والفصل في قضاياهم والاجتماع بالوافدين عليه، ولتبليغ الرسالة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما كان يلقيه عليه الصلاة والسلام من تشريع وتقرير أو انكار من على المنبر المبني في مسجده في العديد من المناسبات اذا ما جدّ جديد، فتعمير المسجد مما اكد عليه النبي ﷺ.

ونحن اذا ما القينا نظرة خاطفة راجعنا فيها تاريخ المسلمين وجدنا انهم قد اتخذوا المسجد للفصل في الاقضية وفتوى الناس، وللوعظ والارشاد، وللتعليم بمختلف شعبه

ولعله من المفيد الاّ ننسى ما للزيتونة والقرويين والأزهر من فضل على استمرار احكام الصلة بين الاسلام والمسلمين من جهة، ومن فضل المحافظة على العلوم الشرعية وما يتصل بها من الفنون المختلفة من جهة اخرى.

---

١ سورة البقرة. الآية: ٤٤.

٢- سورة البقرة. الآية: ١١٣

٣- سورة الجن. الآية: ١٨

كما ساهمت في الابقاء على شعلة الايمان قوية تزكيها حركة نشيطة نابعة من التفرغ الكامل لخدمة العلم المخصص فيه والبحث في مجالاته، ومن الحرية المطلقة في سير التعليم منهجا وطريقة والقاء وتطويرا. ولعلي اذكر ولا انسى تلك المحاولة المتكررة من ممثلي الحكومة الفرنسية ايام حمايتها لتونس لايجاد منفذ للاشراف على مجرى الحياة العلمية داخل جامع الزيتونة من قريب أو من بعيد ولو بالحضور والمشاهدة مں خلال كوة يضعونها تطل على التحرك والنشاط داخله فابى رجالها رغم الكثير من الاغراء ورفضت النظارة العلمية هذا المقترح وثارت ثائرة العلماء والطلبة حتى اضطرت الحكومة الفرنسية الى سحب اقتراحها على لسان مقيمها العام[1]. وما ذلك الا لما اضفت تلك الحصانة وتلك الحرية على التعليم الزيتوني من هيبة ومناعة وقوة اكتسبها مں ابتعاده عن الوصاية الخارجية والتدخل الاجنبي والتبعية الثقافية

ولعل هذا المعنى ندركه في المؤسسات القائمة اليوم خلفاً عن مؤسسات الأمس أو امتداد لها، رغم ان العلوم هي العلوم الا ان الروح غير الروح والمنهج غير المنهج والهدف غير الهدف.

واذا ما تعلل البعض في ابعاد التعليم عن المساجد بتحريض النبي ﷺ المسلمين على ان يجنبوا مساجدهم صبيانهم فلعله لما قد غاب عنه مما للفظة الصبيان من معنى، اذ لم يقل عليه السلام مثلا جنبوا مساجدكم حلقات دروسكم أو طلابها. فالظاهر انه قد بات اكيدا ـ للمناعة والجدوى ـ ان نعيد للمساجد سالف مجدها ونجعلها مقرا لتنظيم تعليم اسلامي مستقل بجميع مراحله قائم على اساس ينتهي بطلبته الى التخصص بالتعمق في العلوم الاسلامية ودراستها دراسة معمقة وهادفة على منهج يمكن الدارسين من بلوغ درجة عالية من العلم تؤهل صاحبها الى مرتبة الاجتهاد او تقاربه لا ان يتحلى بالالقاب والانتساب ـ بحيث انها تتحول الى ميدان تبحر ينتهي بصاحبه الى ان يكون مسلما متفهما علما وسلوكا وهمة.

---

١ ـ وهو الممثل للحكومة التونسية في عهد الحماية.

اما بالنسبة لحلقات الوعظ والارشاد والخطب المنبرية فواجب ان يترشح لها من قدمه علمه وتقواه وخوفه من الله وسلوكه وماضيه ونزاهته وشدته في الله وسعة تفكيره والقدرة على التفاعل مع الحياة غير هياب ولا وجل ولا متساهل في دينه ولا خاضع في علمه الا الى ما فرضه عليه ربه من معالجة قضايا المسلمين ومناقشة شئونهم واحوالهم للاصلاح ولمحاربة السعي في الارض فسادا، وبذلك تعطى للتجمعات الاسلامية مكانتها ويرد لها الاعتبار ويعيش المؤمنون اخوة في رخاء واستقامة وحرية وامن خاضعين لله وحده لا شريك له هيابين له فقط، خاشعين له دون سواه في مأمن من الطمع والشره.

هذا وان اصواتا ارتفعت تدعو الى قصر الدين على المساجد لا يتخطى اعتابها منقطعا عن الحياة ومنفصلا عن شئون المسلمين وعلاقتهم بالمشاكل اليومية داخل البلاد وخارجها. ولعلي لا اجدني مضطراً لبذل أدنى جهد للتدليل على بطلان هذا المدعى المتهافت تلقيا، وعلى خطأ الالتفات اليه واعارته ادنى اهتمام.

ونحن اذا ما حاولنا الاقتناع بسلامة نوايا هذه الاصوات وسلامة مبعثها والدوافع اليها فلا نستطيع الا ان نقتنع بان مرد هذا الباطل الى خلو عقول اصحابه من المعرفة بالاسلام وخلو قلوبهم من الايمان به والخشية من الله تبعا للجهل بالدين الاسلامي ومضمونه

هذا وما للعلماء والامراء من منزلة في الأمة، حتى ان النبي ﷺ ذكرهم فذكر ان صلاح الامة الاسلامية بصلاحهم وان فسادها بفسادهم، لذا كانت مسئوليتهم عظيمة ووزرهم أعظم.

اما العلماء فعليهم امانة التبليغ، وعليهم مسئولية الحرص على الدين وحماية المجتمع من الآفات لأنهم الصفوة والطليعة. فبهم يرتفع شأن الدين وتنشط الدعوة اليه وتسعد الأمة، وبهم أيضاً تسوء الأمة ويشقى المجتمع وتتعفن الأوضاع وعلى قدر صلاحهم تصلح الأفراد تبعا لهم لأنهم القدوة حماة الشريعة ورمز مبادئها واخلاقها لما لهم من واسع الاطلاع والتخصص واهلية التقوى والخوف من الله.

ومن هنا القي على عاتقهم احياء الدين والتلبس به عملا وسلوكا، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما وجب عليهم ان ينصحوا لله ولرسوله وللأئمة المسلمين وعامتهم. فلا يزينون للحكام ولا لغيرهم ما يفكرون بالقيام به او قاموا به مما هو مناف للدين وعليهم أن يقولوا كلمة الحق ولا يخشون فيها لومة لائم.

يقول الله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[1] ويقول سبحانه: ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾[2] كما يقول الرسول ﷺ: العلم علمان: علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم في القلب فذلك العلم النافع[3] ويقول عليه الصلاة والسلام: أوحى الله سبحانه وتعالى الى بعض الانبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العلم، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، وقلوبهم كقلوب الذئاب، السنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، ايّاي يخدعون وبيّ يستهزئون؟ لأفتحن لهم فتنة تذر الحليم حيران[4]، ويقول كذلك: مررت ليلة اسري بي باقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من انتم؟ فقالوا: كنا نأمر بالخير ولا نأتيه، وننهى عن الشر ونأتيه[5]. ويقول: هلاك امتي عالم فاجر وعابد جاهل. وشر الشرار العلماء، وخير الخيار خيار العلماء[6].

واما الحكام الذين هم رعاة الأمة وحماتها والمدبرون لشؤونها والحارسون لأمنها واخلاقها ومجتمعها، والساهرون على حماها ومصيرها والذين يتولون امرها وبأيديهم عزها ورخاؤها فرسالتهم شاقة وموقعهم من

---

١ - سورة الزمر الآية ٩.
٢ - سورة فاطر الآية ٢٨
٣ - الترمذي في النوادر وابن عبدالبر والخطيب في التاريخ.
٤ - ابن عبد البر
٥ ابن حبان.
٦ الدارمي.

الأمة صعب وخطير.

فهم حراس الشريعة والمنفذون لحكم الله والقائمون عليه وعلى رعاية المجتمع، فكل ما يجري في البلاد خاضع لهم ومن انعكاساتهم. فهم مسؤولون على حفظ القرآن وضياعه، وهم المسؤولون على التهاون بالدين وصيانته فوجب عليهم التفقه في الدين وفرض التفقه ايضا على الرعية. وعليهم اخضاع جميع الدواليب الاجتماعية للعمل بشرع الله من محاكم ومؤسسات اقتصادية ومعرفية وتربوية، والاخذ بالاسلام في كافة مرافق الحياة لا الأخذ بالبعض وترك البعض حسب الظروف والأحوال وعليهم الاعتماد على الاسلام والابتعاد عن التقليد للاجانب في خلق وبعث المؤسسات الادارية وغير الادارية، وعدم الخضوع الى توجيه غير الاسلام من اعدائه سواء كانوا كفارا او منافقين، وعدم اتخاذهم اولياء فيتخذون بطانتهم من خيار العلماء قال تعالى: **﴿يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾**[1]. وقال سبحانه: **﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة. فان العزة لله جميعا﴾**[2]. وقال ايضا: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾**[3].

وعليهم ايضا ان لا يلفقوا بين الواقع المزري والحضارة الزائفة، من جهة والإسلام وتشريعه بدعوى التسامح أو التقارب أو بدعوي مسايرة الواقع من جهة اخرى.

وعلى الحكام أيضاً فرض العلوم الاسلامية وجعل تعلمها اجبارياً على جميع الناس وفي مراتب التعليم كلها. وعليهم ان يحتكموا الى الله ورسوله في شأنهم وشأن غيرهم، وان يتخذوه مرجعهم ويعتمدوا في ارشادهم ومشورتهم على العلماء النزهاء الذين عرفوا بتاريخهم الطويل الناصع بالاستقامة والتقوى والصلاح والبعد عن حب الذات والجاه

---

١ سورة الممتحنة الآية ١

٢- سورة النساء الآية ١٣٩

٣- سورة التوبة الآية ٨١.

والحرص على المصالح الخاصة من اصحاب الذمم الرخيصة، وعلى العلماء الذين هم من اصحاب الهمم الاسلامية الذين تنزهت نفوسهم وارتقت اخلاقهم واعتصموا بالله وحبه وآمنوا به وبالبعث وعملوا بايمانهم واستقاموا واتخذوا من الرسول قدوتهم وابتعدوا عن النفاق، ونصحوا لله وللرسول ولعامة المؤمنين وخاصتهم ولا يخافون في الله لومة لائم، وليسوا من الذين يقولون ما لايفعلون وعلى الحكام ايضا ألا يجعلوا التحرك الاسلامي حكرا على البعض دون البعض، فالدعوة الى الله للجميع ومن الجميع فلا يمنعوا اهل الذكر من الدعوة الى الله والأمر والنهي حتى لا تضيع، وان لا يربطوا التحرك الاسلامي في فلك معين وبعجلة طائفة او دائرة غير دائرة المتفقهين في الدين والعاملين به و المخلصين له غير المتأثرين بالعوامل الاجتماعية أو السياسية او المصلحية وان ينتخبوا الى القيام بالامانة العلمية والتعليمية والتربوية والتثقيفية والتوجيهية العلماء الذين يصلحون الى ذلك وقد عرفوا بعلمهم ونزاهتهم واخلاقهم وماضيهم وبعدهم عن عبادة الهوى غير متهاونين ولا مفرطين فيما طالبهم به الله سبحانه وتعالى من واجبات نحو انفسهم ومجتمعهم وخالقهم سبحانه.

كما يجب عليهم خصوصا وعلى كافة المسلمين عموما الاعتقاد الفعلي الاقتناعي لا القولي الاخباري النظري بان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لا لغيرهم من البشر مهما كانت قوته ومنزلته ومهما كانت عظمته وجبروته. وذلك لا يتم الا بفهم معنى وحدانية الله وان لا شريك له سبحانه فهما قلبيا روحيا، وبفهم معنى عبوديته وعبادته وبخشيته والاخلاص له والامتثال اليه وتنفيذ احكامه واوامره واجتناب نواهيه والابتعاد عن معاصيه وأنّه لا ولاء الاّ اليه ولا اعتماد الاّ عليه ولا افتقار الاّ له سبحانه وتعالى. فهو وحده المعز دون سواه. وهو وحده القاهر المذل دون غيره عز وجل. وما الانسان وما الراعي لأمر من امور المسلمين او لخليّة او بنية من خلايا المجتمع الاسلامي الاّ أداة تنفيذ لمشيئته وارادته وقضائه وحكمه، وما هو أيضاً الاّ طريق لنشر دينه وبسط سلطانه فوجب الاخلاص لله والخشوع له والرهبة منه والشعور بالمسئولية امامه وحده. فهو الذي سيجازيه ان هو احسن، وهو الذي

سيحاسبه ان هو فرط، وذلك ابتداء من مسئولية عش الزوجية وانتهاء بمسئولية الحكم ورعاية المصالح الاسلامية حتى تكون سياسته واحكامه وتصرفاته في الشئون كلها على وفق ذلك الفهم والاقتناع.

كما ان ذلك لا يتم الا بالاعتزاز بالاسلام والانتساب اليه والعمل من اجله حماية ودعوة وجهادا وتضحية، وبالايمان برسالته والتحمس لها اعتبارا بان الجاهل بدينه وان عديم التحمس له، وان المعطل لشعائره وفاقد الحرارة للاسلام عنصر في طي العدم غير صالح للقيادة ولا لغيرها كالتوجيه والدفاع والذود عن الحياض، كما انه عنصر غير مأمون ولا منتظر منه ان يؤدي له ابسط الواجبات فضلا عن اقتحام عظائم الامور الملقاة على عاتق كل مسلم وعلى كاهل أولي الامر منهم بالخصوص.

وتبعا لهذا وجبت محاكمة كل من تثبت عليه تهمة النفاق والغش والكذب في نصحه لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم الذين من بينهم الحكام متملقاً لهم ومغالطاً ومادحاً ولو لمن هو اهل للمدح منهم عملاً بالأمر الوارد ان احثوا التراب في وجوه المداحين، غير ان النكير يشتد اذا ما كان الممدوح متساهلا في دينه والقيام على شرع الله، مضيعا لمصالح المسلمين وحقوقهم واموالهم ودمائهم كيفما كان هذا التضييع وهذا التساهل. واشد منه اذا كان المادح من علماء المسلمين الذين يشرون بآيات الله ثمنا قليلا والذين نعتهم الله بقوله: ﴿**اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله**﴾[1]، والذين توعدهم المولى سبحانه بقوله: ﴿**ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم. اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار**﴾[2].

بقي شيء لا بد من التركيز عليه والعودة اليه هو ان من المصالح الاسلامية الواجبة رعايتها حق تمكين المسلمين من القيام بواجباتهم التي

١ - سورة التوبة. الآية: ٩.

٢ - سورة البقرة. الآية: ١٧٤ - ١٧٥

اناطها الله بهم من حماية المجتمع الاسلامي والدفاع على حوزة الاسلام ومن السير في منهج الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم اقتداء بهم وتأسياً، ومن النهج على منوالهم في تحملهم الأمانة وفي القيام بالدعوة الاسلامية وخدمتها والتضحية في سبيلها ومناصرة اصحابها في تواضع لله واستجابة لداعيه مع الأمر بالمعروف والتشجيع عليه والنهي عن المنكر والمساعدة على تغييره والانتهاء عنه، ومن التناصح لوجه الله تعالى وقبول النصيحة الصادقة غير ما دخل ولا ريبة، ومن محاربة النفاق والبعد عن المنافقين قال تعالى: **﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾**[1].

ثامناً: ومن الواجب كذلك تنشيط الحركات الاسلامية الخالصة لوجه الله تعالى والنصح لها ومساندتها ومحاربة أعدائها، مع العلم بان الحركات القائمة او الممكن قيامها منها ما هي حركات اسلامية ومنها ما هي حركات منسوبة الى الاسلام، كما ان هناك منظمات اسلامية وهناك منظمات منسوبة للاسلام. فالواجب اذن التمييز بينها ومقاومة الضغوط التي يمكن ان تتسلط عليها حتى لا تقحم في مدارات معينة تسخرها لخدمتها وتستفرغها من محتواها وتدسها دسا لتفرضها على الاسلام حملا ثقيلا ووباء قتالا كما يجب فضح كل التدخلات الاجنبية وفضح ربط النشاط الاسلامي بعجلة دولاب بعيد عن الاسلام في روحه ومبادئه وأهدافه

وليس عسيرا التعرف الى ما هو منسوب الى الاسلام ومحمول عليه من تلك الحركات والمنظمات، فمعيار ذلك سهل ويسير انه مرتبط بمدى التحامها بروح الاسلام ومبادئه وسيرها في خط الله مع التأكد من سلامة قادتها وأصحابها في دينهم، ومن نقاوة ماضيهم وحاضرهم، ومن مدى صلابتهم في الحق والعدل وتعلقهم بالله ورضاهم لرضاه وسخطهم لسخطه مع اشتهارهم بسلامة الاخلاق والسلوك، وبنظافة اليد ونزاهة المواقف ووضوح التحرك والأهداف، وبالبعد عن العيش في فلك الأنانية والاغراض الشخصية، سواء كانوا في الحكم او خارج الحكم لا يستغلون

---

١ ـ سورة الأنفال. الآية: ٢٤

الظروف ولا ينتهزون الفرص لخدمة مصالحهم، وليسوا ممن يعيشون لأنفسهم خاصة دون أمتهم ومجتمعاتهم، لم تعرف لهم عمالة لا للشرق ولا للغرب ولم يكونوا يوما من الأيام اعوانا لأعداء الاسلام والمجتمع على ابناء جلدتهم واخوانهم في الدين غير مقيمين وزنا لهذه الرابطة التي لا يعتمد سواها.

وليس خفيا ان الحركات الاسلامية في طبيعتها ونوعيتها ومجالاتها متعددة ومتنوعة فهي اما ان تكون تحريرية، وأما ان تكون قيادية تنظيمية تنفيذية بيدها السلطة ترعى المجتمع وتسوس شؤونه، واما ان تكون تربوية تثقيفية تكوينية تهدف الى التوعية والتعليم والتهذيب على منهج رباني اسلامي قانوني. ولكل منها أهداف ترسمها خطط ومناهج وتضعها لها أنشطة وقيادة وجهاز.

ولعلنا لا نخطىء القول حينما نلح على ان تبقى الحركات التحررية بعيدة عن الشوائب والمزالق والشبهات وان تكون نظيفة في قيادتها عقيدة وتدبيرا وسلوكا، اذ لا تعد حركة اسلامية من هذا النوع الا اذا كانت بعيدة عن التبعية باي معسكر ولا تدين بالولاء الى أحد لها ارتباط وثيق والتحام محكم ومتين بالاسلام من حيث التدبير والتحرك والاتجاه. وليست خاضعة ولا مرتبطة ولا متأثرة بأي نظام سياسي ولا بأية قوة خارجية أجنبية أو غير أجنبية، لا تدين ولا ترفع اي شعار الاّ ان تكون مسلمة عقيدة وفكرا وحماسا واندفاعا، مؤمنة بان لا اله الا الله محمد رسول الله لا ولاء الا لله، ولا حكم الا لله، ولا رأي الا للمسلمين واهل الذكر منهم وليس لها أي سبب ولا ارتباط بما يدين به الناس من القوميات والوطنيات الضيقة انطلاقا من أن البلاد اما ان تكون دار اسلام او دار كفر لا ثالث لهما.

فلزم اذن التحرر من كل الشعارات والتكتلات والانتماءات الى الروابط البشرية المصطنعة من القومية والجنسية والوطنية والدم. وبطل كذلك الانتماء إلى المعسكرات والقوى الأجنبية كيفما كانت عظمتها. ولزم أيضا

اعتماد المسلمين على أنفسهم وعلى الله والتقوية لروح الايمان ﴿**وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم**﴾[1]

وضروري ان نقيم ضمن التحرك والتنظيم في العالم الاسلامي المتحرر مؤسسات رقابة على غرار المجالس النيابية في الدول المستقلة لحماية الأمة الاسلامية من كل تشريع وضعي وتسلط أجنبي او تأثير خارجي او انحراف داخلي تستمد كيانها ووجودها من الشعب وتستند في انشطتها واعمالها الى القرآن والسنة وتراقب مجرى الحياة وتنظمها على مقتضى الشريعة الاسلامية تكون لها صلاحيات لا تقل عن صلاحيات المجالس النيابية ان لم تتجاوزها، مع التأكيد على وجوب تجنبها مراكز الضغط والخضوع في أعمالها من أية مؤسسة في البلاد أو خارجها، مباشرة أو من وراء حجاب عظم شأنها ام لا، وتبقى الكلمة الأخيرة لها ويصدر الفعل منها.

ونعود الى الحركات الاسلامية التربوية التثقيفية في البلاد الاسلامية لنشير الى حتمية تكوين مدارس ومعاهد علمية تنظم الحياة الفكرية في المجتمع الاسلامي وتعالج شعب التخصص في الميادين الدراسية المختلفة، تتشرب شرابا معمقا من العلوم الاسلامية يتولى أمرها أناس عرفوا بتقواهم واستقامتهم وبعدهم عن المطامع وحب الذات. كما عرفوا بثقافتهم المركزة ومعرفتهم واطلاعهم الواسع على الفكر الاسلامي ودقائقه وتشريعه وروحه وبعد نظره وتميز منهجه. كما وجب ان يكونوا متحررين من كل الميولات والتبعية فلا يستمدون توجيهاتهم الا ممن نبغ منهم بموجب تمكنهم واطلاعهم على دينهم قرآنا وسنة وسيرة وتفقهها وطمحوا دون تسلط ولا انتماء لأية جهة أو قوة او توجيه محلي او عالمي.

ومن المعلوم ان العمل الاسلامي عموما قائم على الدعوة الى الله وسيادة حكمه واعلاء كلمته واستخلافه في الارض لا على اساس تحرير الارض دون تحرير العقل والقلب والانسان. ومن هنا فلا اوطان بين

---

١ - سورة آل عمران: الآية ١٢٦

المسلمين وانما هو وطن واحد ولا جنسيات ولا قوميات ولا عروقا وانما هم مسلمون ووطنهم دار الاسلام ورابطتهم « الله أكبر ولله الحمد ». فوجب جمع كلمة المسلمين على الحق والعدل والنزاهة والمساواة وعلى خدمة الاسلام والمسلمين تحت راية واحدة وتنظيم واحد نحو هدف واحد فان الذي يربط بين المسلمين هو اقوى وامتن بكثير مما يربط بين الولايات المتحدة والجمهوريات المختلفة وقد تجمعها سلطة واحدة ومسيرة واحدة، وعلى هذا الأساس اصبحت مفروضة وحتمية اقامة الملتقيات والمؤتمرات والندوات في الوطن الاسلامي لمراجعة أحوال الأمة ولاتاحة الفرصة للقاء الطليعة الاسلامية واصحاب الهمم والقيادة حتى يقع النظر في شئون المسلمين وموقعهم من العالم والاحداث على اعتبار التناصح والتكامل لا على اعتبار الانتماء واملاء التوجيهات والفروض وتسليط الضغوط والهيمنة على العاملين والمسك بتلابيبهم واخضاعهم وفرض الوصاية عليهم وجبرهم على انتهاج منهجية التبعية والسير تحت الضغوط الاجنبية وحراب المعسكرات المعادية والقوى المتجبرة والمستكبرة والميل مع الهوى، فيتسنى بذلك وضع تخطيط تعاوني مشترك نتيجة ذلك التشاور والتحاور يشمل فيما شمل احياء التجمعات الاسلامية التي اقامها الاسلام مقرونة بالفروض والعبادات كتلك التي تقام ايام الجمعة والعيدين والحج عند اقامة الصلوات واداء المناسك

هذا وعلينا ان نستخلص العبرة من الماضي البعيد الذي استحضره القرآن الكريم فيما قصه علينا من قصص الأمم الغابرة وكذلك من الماضي القريب والحاضر المعاش مما اصاب التحرك الاسلامي والامة الاسلامية عند بداية صحوتها من تعثرات وتناقضات وصراعات بموجب المكائد التي وضعها الاستعمار العالمي والصليبية المعادية والصهيونية الماكرة من الخارج، وبموجب اختلاف الرؤيا الناشئة عن اختلاف العقليات المتولدة عن اختلاف درجات الجهل بالدين مع تخيل التفقه والتبحر فيه من الداخل.

فلقد قامت تجارب عديدة منها ما عشناه من خلال التاريخ. ومنها ما

عشناه ونعيشه ولعنا قد شاركنا في صنعه عن وعي او غير وعي، فقام الصراع فيما بيننا وانتعش التراشق بالكلام والتراشق بالنبال فسقطنا صرعى الهوى واستفاد الاعداء.

فهل يكفي ان ينقسم المسلمون على انفسهم يحارب بعضهم بعضا؟ ثم هل من مصلحة الاسلام والمسلمين هذه المجابهة وهذا العداء وهذا الاقتناع بتغرير المغرضين المستثمرين وبنصيحة الاعداء المخادعين الماكرين؟ اللهم ان هذا لبغي. وعلى الباغي تدور الدوائر لماذا لا نقول بشجاعة كلمة الحق ولو على انفسنا؟لماذانخشى في الله لومة اللائم؟ لماذ نرضي اعداءنا على حسابنا وقد جاهرونا بالعداء وكاشفونا بمساعدة الاعداء المغتصبين لبلادنا؟ لماذا لا نقول للمنحرف عن الاسلام: كف عن الغي او تنكب؟ لماذا هذه المجاملة للظلم والعدوان؟ لماذا هذا السكوت عن المنكر؟ قال صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس ان الله يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل ان تدعوا فلا أجيب لكم، وتسألوني فلا اعطيكم وتستنصروني فلا أنصركم»[1]. لماذا ندعي أننا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ثم نحيد عن منهجه وسبيله؟ لا اظن ان المستفيد من هذا التداعي والوهن والاستسلام إلى الهوى والشيطان غير اعدائنا الذين يجروننا جرّا الى الانشغال عنهم ولنتلهى ونترك لهم فرصة الاستغلال والغلبة والفوز بالمتاع وبالحياة في حين اننا نبدد طاقاتنا البشرية والفكرية والاقتصادية. فاذا كان هذا الذي انتهينا اليه لا يأتي بفائدة فلا أمن ولا استقرار ولا طمأنينة والكل في حذر وخوف:

ينام باحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

فلماذا اذا هذا العناد العنيف وهذا السقوط في هوى الشيطان وبين احضانه؟ نعم قد يكون لاعدائنا عذر فيما هم عليه لما لهم من فوز بالدنيا على الأقل فما بالنا نحن وعلينا تدور الدوائر؛ اذ لافوز لنا بالدنيا ولا فوز لنا في الآخرة؟ لماذا لا نتبنى النقد الذاتي ولا نصلح أمرنا ولا نعالج أدواءنا ولا

١ - ابن ماجة وابن حبان في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها.

نعود الى الاسلام الحقيقي وما فيه من تسامح ونكران للذات فيحيا بنا ونحيا به ونتخلى عن النصيحة المغشوشة وعن النصح المستورد والمأجور مم هم الاعداء الحقيقيون لنا واصل الداء الذي ينخر اجسادنا ويمزق شملنا شر ممزق؟ لماذا لا نفتح اعيننا على مصدر كتبنا؟ اين هي الاندلس؟ واين هي فلسطين؟ ثم ماذا فعل بالمسلمين عند محنتهم هنا وهناك؟ واي ذنب اقترف او اية جريمة ارتكب حتى يستحق هذه التصفية؟ اليس كل جرمه أنه يدعو الى توحيد الله ونشر العدل والمساواة والاخوة بين البشر وتحرير رقابهم؟ ام هم المسلمون؟ واذن فما بال الأطفال والنساء والرضع والكهول ومن كان بعيدا عن ميادين الصراع منهم يعذبون ويقتلون ويشردون ويخرجون من ديارهم ويسلبون أموالهم الا ان يتخلوا عن دينهم؟ لعل المشكل كامن هنا ضمن البحث عن ارباب هذه التصفية وأصحاب هذا المنكر وما انطووا عليه من حقد على الاسلام وضغينة وفساد. لعل هذا المشكل الحقيقي يستحقّ أن تقام من أجله الندوات والملتقيات والمؤتمرات من أجل ذلك نرى ان تفتح الابواب على مصراعيها ليشارك في هذه التجمعات كل ذي اهلية ممن هو من الطليعة الاسلامية والعارفين بالاسلام المخلصين له؛ اذ لا اقل من تقريب وجهات النظر والوقوف على مختلف الخبرات.

ولابد من الانصات الى صوت الله والرجوع الى ظله ومن الاقلاع عن الغش والانانية

نحن في حاجة الى الرأي والمشورة والتخطيط والتنظيم والصدق والمثابرة والى امتداد الرؤية المتكاملة. ونحن في حاجة الى الاقتناع بان الشرق والغرب من ألد أعدائنا وأشدهم بنا ترابطا وعلينا قسوة وشراسة. انهم يحقدون علينا وهم يشعرون بان المسلمين يمثلون خطرا عظيما عليهم وعلى اغتصابهم لثروات الشعوب وخيراتهم، وعلى استكبارهم على المستضعفين. وهم يعتقدون بان نهضة المسلمين لا تدع لهم قدرة على التحكم في الرقاب كما تجعل حداً لمجاوزاتهم والاستمرار في ابتزازهم لطاقات الدول الضعيفة البشرية منها والاقتصادية والاجتماعية. وهم اذ يشعرون

بذلك يدركون ان الخطر ليس في جماهير المسلمين وانما هو في العناصر النشيطة منهم والطليعة المتحركة التى تمثل قوة تخطط وتقود وتوجه وتعمل، وهي قادرة على الأخذ بيد جماهير المسلمين وتحريكهم. وذلك ما يفسر لنا الحملة العالمية الشرسة الموجهة ضد الطليعة الاسلامية في كل مكان بتلفيق التهم وغيرها ونحن كذلك في حاجة الى المزيد من الصراحة فيما بيننا والاخلاص لأنفسنا والتجرد من انانيتنا مبتعدين عن الريب والشبهات وهذا المسلك لا يسلكه الا من كان يريد لنفسه الخير بصدق ولأمته السيادة والقيادة والسؤدد.

فاذا وفرنا هذا الذي نحن في حاجة اليه كنا بحق قد خطونا من الخطوات في سعينا الى الحرية والانعتاق والعزة والفوز بالدنيا والآخرة ولا تصيبنا مخمصة ولا نكد، والا فنحن معنيون ـ ولاشك ـ بوعيد الخطاب الذي أورده القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**[1]

---

١ ـ سورة محمد. الآية: ٣٨

خطر اهمال تدريس العلوم الاسلامية في الكليات المتخصصة

الدكتور عبدالله الأوصيف*

أ - يمكن طرح الأسئلة التالية حول هذا الموضوع:
ماهي اهمية تعميم التدريس للعلوم الاسلامية في الكليات والمعاهد العليا؟
وهل ثمة خطر ناجم عن اهمال هذا الركن في البرامج التعليمية؟
ثم ما هي اهمية تعليم العلوم الحديثة في الكليات والمعاهد الاسلامية؟
وهل ثمة خطر ناجم عن غياب هذا اللون من المعرفة العلمية؟

تثير هذه الاسئلة قضية وحدة المعرفة في الكليات والمعاهد الجامعية، خلافا لما يجري عليه الحال اليوم، في كثير من المؤسسات الجامعية بالبلاد العربية والاسلامية، اذ ان تلك المؤسسات في جملتها تنقسم الى مجموعتين:

١ - المجموعة الاولى توصف بانها جامعات ومدارس عليا دينية، وقلما تتضمن برامجها علوما تجريبية متطورة.

٢ - والمجموعة الثانية توصف بانها جامعات ومعاهد عليا علمية تجريبية او مدنية، ونادرا ما تشتمل مقرراتها على معارف دينية اسلامية.

وهذا التقسيم للمؤسسات الجامعية العليا، يعكس ثنائية المعرفة العلمية السائدة في الغالب بالبلاد العربية والاسلامية، وتبعا لذلك فان تصنيف العلماء في هذه البلاد يمكن ان يرد الى فئتين:

١ - اولاهما ممكنة في المعارف الدينية والتشريعية الاسلامية: مقاصد، ووسائل، لكنها قلما يتوفر لأفرادها دراية دقيقة بالعلوم التجريبية المعاصرة التي تستخدم في هذا العصر على نطاق واسع.

٢ - وثانيتهما، يحذق أفرادها علوم العصر، ويجيدون تلك العلوم نظراً وتطبيقا. لكنهم بحكم التنشئة العلمية التي كثيرا ما تكون غربية، وغريبة على المجتمعات الاسلامية، تعوزهم المعرفة بظروف تلك

---

* عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين.

المجتمعات وخصائصها الحقيقية فيدخلون اليها ما ليس منها، ويحملونها او يحملون انفسهم على الاغتراب المؤدي الى الاضرار

وكلتا الفئتين، من ابناء الجامعات والمعاهد العليا في هذه البلاد الاسلامية تعجزان، بطريق أو بآخر عن خدمة هذا المجتمع، الذي له وجود متميز وعمر محسوس كما ان للشخص الواحد من اشخاص المكونات، عمرا محسوسا[1] اذ تتطلب حياته نموا افقيا ورأسيا، فلا غناء له على ماضيه ولا زهد منه في حاضره.

واذا فان ازدواجية المعرفة العلمية، تمثل بالنسبة لحياة المجتمع، مشكلة تتطلب علاجا حاسما، من اجل سلامة وحدته، وأمنه، إذ أن علما بلا دين ودينا بلا علم، كلاهما خطر على استقراره واستمرار نموه، فكيف يكون العلاج؟

ب - الخطوة الأولى في علاج هذه المشكلة الخطرة، تتصل في دراسة اسبابها، لأنه متى عرفت تلك العلل، امكن اقتراح الحلول المناسبة لها، وبالتالي يمكن التوفيق الى ضبط خطة عملية صالحة لأن تكون مشروع تنفيذ عمل يطبق ميدانيا في حقول التربية والتعليم المتقدمة، وتلك الاسباب بدون شك هي وليدة تراكمات لتفاعلات سلبية في المجتمعات الاسلامية، طيلة قرون مضت، ظل فيها الأمر يجري لغير صالح المجتمع الاسلامي، الذي مزقته الخلافات المذهبية، والنزاعات والاهواء الشخصية والسياسية، والتأويلات السوفسطائية لنصوص الوحي في غير احتكام جدي لتوجيهاتها وتربيتها ونظمها

وكنتيجة لذلك سهل استعمارهم، ، وهو ما حصل بالفعل حيث خضعت البلاد الاسلامية للغرب، الذي حكم في شكل سيد قوي، ومظهر قوته وحدة مجتمعاته، وارتفاع حظوظها من المعارف التجريبية في مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية.

إن ازدهار تلك العلوم في البلاد الغربية في العصور الحديثة، تم بفضل

---

١ - مقدمة ابن خلدون ص: ٦٦٢

تحرر الفكر عن سيطرة الكنيسة، التي ظلت تعتمد المنطق الارسطي في حججها واستدلالاتها، وهو منطق في الغالب عقيم لا ينتج معارف ايجابية وأقيسته لا تضيف جديدا الا نادرا، كما انها ـ اعني الكنيسة ـ تعسفت في معاملة رجالات الفكر الحر، وتتبعت من نقد منهم منطق ارسطو الى حد الاعدام، ولو كانت الحجة مستندة الى الادراك الحسي[1] الأمر الذي ولد صراعا بين انصار المعارف العلمية القائمة على الملاحظات، وعلى اصطناع الملاحظة (التجربة) وبين أنصار المعرفة الكنسية (رجال الدين المسيحيين)، هذا الصراع تطور الى عداء مستفحل، حيث لم يمكن التوفيق بين النمطين من المعرفة، لاختلاف المنهج والموضوع غالبا.

فبرز في الغرب انفصال بين معرفة دينية، ومعرفة علمية، تجريبية، وهذه الأخيرة كانت عاملا اساسيا في قوة وازدهار التطور المادي، الذي أحرزه الغرب في العصور الحديثة وبه ساد العالم، بصفة عامة، والعالم الاسلامى بصفة خاصة، حيث جلس العديد من ابنائه يتتلمذون في جامعات الغرب على أساتذة العلوم التجريبية من العلماء الوضعيين الذين يعادون بحكم النشأة والمنهج رجال الدين ويفترضون شيئية الظواهر المدروسة، حتى لو كانت وحيا منزلا

جـ ـ وانه لأمر يبدو معقولا بحكم منطق الاستعمار أن نرى اليوم في بلادنا انتقال التجارب الأجنبية (الأوروبية اساسا) الى البيئة الاسلامية، التي خضعت طويلا الى تلك المؤثرات، وخضع على الأخص بعض أبنائها كتلاميذ، الى نظام مدرسي وجامعي، يرجع في اصوله وروحه وفرضياته الى بيئات ومجتمعات مغايرة. لكن علينا ان نعترف بان ذلك سبب من أسباب التخلف وان نقرر ان رفض ظاهرة الاستعمار يحتم بالضرورة رفض مخلفاته، وخصوصياته، وبالتالي يحتم علينا التقدم ايجابيا لمعالجة آثاره في النظم التعليمية الجامعية، بالسعي الى ادماج المعارف المتقدمة في جامعاتنا في

---

١ . أنظر أسس الفلسفة. الدكتور توفيق الطويل أو المنطق الوضعي. الدكتور زكي نجيب محمود.

بوتقة واحدة، اعني في ذهنية اجتماعية موحدة، من حيث الاطار، وليس من حيث المحتوى او التفاصيل، التي يمكن ان تتعدد بتعدد الظواهر المراد دراستها وبحسب طبائعها وموضوعاتها، بيد ان سياستنا يجب ان تنبثق من مشكلة واحدة، طالما ان اصل المعضلة الازدواجية ليس افرازاً من افرازات مجتمعنا بل هي من خارج بيئتنا، ولا تتناسب مع طبيعة هذا المجتمع من حيث الأساس، التاريخ، وتطورات المجتمعات، وحتى دراسات التربية النفسية الحديثة، كل ذلك يشهد بأن التفكير في مسائل الدين والاخلاق مما يشغل بال الشباب بحكم الفطرة[1]

وهذا يبرز اهمية العامل الديني في المجتمع الاسلامي وهو العامل الذي حفظ على الأمة العربية لغتها بحسب رأي ابن خلدون حيث يقول في مقدمته، معللا فساد اللغة العربية: فلما ملك التتر والمغول بالمشرق. فسدت اللغة العربية على الاطلاق: وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والشام الاندلس والمغرب لبقاء الدين طالبا لها فانحفظت بعض الشيء[2]

وأهمية اللغة العربية بالنسبة للعلم، وللتعليم، كبيرة جدا، فهي رمز المعنى، ودالته، وحبل التواصل الاجتماعي بين الأفراد، والاجيال، ومكانتها في المعقول والمنقول، غير خفيّة بالرغم من الدعاوى العريضة التى يرفعها ممثلو الاستشراق في جامعات البلاد العربية، تحسبا من أسلمة العلوم، بالتعلل بالدفاع عن المستوى أو أي حجة واهية أخرى.

انني هنا لا اميل الى تبسيط القضية او التقليل من الصعوبات التي قد تعترض توحيد المعرفة، تلك العملية التي يجب ان لا تقضي على الكثرة في الكم والنوع، في شجرة المعرفة من حيث تعدد المستويات وطرق البحث، فمجالات المعرفة ذات ضفاف لا ساحل لها، ولكن التخلص من عبء الازدواجية، أو الثنائية التي هي ثمرة الصراع في البيئات الغربية، امر مفيد لأنه يتيح للمجتمع المسلم خصائص التوافق والتكامل البنوي، فينطلق بكل قواه في تلبية حاجياته المادية والمعنوية وهذا لا يتحقق الا بتعميم التعليم

---

١ في علم النفس ـ د. سعد جلال ص: ٢٧٥

٢ المقدمة ص: ٦٧٢

الاسلامي في الكليات والمعاهد العليا، يقول الشيخ محمد الحضر حسين: لا يكفي في تعليم الدين ان يكون له جامعة كالأزهر وما يتصل به من المعاهد، فان قصره على الأزهر والمعاهد الدينية يجعل تربيته العالية في طائفة من الناس خاصة، والخير في ان تكون روح الدين سارية في نفوس الأمة قاطبة[1].

وينتج عن تعميم التعليم الديني التقارب والاتلاف بين العواطف والتصورات، وعموما يحقق مزيدا من الاتحاد الذي هو دعامة التقدم والرقي بالنسبة للمجتمع، ويصحب التعليم الديني غرس الفضيلة في النفس، وحب الخير، ونكران الذات، التي هي من معان هامة بالنسبة لتدعيم الشخصية، وقيادتها الى حسن التعايش مع الآخرين، والتعاون معهم على اسس من المبادىء التي تنير الضمير، وتكسبه قدرة على محاسبة النفس، وممارسة النقد الذاتي.

وهي خصال قلما نجدها اليوم، بل اننا عندما نطالع الأحداث والصحف نرى كثيرا من الزيغ والانحراف الناشيء عن فساد في العقيدة وتهافت في التفكير، وعن ضعف في العواطف يليها فيض من الاعلانات عن كثير من المغريات المرذولة التي تصدر عن نفس ينقصها الايمان باسم الحرية، وهي في واقع الأمر عيوب تنخر جسم المجتمع وتفتت وحدته، وتعبر عن عدم المسئولية، وضعف الشعور بشرف وكرامة الانسان.

على أن علم الاجتماع الذي هو من ابرز العلوم الانسانية التجريبية اليوم، يعتبر النظام الديني من اهم النظم الاجتماعية واخطرها شأنا في مبلغ ما يؤديه من وظائف في حياة الفرد والمجتمع[2] ويقرر انه من اعمقها غورا في النفوس، واكثرها امتزاجا بالمشاعر وقد وضعه دوركايم، في قمة النظم الاجتماعية وانتهى في دراسته الى عده من اول الاشكال الاجتماعية بالنسبة لمختلف النشاط الاجتماعي[3] وهو يبرز في شكل مجموعة مترابطة من

---

١ الدعوة الى الاصلاح للامام الأكبر محمد الخضر حسين ص: ٧٧
٢ - علم الاجتماع ومدارسه مصطفى الخشاب - ص: ٣٥٠
٣ - المرجع السابق.

الاصول والفروع، تكون اتجاها موحدا لكل من يعتنقها من الأفراد، فتكون القاسم المشترك بينهم الذي يشدهم الى بعضهم على ارضية واحدة وحول منبر واحد، فيحقق ذلك النظام الديني وحدة الترابط الاجتماعي، والتوافق بين التشكيلات والشرائح الاجتماعية في المجتمع الكلي.

وينشأ عن هذا الترابط والوفاق الاجتماعي يسر وسهولة تبادل المشاعر، والخدمات واتحاد المصالح، والدوافع والحاجيات وبالتالي وحدة الأهداف والمصير، وينبثق عن ذلك كله ظهور مصطلحات وقواعد ومعايير للعمل، وردود افعال للمشاعر، متجانسة متضامنة، وهو ما قصد اليه الدين الاسلامي في العديد من الآيات والاحاديث وما جسمه سلوك الرسول ﷺ وصحابته.

ولا شك ان للنظام الديني تأثيراً بالغ الأهمية في بقية الأنظمة الاجتماعية الأخرى، كالنظام السياسي والتشريعي والاقتصادي والتعليمي

وعلى هذا الاعتبار فتعميم تعليم الدين ضرورة حيوية، لكن يجب ان يعطى حظه في التدريس بما يحقق وظيفته فيما يدعم وحدة المجتمع، ويوجهه الى تكامل الغايات والأنشطة والتصورات خلافا لما يجري عليه الحال اليوم من اعطائه حظوظا منقوصة بين الناشئين في العديد من المؤسسات التعليمية الأمر الذي يحدث عكس المراد.

ان انفصام المؤسسات الجامعية الى دينية ومدنية تكرار سخيف، واجترار لما عليه الأمر في اوروبا والعالم المسيحي حين انفصل لديهم الدين عن الدنيا، وكان ذلك بالنسبة لهم ضرورة، حيث لا يمكن التوفيق بين مطالب كتبهم المقدسة التي تنافس الفكر وبين العلم الذي يقوم على حرية التفكير والتأمل والخيال المنتج، فلسان حال كتبهم تلك يخاطب الانسان بقوله (آمن ثم فكر) ولسان حال علمائهم يقول: (فكر ثم آمن).

ولما كانت مثل هذه الاشكالية غير واردة في المجتمع المسلم، لأن الدين الاسلامي يحث الانسان على التأمل والتفكير، ويدعوه الى الأخذ بالمعرفة العلمية، ويقرر علماؤه ان لا تناقض بين صحيح المنقول، وصريح

المعقول، فان الازدواجية تبدو امرا مجافيا للطبائع لا مبرر لوجوده في المجتمعات الاسلامية، التي تعتنق دينا شموليا، المعرفة فيه فريضة على كل مسلم، سواء كان عالماً طبيعياً أو طبيباً أو رياضياً، أو فلكياً، أو تاجراً، أو جنديا، وتوجهاته الى الناس كافة، وخطاب الشرع يشمل كل المكلفين من ابناء الأمة الاسلامية، لكن القدر الواجب هو ما تصح به العبادة ويرتفع معه الجهل باسس الدين، وهذا هو المطلوب من تعميم التعليم الديني، وهو المحقق للأهداف المشار اليها سابقا.

واما التخصص في الفروع العالية من المعرفة الدينية، وفي الأصول المعمقة، فانه من سمات اهل العلم، المتخصصين الذين يظلون دائما يمثلون قمة الهرم، وفي هذا المضمار شبه اصحاب الرسول ﷺ في حظوظهم من المعرفة، بالإخاذ (الغدير) منه ما يسقى الرجل، ومنه ما يسقى الرجلين، ومنه ما لو ورد عليه اهل الأرض جميعا لكفاهم[1] وهو تشبيه يشير الى الفروق الفردية التي لها دخل في تفاوت المستويات العلمية وتحديد الميولات والقدرات، ومن هنا يبقى اكثر الناس علما اكثرهم مسؤولية في ايصال المعرفة الى الآخرين وهنا يكمن دور الجامعات الاسلامية كقلاع متقدمة في مجالات التحقيق والاستكشاف والتحصيل والمعرفة

فالجامعات الاسلامية ليست سوى مجموع المدرسين والطلاب، يجتمعون في مكان مخصوص لاعطاء العلم، وتلقينه في الفروع العليا من المعرفة[1] فيمارسون بنظام، وظائف التعليم والتعلم، في جو رسم القرآن الكريم ملامحه وحددت الأحاديث النبوية صورته بكثير من البيان والتفصيل، فنهى القرآن الكريم عن اتباع الهوى، والتسرع في الأحكام، وحث على التثبت من حقائق الأشياء وان الحق أحق ان يتبع، وسلكت السنة نفس السبيل قولاً وتطبيقاً، بكثير من الرفق والمرونة.

---

١ قال مسروق: جالست اصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالاخاذ (الغدير) فالاخاذ يروي الرجل، والأخاذ يروي الرجلين، والاخاذ يروي العشرة. الاخاذ لو نزل به أهل الارض لاصدرهم. أنظر التفسير والمفسرون. شيخ محمد الذهبي. الطبعة الأولى. القاهرة. ص: ٣٦

د ـ ها هنا تكمن المفارقة الكبرى بين علاقة الدين الاسلامي بالعلم الحديث وبين علاقة الدين الغربي (المسيحي) بالعلم الحديث.

وهنا نلتقي بالشطر الثاني لهذا الموضوع، وهو اثر تعميم العلوم الحديثة في الكليات والمعاهد الاسلامية العليا

ان المعرفة العلمية التجريبية، رؤية واعية للظواهر الطبيعية وادراك للعلاقات التي تربط تلك الظواهر والقوانين التي تنظمها، بحيث تصبح المعرفة المنظمة للظواهر الطبيعية مفتاحا في يد الانسان به يتحكم في مغاليق اسرار الطبيعة وزماما به يقود مقاليد امورها، طوع حاجياته ورغائبه. وسبيل الوصول الى تلك المعرفة هو الملاحظة المضبوطة اي الاصغاء الى الظواهر الطبيعية مع الاستعانة بما يتيح مراقبة تلك الظواهر، ومتابعة احوالها وخصائصها، وكذلك اصطناع التجارب لتفسير ما يراد تفسيره من اجل الوصول الى قوانين ونظريات، كثيرا ما يقع التعبير عنها بالارقام والرموز الرياضية المجردة، وتُضبط معطياتها احصائيا بنسب محددة.

ونظرا لوفرة الأنشطة المعرفية فقد نما رصيد المعارف وبلغ درجة كبرى، اصبح معها البحث العلمي لا ينطلق في الغالب من الظواهر مباشرة بل من فروض مرتبطة ببعض النظريات الراجعة اساسا اليها، والتي وقع تحقيقها، على امتداد ازمنة متباعدة، فمن عهد فرنسيس بيكون الى جون استيوارت مل، الى كاود برناز الى جورج فاموف، تغيرت جذريا معطيات البحث العلمي، وتطورت تطبيقاته، وعمت جوانب متعددة من الحياة اليومية في شتى النواحي ملبية عديد الحاجيات.وجريا على طريقة العلماء التجريبيين، سعى اصحاب العلوم الانسانية الى ترويض الظواهر النفسية والاجتماعية، السلوكية، وبذلك اصبحت العلوم الانسانية تنهج نهج العلوم الطبيعية، فقرر اصحابها شيئية الظواهر الانسانية، واعتبارها قابلة للتفسير وراحوا يرتبون لها خطط الدراسة، ويصممون المناهج، من اجل

---

١ ـ محمد عبد الرحيم غنيمة تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى. دار الطباعة المغربية ص: ١٣

الوصول الى القوانين الاجتماعية بالنسبة للفرد، وللجماعة، وبالنسبة للاقتصاد، وللتشريع، وما الى ذلك من ظواهر الانشطة السلوكية والنظم الاجتماعية، وزعم بعضهم ان في ذلك بديلا للدين، وغنى عنه، وبشروا بالدين الوضعي الجديد (الوضعية المنطقية، والمادية الجدلية) حيث حل العلم محل الدين، وحسبوا ان الألفاظ المتصلة في اللغة الالوهية، هي صكوك فارغة من غير ارصدة، لأنهم لا يجدون لها محكات عملية في دوائر الادراك الحسي، وفي الخبرات اليومية. ؟

ونشأت مذهبية على تخوم العلم، من غير ان تكون مسألة من مسائله، ولا موضوعا من موضوعاته وكان لهذه الشبهات اثر كبير في نفوس العديد من الناشئة، الذين نبتوا في البيئات العلمية الوضعية ذات الصلات السيئة بالدين تقليديا، كما اسلفنا بالنسبة لأوروبا، والبلاد الماركسية واسقط هؤلاء تجاربهم على علاقة الدين الاسلامي بالعلم، كما لو أن الحال هو نفس الحال من غير تمحيص، ولا دراسة لأصول الدين الاسلامي وعلاقتها بالعلم؟

وبرزت نزعات شكية في جدوى المعرفة الدينية، وعلاقتها بالعلم، وجردت تبعا لذلك عدة جامعات في البلاد العربية، من البرامج الدينية، وخلص فيها التدريس الى العلم الحديث بشتى فروعه، واختصاصاته محاكاة للغرب، وتأثيراً به.

من غير ان يقع كبير التفات الى المؤسسات الدينية، بتقديم المعارف العلمية الحديثة اليها وبتنمية قدرات وخبرات اطاراتها وطلابها، بالرغم من ان طلب العلم فريضة على كل مسلم

هـ - وقد آن الأوان ان تراجع تلك المواقف، بان يقع الاقدام على تزويد المؤسسات الدينية بالمعارف العلمية الحديثة، والقدر الضروري منها على الأقل، لأنه اذا كان من الصعب اليوم دفع المتخصصين في فروع المعرفة الى كل اتجاه، فانه من الأكيد الالمام بالقواعد والمناهج، والنتائج الاساسية للعلوم التجريبية بفرعيها (الطبيعي والانساني)، لا سيما ان القرآن الكريم، يشجع على ذلك، وان ضرورات الحياة تدعو الى ذلك ايضا، فالعالم اليوم

يقف على ابواب تقنيات انسانية، وتصنيع للعلوم الانسانية بما يصارع العلوم التجريبية الاخرى تقريبا، ومواكبة تلك التطورات من المتخصصين في المعارف الدينية، تحتم عليهم الالمام بأسس تلك العلوم التي يجري تطبيقها على نطاق واسع في مجاري الحياة اليومية، لكي لا تبقى لغزا مبهما بالنسبة اليهم، فالمعرفة بأسس علم الاقتصاد، والتشريع، ومقادير من الرياضة الطبيعية، ونحوها مما تتجدد نتائجه من حين لآخر، ويكون لها تدخل في صميم الحياة العلمية، كله من الأكيد على المتخصص في الدين ان يلم به، وقد كان اسلافنا زمن ازدهار الحضارة الاسلامية يمارسون ذلك بكفاءة عالية من غير ان يروا تناقضا بين العلم والدين فاستوعبت اذهانهم تجارب الأمم القديمة ولخصوها ونقدوها واضافوا اليها ابتكارات نظرية وتطبيقية ولا تزال كتب التاريخ العلمي تزخر بذكر اسماء من تألق منهم في تلك العلوم مثل ابن رشد، والرازي، وابن النفيس، وابن خلدون، وجابر ابن حيان، وغيرهم ممن حققوا مستويات متقدمة في مجالات البحث العلمي. بالجمع بين فروع المعرفة الدينية والعلوم المتصلة بالظواهر الطبيعية والسلوكية (العلم بالأنفس، وبالآفاق).

ان افتقار المؤسسات الجامعية الدينية اليوم الى المعرفة العلمية الحديثة، يعني افتقار الفكر الديني الاسلامي المعاصر الى تلك الأنماط من المعارف، وهو امر على غاية من الخطورة بالنسبة للمجتمع الذي اصبح التقدم العلمي التجريبي ركنا من اركان حياته لا تستقيم الا به، والجهل بهذا الركن وقوع في القصور والعجز عن المسايرة فضلا عن الابداع والابتكار، بل هو مدعاة الى كثير من عيوب الجهل التي تصيب الأنفس، كالادعاء، أو الشعور بالنقص، وهي مركبات مرضية لا يقتصر أثرها على أصحابها بل يتجاوزهم الى الآخرين، ومن تلك العيوب أيضا القصور عن الحجة والبرهان في الدفاع عن قضايا الدين الصحيحة واللجوء الى اللجاج والجدل العقيم وما يتصل به من التعصب، والتحجر، وليس ظهور الفرق الخطرة في حاضر وتاريخ الأمة الاسلامية الا تعبيرا عن هذا الخواء الفكري، الذي سرعان ما ينعكس على المواقف فيبعثرها، وعلى الصفوف

الموحدة فيشتتها، ويغرق المجتمع في آفات استنزاف الجهود والطاقات، بما ينتج عنه من صراع وصدام تضحي فيه الغاية في الفوز والغلبة، لا لإثبات الحق وتركيز المصلحة، وفي هذا ضرر على الانسانية جمعاء - والفرق بين هذا اللون من الخلاف، وبين خلافات اهل الرأي العلمي، كبير جدا، فالاول عقيم، مدمر والثاني ايجابي منتج، ولا يذهب للود والألف قضية، لأنه يقوم على اختلاف التصورات والفروض في تحقيق القضايا والمسائل، مع الرغبة الصادقة والعامة من طرف الجميع في بلوغ الحقيقة

وهذه الرغبة المشتركة توحد الأهداف مهما تعددت اليها الطرق، وتجعل النتائج ملزمة للجميع، كما يبدو ذلك جليا في عمل كبار أئمة الاجتهاد من الفقهاء، فلا أثر للتعصب في أعمالهم، بقدر ما يلاحظ لديهم من حب للوصول الى الحقيقة، والتخلص من العيوب المعرفية، الى رعاية العلم بما يلزم من النزاهة والتجرد في أدب نفسي سام، فالواحد منهم على رأيه مالم يثبت له خلافه، فاذا ما ثبت ذلك فهو مع الرأي المخالف ان هذا النوع من الاختلاف يثري العمل العلمي، ولا يقتدر عليه الا محنك في بحر العلوم، دراكٌ لخبايا الأمور، وهي صفات تتطلب الالمام بالوان المعرفة العلمية في اتجاهاتها الأساسية، فضلا عن دائرة الاختصاص المتميز

وهكذا نشطت همم السابقين الى معرفة تراث الانسانية من الحضارات القديمة كاليونانية، والهندية، من غير ان يزهد اهل العلم في السعي الى الحقيقة التي ندب القرآن الكريم اليها، ﴿**وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾[1]، والحق هو ما تشهد به الفطرة السليمة، وتطمئن اليه النفوس القويمة، ولذلك أثره في تزكية المعرفة الانسانية وتطييب اهدافها.

و - فما يشهده العالم اليوم من نتائج التقدم العلمي ليس خيرا كله، بل ان ويلات الدمار والتخريب بواسطة آليات ووسائل المعرفة العلمية بارز للعيان، وطغيان الانسان على اخيه الانسان في هذا العصر المتمدن، لم

---

١ سورة الأعراف. الآية: ١٨١

يتناقص بل تطورت اشكاله، وتعقدت مظاهره، واضحت عمليات التقتيل جماعية، مما يبعث الفزع والذعر في نفوس العقلاء من المفكرين، فضلا عمن يصطلون بنار القنابل المحرقة، والغازات المخنقة، فدب الاغتراب الى النفوس، بسبب التطور العلمي غير المتوازن، واللا مسئول[1].

ان ترشيد ذلك يتوقف على نجاح الدعاة الى الحق، والى الفضيلةمن اهل المعرفة الدينية التي يجب ان تعززها المعرفة العلمية، من جهة كون الداعية مطالباً بمخاطبة الناس، سيما أهل هذا العصر بما يتناسب مع الحقائق العامة، والمعارف العلمية الراهنة، فقد تتجه دعوته لأهل المعارف العلمية في الطبيعة، وفي الفلك وفي الطب وفي القانون، والاجتماع والتاريخ.

ولا يكون خطابه وحواره مجديا ما لم يكن مؤسسا على رؤية علمية نيرة، فكثير من القضايا والشبه التي تتقدم باسم العلم، تدمغها الحجة متى وقعت في يد من يحسن نقدها، والعكس صحيح ايضا وخطر من توهم صحة فاسد مما يظن انه من النتائج العلمية، على تأويل النصوص وتوجيهها الى غير وجهتها فادح جدا، فقد يعارض بها بعض الآيات أو الاحاديث النبوية، ويتناولها على ضوئها.

وآفة بعض رجال الدين لا تكون دائما من عدم تفقههم فيه، والمامهم بما اتصل به، بل من عدم قدرتهم على سلامة عرضه، وعلى توجيه معانية بحسب الحاجيات والمطالب اليومية، ومن غير خروج على دلالاته الاصلية ذلك بأن العلاقة بين الحقائق الدينية والحقائق العلمية علاقة متحركة ـ لأن حقائق الدين ثابتة، ودلالاته قطعية، وحقائق المعرفة العلمية نسبية متطورة، ورد النسبي الى الثابت، هو من باب ادراج الجزئي في الكلي، او الخصوص في العموم، مع ان مجالات الدلالة النصية رحبة موحية، واشارتها الى الحقائق العلمية ملهمة، للعقول بالرغم من ان تلك النصوص الدينية

---

١ ـ أنظر بحوث في الدراسات القرآنية والاجتماعية. الدكتور عبد الله الاوصيف. مطبعة فنون الرسم: تونس ١٩٧٩م. ص. ١٤٠

ليس من اهدافها ان تكون مراجع حول الحقائق العلمية التجريبية بل تسعى الى الارشاد العام، والتوجيه والهداية للانسان، لكن من غير ان تجيب على كل الاسئلة التي تخامر بال الانسان لتترك مجالات الاجتهاد، وايراد مناط التكليف، لينشط الفكر، ويضرب في الظواهر الكونية، وفي النصوص الشرعية بسهمه، حتى ان بعض كبار العلماء قال: (فان بدا لك ان في قسم العبادات ما لم يصل العقل الى حكمته الخاصة وهو ما يقول فيه بعض العلماء: هذا الأمر تعبدي قلنا معنى هذا ان في الشريعة احكاما قد تخفى على العقل حكمتها المعنية، كما انه لا يستطيع انكارها، انكارا يستند الى وجه معقول)[1].

هكذا ينفسح امام العقل بحسب المعرفة الاسلامية ـ المجال ليمارس وظيفة التأمل والتدبر، بما يساعد على تخطيط ارض العلم واعداد مناخه، فلزم اذا ان يكون في الجامعات والمعاهد العليا الاسلامية، حضور للمعارف العلمية الحديثة، بحسب الدين نفسه، **﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾** وبحسب حاجة المجتمع، بل والانسانية المهددة بالانتحار الجماعي، بصفة جدية في هذه الأيام.

ز ـ ومن خلال ما تقدم يتضح ان تعميم التدريس الديني بما يفي بالحاجة في المدارس العليا والجامعات الحديثة، مكمل للرسالة العلمية، ومتمم للأهداف الاجتماعية من التعليم نفسه، وكذلك ادخال المعارف العلمية المعاصرة الى الجامعات والمدارس العليا الدينية، محقق للأهداف الدينية، ومنسجم مع الأهداف العلمية

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾[2]، فقد جمعت الآية بين العلم، والهداية، وهما مطلبان اساسيان للحضارة الانسانية، فعلم بلا هداية يجعل الناس يتعايشون من غير اخلاق ولا قيم، ودين من غير علم، شعور بدون رؤيا، وكلاهما يمكن ان يتحول

---

١ الدعوة الى الاصلاح. محمد الخضر حسين. ص. ٦٨

٢ سورة الحج. الآية: ٨.

الى طاقة مدمرة هدامة ينعدم معها الأمن، ولا تستقيم لها الحياة الاجتماعية

فلزم اذا التوازن، والاعتدال، بان يكون للعالم ضمير، وان يكون للمدنية قيم واعراف الى جانب المصانع والمعامل.

ان تحقيق ذلك يستوجب الاقدام على أسلمة المعارف، والعلوم الحديثة، وهو يتطلب جهدا منظما متواصلا لاستيعاب ما وقع التوصل اليه من مختلف مجالات البحث العلمي وميادين التجربة ومراكز التخزين والتوثيق لتلك النظريات والقوانين[1] وهذا النوع من النشاط يمكن تنفيذه بالتخطيط له، واعداد المدارس والمدرسين والبرامج، والكتب، والأجهزة المناسبة، وهو دور كل القوى الحية في المجتمع، سيما المؤسسات الجامعية ومراكز البحث العلمي التي هي مظهر التقدم، ومنارات الحضارة في كل عصر، وهي رائد المدنية في عصرنا الراهن.

يبقى اذن القول بأن التعليم الجامعي يحتاج دائما الى التربية والتربية يمكن ان تكون متخصصة في العلوم الاسلامية أعني علوم الدين، ويمكن ان تكون في العلوم الحديثة، لكن من غير ان يُذهب التعميمُ معنى التخصص ويبطل مغزاه، ولا ان يطمس التخصص بصيرة الباحث او العالم، كل ذلك ينبغي ان يتم في جو من المرونة، والحرية والصبر والأناة مع الجد والمثابرة، فالعلم يخدم الايمان الحق، والدين الحق وينير طريق العلم.

---

١ ـ أسلمة المعارف العلمية الحديثة. للسيد م أ قاضي الباكستاني. مجلة الفكر الاسلامي المعاصر

المراجـــــــع

١ ـ أسلمة المعارف العلمية الحديثة. السيد م. أ. قاضي. الفكر الاسلامي المعاصر

٢ ـ أسس الفلسفة. توفيق الطويل. دار الفكر: القاهرة.

٣ ـ بحوث في الدراسات القرآنية والاجتماعية. د. عبدالله الأوصيف. مطبعة فنون الرسم: تونس. ١٩٧٩م.

٤ ـ تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى. محمد عبدالرحيم غنيمة. دار الطباعة المغربية: الرباط.

٥ ـ الدعوة الى الاصلاح. محمد الخضر حسين. مطبعة الحلبي: القاهرة.

٦ ـ في علم النفس. د. سعد جلال. دار المعارف: القاهرة ١٩٦٢م.

٧ ـ علم الاجتماع ومدارسه. مصطفى الخشاب. الانجلو المصرية: القاهرة.

٨ ـ مقدمة ابن خلدون. ابن خلدون. دار الفكر: القاهرة.

الاسلام ومستقبل الانسانية

الدكتور: عبدالحميد أحمد أبو سليمان*

المقدمـــــــة

لا بد للباحث في هذا الموضوع من مقدمة تسهل مهمة القارىء في فهم الاطار الذي يدور فيه هذا البحث.

ان الباحث الواعي في أحوال الأمة الاسلامية وما بلغته من العجز والضعف والتدهور بميزان العصر ومواقع أمم العصر ـ خاصة ان لم يؤمن وعي القارىء على جوانب الموضوع ـ لا بد له من الاعتذار والتوضيح قبل ان يبدأ العرض.

لأن المسلمين على ماهم عليه انما يدعون الانتهاء الى الاسلام.

اذا كان هذا حال من ينتمون اليه فكيف الأخذ بمأخذ الجد في ساحة التقدم الأفضل للانسانية نحو المستقبل.

وهذا حق لو وقف الأمر عند هذا الحد.

ولكن القضية بالفعل ابعد آفاقا مما يدل عليه ظاهرها.

ولابد للمفكر والباحث ان لا يقف عن حد الظواهر

والأسباب التي تستوقف الباحث الجاد في الأمر عديدة منها:

١ ـ ان الاسلام دين وينسب اليه ما لا يقل عن خمس البشرية

٢ ـ ان الاسلام ظل يسيطر على خيال وثقافة وفكر الأمة الاسلامية عددا كبيرا من القرون.

٣ ـ ان المسلمين رغم كل الظروف والاحوال والهجوم المر الذي يتعرضون له ولانتسابهم لهذا الدين وهذا المفهوم للحياة، فانهم يتمسكون بالانتهاء اليه رغم مافي واقعهم من انحراف عن مثله.

٤ ـ ان المسلمين قد حاولوا كل السبل في تقليد غيرهم واستيراد اساليبه

---

* كلية العلوم الادارية. جامعة الملك سعود. بالرياض ـ المملكة العربية السعودية.

ومناهجه لاصلاح شأنهم وفشلوا لعدة قرون وتحت ظل مختلف الظروف والمؤتمرات من اقصى الشرق الى اقصى الغرب دون جدوى.

٥ ـ ان المتأمل في احوال الانسانية والحضارة المادية المعاصرة رغم كل ما حققته من انجازات علمية وتقنية مادية لا يخفى عليه وجوه العجز ومواطن الخطر في مسار هذه الحضارة بل وبسبب ما انجزته هذه الحضارة من قدرات مادية وهائلة مدمرة دون ان تحقق له النمو والاستقرار النفسي والعاطفي والروحي المتكافىء وهذه القدرات. اذاً لابد ان توفر له المنطلقات الفلسفية اللازمة للسيطرة على هذه القوى الهائلة والّا كانت وبالاً عليه وعلى أسس وجوده.

من هنا لا يمكن للباحث ان يتجاهل كل هذه القضايا والظواهر، فلا يبحث في اسس بلاء هذا الجزء الهام من البشرية الذي هو الشعوب المسلمة، كما لا يمكنه ان يمر بهذه الشعوب الكبرى من البشرية دون ان يتفحص مفاهيمها ومنطلقاتها في مواجهة ازمة البشرية القائمة في ابعاد حالكة نحو المستقبل اذا قسنا مستقبل البشرية بماضيها المعاصر في حروب عالمية بربرية مدمرة تفتقد دواعي حكمة المنطق الانساني السليم.

ان من المهم في هذ المقدمة تحديد عدة قضايا:

أولا: ان تدهور المسلمين قديم تمتد جذوره الى قرون طويلة حتى قبل ان تسقط بغداد وقرطبة وسمرقند.

ثانيا: رغم كل الكوارث فان المسلمين مصرون على الانتماء عن التحول.

ثالثا: ان كل محاولات الحلول المستمرة من المنطلقات الحضارية الأجنبية ولعدة قرون قد فشلت في تغيير حال الأمة وتحريك طاقاتها وحل مشاكلها.

رابعا: ان منطلقات الحضارة الغربية المادية على مختلف اشكالها تضع الانسانية في مآزق خطيرة ومستقبل مظلم لا يغير من تلك الحقيقة كل المنجزات الايجابية لهذه الحضارة بل ان تلك المنجزات تجعل وجوه القصور مطاعن للوجود الانساني ككل.

أزمة فكر لا أزمة عقيـدة:

ولكن تعي الانسانية موضع الاسلامِ الذي غطى قدرا كبيرا من تاريخها وكيان شعوبها ووجه الإنسانية وبيّن لها طريق مستقبلها.

ولكي يعي المسلمون حقيقة الأزمة المزمنة التي يعانون منها لابد لهم من تفحص القواعد الأساسية التي يرتكز اليها كيانهم لتحديد سبب الأزمة والغوص الى اعماق تلك الأزمة ومعالجتها معالجة جذرية، فلم يعد في واقع حالهم من الخارطة الانسانية الحضارية ما يحرصون عليه ويخشون ضياعه في بحثهم عن أسباب الأزمة الساحقة المزمنة التي يعانون منها.

وفاعليات الانسان ترتكز الى عاملين اساسيين هما:

١ امكاناته وفاعليته المادية.

٢ - وامكاناته وفاعلياته المعنوية.

ولذلك فالسؤال المنطقي الأساسي هل سر الأزمة التي يعاني منها المسلمون تكمن في قصور امكاناتهم وفاعلياتهم المادية

والجواب بالتأكيد بالنفي

فالمسلمون يتحكمون في رقعة واسعة من الأرض تضم في جنباتها مختلف الامكانات المادية التي لا تقصر عن حاجتهم الحضارية، كما ان كيانهم يضم اعدادا بشرية هائلة تنتمي الى كل اجناس الأرض وشعوبها ولها من الثقة النفسية قدر كبير فيما سبق لها ان حققته من انجازات ومواقع تاريخية حضارية

ومع ذلك فان سمة العجز والقصور تلاحق كيانهم على اختلاف مكوناتها ومواقعها المادية.

واذا لم يكن القصور يكمن في امكاناتهم وفاعلياتهم المادية فليس من بد في ان القصور يكمن في امكاناتهم وفاعلياتهم المعنوية.

ولكن السؤال يكون حينئذ في أي من مكونات الفاعليات المعنوية يكمن الضعف؟

وقد تبرع الدارسون ـ من أصحاب الغايات والاغراض من الأمم المناجزة للمسلمين حضاريا والطامعين في مقدراتهم، الساعين الى السيطرة عليهم ـ بالاجابة على هذا السؤال بالقول: ان العلة تكمن في الاسلام دين الأمة ومنهجها.

وكانت تلك الاجابة هي منطلق محاولات طويلة مرة لأكثر من قرنين للخلاص من سيطرة الاسلام على الأمة ونظامها الاجتماعي وما تزال الأمة في ضعف وهوان وعجز تزداد هوته وتتعاظم آلامه.

ولكن الحيرة والتخبط يزدادان ولا ينقصان.

ولا يبدو امام الأمة الآن مخرج ولا منفذ.

والسبب في تصورنا ان قضايا البحث اختلطت بقصد ودون قصد.

فالقضية لا تكمن في منهج الأمة واسلامها أو لا تكمن، ولكن القضية في وضعها الصحيح هي في أي مكونات هذا المنهج يكمن الضعف وسبب الأزمة.

هل تكمن الأزمة في عقائد الأمة الأساسية وقيمها المثالية وغاياتها الاجتماعية؟

لا يستطيع عاقل ان يقول ان الأزمة لها اي علاقة بهذا الجانب من مكونات الأمة المعنوية.

ولا يخفى على عاقل سمو تلك القيم والعقائد والمبادىء والغايات الاجتماعية، وليس يخفى على الناظر ان من مظاهر الأزمة هذا القصور البيّن بين هذه القيم والتطلعات وبين واقع السلوك والممارسة الاسلامية للأمة.

من هنا يشك في غايات الاخاء والعدل والكرامة والقصد والتطهر في عقائد المسلمين وقيمهم.

هل يشك احد في وجوب الصدق والأمانة والرحمة والبذل والتكافل والعدل وحسن الأداء والاتقان في قيم الاسلام.

وهل يشك احد في تفريط المسلمين في هذه القيم وغيبتها وغيابها في سلوكهم وعلاقاتهم.

نعم من المهم ان نعلم ان عقائد الاسلام التي تقوم على التوحيد

والاخاء وقيم الحق والعدل والبذل هي من ضمن اهم مقومات الأمة وفاعليتها الايجابية في مواجهة اسباب الأزمة التي تغوص بها في دوامة الضعف والعجز والانهزام.

ولولا قوة دفع هذا الدين رغم كل التشويه والضباب والقصور في فهمه لكان حال الأمة من الهمجية والبربرية اشد هولا ولكان مصيرها الموت والفناء منذ آماد طويلة.

اذن ماهو سبب الأزمة؟

ان حقيقة الأزمة التي تعاني منها الأمة هي في اساليب دربتها الفكرية وعلاقاتها التنظيمية الاجتماعية. اي ان الأزمة ليست في جوهرها أزمة عقائد وغايات ومثل بل هي ازمة فكر واسلوب وتمثل وتنظيم.

ماهية الأزمة الفكرية وكيف نشأت:

من الواضح والمسلم به ان فترة صدر الاسلام تمثل قاعدة البناء الاسلامي التي أرست اسس تكوين الأمة وبنائها ومن المعروف و المسلم به ايضا ما تميزت به تلك الفترة من علاقات اجتماعية وقدرات وانجازات هائلة تركت آثارها التي لا تنمحي في قسمات وكيان الأمة

ولا تخطىء عين الدارس انه بزوال دولة المدينة وانقضاء عصر الصدر الأول حدث تغير وتحول في كيان الأمة ومسيرتها وعلاقاتها، ولكن الباحثين لا يقفون طويلا، عند هذا التحول الحاسم في محاولة فهم التدهور اللاحق.

وكثيرا ما ينصرفون الى محاولة تفهم الاسباب في الاحداث المباشرة لصعوبة الربط بين تلك الأحداث والتدنيات والتحولات التي حدثت في خلال عصور من التاريخ الاسلامي يتميز كيان الأمة فيه بكل مقومات المهابة والقدرة والانجاز الحضاري في الدولة الأموية والعصر العباسي الأول، أو بسبب الارهاب السياسي في عصور الضعف والانحطاط الذي يقاوم النظر السليم والمنطق المستقيم، أو بسبب الخشية من مزيد من العناء ينكأ جراح الأمة وذكريات محنها وحروبها وصراعاتها الكبرى. أو بسبب الرهبة والاجلال لتلك العصور والشخصيات التاريخية التي لم يبق للأمة سوى ذكراها.

وبذلك يبقى البحث عاجزا يرد الظواهر الى ظواهر والنتائج الى نتائج دون قدرة على معرفة حقيقة الأسباب، ولكن تبقى الحقيقة في ان الأزمات الكبرى في حياة الأمم والشعوب لا تفسرها الاحداث المباشرة ولا بد من الغوص في أعماق كيان الأمة وتاريخها وتتبع مجرياته لمعرفة البدايات البعيدة والاسباب الأولية والأساسية وتحديد مساراتها لمواجهتها وتصحيحها.

وتبقى الحقيقة ان تحولا اساسيا وفي ميدان فاعليات الأمة وامكاناتها المعنوية قد حل بها بزوال عهد الصدر الأول والخلافة الراشدة وعلاقاتها الاجتماعية رغم امتداد الدفع المادي وطرح ثماره خلال العهود الأولى اللاحقة لعهد الصدر الأول.

في تصورنا ان ذلك التحول بدأ بانضمام افراد القبائل العربية من غير المهاجرين (مس قريش) والانصار (من الأوس والخزرج) الى صفوف الجيش الاسلامي في مسيرته نحو الشمال لمواجهة الخطر الداهم من قبل الامبراطوريتين العظيمتين في ذلك الوقت الرومانية والفارسية

وجنود الاعراب لم يكن لهم من الرؤية العقائدية والتربية الاسلامية ما كان لجيش بناء دولة المدينة بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام يشهد عليهم القرآن الكريم بقوله: **﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر الّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾**[1] **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم..﴾**[2] وتشهد عليهم قسوة البيئة التي لم تكن تسمح لهم بما وراء حياة البادية كثيرا ولقرب عهد التحول الى مجتمع الانسان المسلم.

ولذلك وقد اصبحوا قوام جيش الأمة ولتعاظم ضعف رجال القيادة في المدينة بالسن وفي العدد، كان لا بد ان يملى جيش القبائل وجوده السياسي وقيمه وتصوراته وعلاقاته الاجتماعية التي لم تكن في جملتها جاهلية بحته ولا اسلاما ناصعا نقيا ولكن كان مزيجا من الأمرين، وما تجلب به

---

١ ـ سورة التوبة. الآية: ٩٧

٢ـ سورة الحجرات. الآية: ١٣

ممارساتها بعد ذلك من المحافظة على الهياكل والرسوم هو في جملته على حساب المحتوى وحقيقة الغايات والأهداف وطبيعة العلاقات الاجتماعية الاسلامية.

وفي ظل هذه المعطيات كان لا بد من الصراع ولا بد من زوال دولة المدينة وكان لا بد من قيام دولة جديدة كانت هي دولة بني أمية التي لم يقف التغير فيها فقط عند تحول الخلافة الى ملك عضوض كما يعترف الكتاب الاسلاميون ويقفون في دراستهم عند هذا الحد، فالتغير السياسي لا يمكنه أن يقف عند ذلك الحد، فلا مكان لمثل هذا التغيير السياسي ولا موضع له دون ان تكون آثاره الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية

وكان ابعد آثار ذلك التحول هو حال الانفصام والمواجهة بين فكر المدينة ومنطلقاتها وبين السلطات السياسية في الدولة الجديدة، وكمثال على ذلك، تحديدا للمسئولية وحفظا للحقوق ومنعا للتبرير وسوء الاستخدام - كان لابد ان يقف ابو ذر ليرد على معاوية رضي الله عنهما وهو على المنبر قوله: بأن المال مال الله وهو يبني عصبية ويتألف اعوانا يتحكم بهم في الرقاب في قوم يريدون ان يصطنعوا وأن يميزوا وأن يستخدموا اعوانا على رقاب الناس، وليقول له: بل مال المسلمين.

وبقي اقليم النشأة المدنية ثائرا رافضا هذا التحول رغم ان رجال الحكم في دمشق كانوا من قريش - فكانت ثورة الحسين وابن الزبير ومحمد النفس الزكية وزيد بن على وكانت حروبا اهلية طاحنة.

وبقي رجال الفكر الاسلامي وأمناء الفكر الاسلامي في مركز المناجزة والمعارضة فيموت الامام أبو حنيفة سجيناً ويضرب الامام مالك ويهرب الامام الشافعي ويعذب الامام أحمد.

وكانت تلك المواجهة والانفصال بين القيادتين الفكرية والسياسية في الأمة هي أخطر آثار ذلك التحول وأسس البلاء. حيث انعزل الفكر واضمحل وجفت مصادر نمائه وتجدده في ميدان التطبيق والممارسة والقيادة وهزلت السياسة والقيادة السياسية لجفاف منابعها من القيم والتصورات والفكر وارتكزت على الجهل والقهر

الجمود والتدني:

وكان ذلك التحول وما يتبعه من تحولات من دولة المدينة الى دولة دمشق ثم بغداد وما وراء دمشق وبغداد بكل ما اضافت تلك التحولات من ضباب الرؤية وعماوات جاهلية قبلية عربية وفارسية وهندوكية ورومية وغربية بداية الانحراف الذي أرسى وعمق عزلة القيادة الفكرية الاسلامية عن القيادة السياسية الاجتماعية للأمة، وتركت تلك العزلة والفرقة آثارها الرهيبة على الفكر الاسلامي جمودا وعلى السياسة الاسلامية قهرا وجهلا وعلى كافة الأمة خرافة وضياعا واستضعافا.

ويهمنا هنا ان نناقش قضية هذا الجمود، جمود الفكر الاسلامي وما ترتب عليه من ضباب رؤية الأمة، فنحن اذا استطعنا في تصوري توضيح هذين الجانبين امكن لنا ان نشخص الداء وان ندرك طبيعة الدواء ـ ان شاء الله.

ان عزلة الفكر والمفكرين المسلمين عن الدولة نتيجة ما حدث من تحول ادى بهم الى الانزواء والتحفز والمعارضة، وقد انصرفوا في البداية الى توثيق التصور والتطبيقات الاسلامية فنشأ علم الحديث وعلم الفقه (بروحه الوصفية) ونشأ علم العقائد بعيدا عن النظر في النظام الاجتماعي وتنظير تطبيقاته وبقي في حدود قضايا غيبية كمباحث الأسماء والصفات والقضاء والقدر

ومع تطور الأحوال الاجتماعية فان عزلة المفكرين الاسلاميين جعلتهم اقل قدرة على ادراكها ومواكبتها والمبادرة الى قيادة اتجاهاتها وجعلتهم في نفس الوقت اشد خوفا على التراث الذي في ايديهم من غايات القيادات السياسية وأساليبها المغايرة مما انتهى بالفكر الاسلامي الى الغرق في بحر الاسلوب الوصفي بالقناعات الذاتية الناجمة عن النظر الجزئي في القضايا التاريخية والعجز عن ادراك التطورات المحيطة أو احتوائها وتوجيهها والاغراق في العزلة والانغلاق وتأكيد الذات.

وهكذا انتهى الفكر الاسلامي الى الجمود والركود والوقوف بعيدا عن مجرى الأحداث وعرف ذلك في تاريخ التشريع الاسلامي باغلاق باب الاجتهاد.

ولهذا لم تأت الومضات الاجتهادية التطبيقية الا من رجال أضافوا الى حصيلة علمهم الممارسة الاجتماعية والنظرة الكلية والنزول الى دائرة العمل السياسي أمثال امام المدرسة الاصلاحية السلفية الامام ابن تيمية.

وما احرانا في هذا المجال ان نعي معنى اجتهادات أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الهائلة رغم قرب عهده بالرسول عليه الصلاة والسلام.

وعلى سبيل المثال اجتهاده في نظام الخراج واجتهاده في وقوع الطلقة الواحدة بلفظ الثلاث طلاقا بائنا رغم معارضة ذلك لصريح النص القرآني في الأمر، ﴿**الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان**﴾[1]أخذ منه بحق ولي الأمر المشروع في تقويم أمر الرعية

من هذا ننتهي في هذا المجال الى ان المنهج الدراسي الفكري للمدرسة الاسلامية التقليدية يحتاج الى اصلاح جذري ينقله الى أسلوب النظرة الكلية وإلى اعتبارات الممارسة والنظم والتطبيق والخروج على الأسلوب الوصفي المحدود واعادة الوحدة الى الفكر الاسلامي بين النظرية والتطبيق بين علم العقائد وعلم الفقه حتى ترتكز التطبيقات والممارسات الاجتماعية في كل صورها الى العقائد والتصورات الأساسية التي تحكمها.

الخروج من دائرة الفهم والنظر الجزئي لأحداث الصدر الأول ونصوصه وممارساته الى الفهم والنظر الكلي الذي يعي عنصر الزمان والمكان في تلك التصرفات والأحداث ويربط بين اجزائها وغاياتها ومساراتها التاريخية الكلية ويوظف الاسلوب التحليلي في فهم الأمور ووعي دلالاتها. وبذلك تعود للمشاهد حياتها وللاحداث معانيها وللقرارات والأوامر دلالاتها وتزول ذاتية الأحكام ومحدوديتها وغيبيتها

وعندئذ فقط يتخلص الفكر الاسلامي من الاسباب الموضوعية لجموده ويعود الى مكان الصدارة في توجيه قرارات القيادة السياسية

---

١ سورة البقرة. الآية ٢٢٩

والاجتماعية وامدادها بالحلول والبدائل والخطط الرائدة لحس سير الحياة الاجتماعية وفاعليتها.

الحلقة المفرغة:

وستبقى الأزمة قائمة والداء مستفحلا والاستقرار مفقودا والعجز متفاقما تتردى به الأمة من هاوية الى قعر هاوية على بحر هائج من التضحيات والآلام مالم يكسر الطوق ويوضع حد للدوران في حلقات مفرغة من الحلول الفاشلة البائسة من التقليد الأجنبي أو التاريخي.

ان الحل يكمن بتهيئة الظروف لقرار سياسي بكل تبعاته من قبل الأمة وأخذ نفسها به ثمنا لآلامها ومعاناتها وآمالها.

هذا القرار هو اعادة صياغة **التعليم** و **الاعلام** لبناء ثقافة موحدة تكون قيادات اسلامية تؤمن بهذه الثقافة وتتفاعل معها. فكرا وممارسة بشكل ايجابي وفعال وتوفر قاعدة اجتماعية تراقب وتدعم هذا اللون من القيادات.

تعليم يقدم المهارة الفنية والبحث الفني على اعلى المستويات على اسس ولغايات اسلامية.

وإعلام يقدم الترويح والثقافة والتصورات للمشاهدين والقراء والناشئة أساليب ونماذج تمثل القيم والغايات الاسلامية ولا تتعارض معها.

ان المهمة في هذه المرحلة التاريخية تقع على عاتق المفكرين والقيادات الاسلامية في توضيح طبيعة القرار السياسي المطلوب من الأمة حتى اذا ما اتضحت الغاية واتضح الطريق والحل، أخذت الأمة بكل الأسباب لتحقيق تلك الغاية ومارست الحل بكل الطرق والأساليب وعلى كل المستويات.

وأقامت الوحدة الفكرية بكل الأساليب والوسائل في التعليم الرسمي والتعليم الخاص وفي سياسة النشر وفي سبل نشر الثقافة والترويج لها وفي سياسة العمل والتوظيف وفي كل المواقع وبكل الأساليب في جهاد لا يني وعزم لا ينثني.

عندئذ يتحقق المسار الصحيح لمسيرة الأمة وتحل الأزمة الفكرية في أسسها ومنابعها.

تصحيح المفاهيم الاسلامية:

وخلال هذه المسيرة في سبيل اتخاذ القرار السياسي من قبل الأمة في اصلاح مسار **التعليم** و **الاعلام** وتنشئة القيادة الاسلامية الفكرية والسياسية والاجتماعية الموحدة التي ترتكز الى قاعدة متينة تسندها وتستجيب لها، خلال هذه المسيرة على المفكرين الاسلاميين تصحيح المفاهيم الاسلامية لدى الأمة وازالة الغبش التاريخي الذي لحق بها من المؤثرات الوافدة والرواسب العالقة والمصالح السياسية الفاسدة التي تحرص على ابقاء الأزمة والترويج لها

• وهذا يكون بتوظيف الطاقات الاسلامية في كل ميدان لمراجعة المفاهيم السائدة التي تعكس روح الاسلام الخلاقة من خلال الفهم السليم والاستنباط الدقيق للأحوال التي تعنيهم في الواقع والتاريخ، والرصد من خلال اللقطات المحدودة للنصوص وربطها بأحداث الحياة على عهد الرسول ﷺ وسياساته وخلفائه الراشدين، وبحياة الرسول عليه الصلاة والسلام واصحابه في صدر الاسلام حتى تعود للأمة مفاهيمها الحية الفاعلة الصحيحة التي أعطت للأمة جيل الاصحاب أكثر ما يكونون فاعلية وأكثر ما يكونون عطاء دون اشراف نفس أو طمع أو شره، مدركين ان الحياة والمادة وسيلتهم الى الوجود والتعبير الخير بها عن ارادتهم وذواتهم فكانوا بذلك حركة دائمة وفعلاً خيراً مستديماً، حياتهم فاعلية وعطاء وبذل وليست جمعا وحرصا وتكديسا لاهثا فاسدا رخيصا لا يتوقف ولا ينقطع.

وكان الاسلام بالنسبة لهم ليس لحظة ذكر أو بذلا وتضحية سرة ولكنه مسيرة دائمة على سبيل الحق والخير واتخاذ القرارات الفاعلة السليمة واسلوب حياة ومسيرة وجود حتى تلقى وجه ربها خيرا وسعادة أبدية.

ولذلك لا يحقر المرء منهم من المعروف شيئا ولو ان يلقى أخاه بوجه طلق، واماطة الأذى عن الطريق صدقة وفي بضع أحدهم صدقة والراحمون يرحمهم الله، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، والمسلم من سلم جاره بوائقه، والمسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه وكان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه

بعضا، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ولا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى، ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى**﴾، والبر حسن الخلق، وما آمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم به. والنظافة من الايمان، وان الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه

وهكذا امكن لبضع آلاف من الناس آمنوا بهذه الحقائق والفضائل وعاشوها ان يجتاحوا جل العالم المتمدن في عصرهم وان يتحول الناس الى عقائدهم وسمتهم بل وحتى لغتهم وهو مالم يحقق مثله فاتح في مثل هذه الحقبة من التاريخ.

ولأضرب مثلا كيف ينحرف الفهم وكيف يجب ان يستقيم فالعمل الصالح عند أولئك الأصحاب لا يقف عند هذا الحد السلبي وهو حد الذكر او ما يطلق عليه العبادات بل هو الى جانب ذلك عمل إيجابي موضوعي فاعل خير يبذل تعبيرا عن الذات والارادة.

كما ان مفهوم العبودية لم يكن يرادف لديهم الاستعباد بل التعبد وهو أخذ النفس بالحق والصواب وتعبيدها وتذليلها، فالله هو الحق وللمؤمنين القوة والقدرة والفاعلية والعزة.

مثل آخر كيف ان الدارسين من غير المتخصصين في علم الحكم أو السياسة لم يمكنهم ان يعوا درسا مثل درس تصرف ابي بكر رضي الله عنه في حرب الردة.

لقد رأوا في ذلك حين لم يعوا طبيعة مجتمع الأصحاب المحدود ومعرفتهم الكاملة ببعضهم البعض وانشغالاتهم الهائلة بأعمال الفتح والادارة وانعدام الهياكل الرسمية والتنظيمات الاجتماعية المسبقة مما يجعل فهم تصرفاتهم وأعمالهم ودلالاتهم من خلال الاهتمام بالهياكل والتصرفات الرسمية ناقصا مبتورا ولا يمكن فهمها الا بفهم البناء غير الرسمي في تلك العلاقات والتصرفات،

فأبو بكر كان من خيرة الأصحاب والقائد الذي اختاروه لجماعتهم وكان معروفا عندهم بالرحمة ولين القلب وكثرة البكاء رقة وشفقة ولكنه كان

ذا بصر ثاقب ورؤية واضحة وجنان ثابت ولذلك سمي الصديق.

فلما واجه ثورة العرب على السلطة المركزية وأعلنوا العصيان وامتنعوا عن دفع الزكاة، كان الأمر بالنسبة لأبي بكر واضحا وهو ان الأمر أمر عقيدة فقد خاطبهم القرآن الكريم **﴿ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** فالقضية في جوهرها قضية النظام الاجتماعي واظهار الولاء له في الحياة الدنيا والعلاقات الاجتماعية العامة وليس قضية ايمان وتعلق ويقين.

فلما ارتفعت اصوات بعض الأصحاب لهول فكرة القتال بين من يدعون الاسلام واختلط الأمر عليهم، كان من الطبيعي ان لا ينكص القائد الخليفة على عقبيه عند اول صيحة بل يصمد ويوضح رؤيته في هذا الأمر المصيري، فإما ان يرى ما يرون أو يرون ما يرى أولا يتحمل مسئولية العمل دون قناعته في قرارات مصيرية.

واخذ النظر والنقاش مجراه بين الأطراف وهنا يتضح لهم الأمر ويرون ما يرى ابو بكر ويعلن عمر الثقة المطروحة في ابي بكر ويقول «فوالله ما ان رأيت إصرار ابي بكر على الأمر حتى شرح الله صدري».

وهكذا مارس ابو بكر دروه القيادي واتخذ القرار المصيري الصائب في قتال اهل الردة بقناعة، وتقبل الصحابة رضوان الله عليهم دون قسر أو رهبة لم يكن لأبي بكر وسائلها على أي حال.

وهكذا لا يرى في مثل حادثة حرب الردة مثالا على عدم الزام الشورى الا من ليس له دراية بعلم الحكم ولا ممارسة اجراءات اتخاذ قراراته

وهذا شبيه بمن يرى الديموقراطية والشورى أمرا واحدا دون ان يدرك الفوارق الأساسية النابعة من الفلسفات والمرتكزات التي ترتكز اليها هذه المفاهيم والمصطلحات.

فالديمقراطية هي التعبير عن مفهوم الفلسفة المادية الفردية في اتخاذ القرار السياسي ولذلك فهي تستند الى حق الفرد المطلق في تحقيق ذاته وان كل شيء هو وسيلة لتحقيق تلك الذات ومقياس الحق والخير والصواب.

وبذلك فان الأغلبية حين تتحقق يكون لها الحق المطلق لأن لها القوة

للحصول على ارادتها، ولا يكون للأقلية حق والدساتير الحديثة وحقوق الأنسان الأساسية هي ترقيع لذلك النقص الخطير في التعبير الديمقراطي السياسي وواقع الممارسة في تلك المجتمعات بينما الشورى تعبير عن مجتمع الاخاء الذي يسعى في حدود الحقوق المترتبة مسبقا وشرعا لكل فرد وفقا لأحكام الاسلام بغض النظر عن موقعه من اتخاذ القرارات أقلية أو أغلبية وذلك باتخاذ القرارات بروح الاخاء وتوخي المصلحة العامة والسعي نحو الحق لذاته بما تمليه روح الاسلام، ولذلك فالتعبير يحمل معنى التناصح والتشاور دون ان يمس بعد ذلك الزامية المشورة الصحيحة من قبل المؤهلين لها. **﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين. فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ﴾**[1]

هذا اللون من الجهد المكثف المتخصص القادر على تصحيح المفاهيم والتأثير في التربية والسلوك والمؤسسات الاجتماعية سيكون خير عون على توضيح الرؤية والمفاهيم في سبيل الحسم لمصلحة القرار السياسي المطلوب لاصلاح **التعليم و الاعلام** وحل **الأزمة الفكرية** وتوحيد القيادات الفكرية والاجتماعية وارتكازها الى القاعدة السياسية المطلوبة في وحدة ثقافية اسلامية شاملة، وتكون الأمة عند ذلك قادرة على السير في الطريق مهما سبب ذلك من معاناة وجهد مقابل الواقع المر من العجز والضعف والألم التي ظلت تتجرعه على مر قرون من الانحراف والسحق والهزيمة والهوان.

الاسلام ومستقبل الانسانية:

ولكن ما الذي يعني الانسانية من هذا الاسلام ومشاكل أمته التي حاولنا القاء الضوء عليها فيما مضى في الصفحات.

الذي يعني الانسانية من هذا الدين هو ما يعني المسلمين بل ان الانسانية والشعوب القادرة علميا وماديا هي فيما ارى اشد حاجة اليه لأنه يحوي المفاهيم التي تجيب على جوانب الضعف في كيانها القائم، والمتفاقمة على مدى المستقبل.

---

١ ـ سورة المائدة. الآية: ١٣٥

ويتلخص ذلك في امرين:

الأمر الأول:

ان الاسلام يقيم مجتمعا يبني على اساس الوحدة ويقوم على مفهوم الاخاء ويركز النظر على الاستجابة لحاجة الفرد الأساسية والاهتمامات المشتركة بينه وبين الآخرين على كل المستويات انطلاقا من الأسرة الى الجار الى القوم الى الانسانية.

وهذه الشعوب وهي تفجر الطاقات المادية التدميرية الهائلة لا يسعها إلا ان تعيش في ظل فلسفات المواجهة و الصراع بين الأفراد أو القوميات أو الطبقات أو ـ ما اسميه ـ فلسفة الحراب المتقابلة، فلا شك انه مع توفر آلات الدمار الكونية وفي ظل نفسية الصراع والمواجهة والتركيز على وجوه الاختلاف والتعارض، ليس هناك ما يدعو الى الظن الا ان يفلت الزمام في لحظة جنون انساني انتحاري شهدت الازمان ما يماثلها مع فارق الآثار المدمرة في عالم الغد.

ومن هنا فان عالم الاسلام أو عالم الحلقات المتداخلة و الأمن الجماعي هو فلسفة الغد التي لا سبيل سواها لتحقيق النمو والأمن النفسي والروحي والعاطفي الذي يحقق الأمن والسلام الصحيح لعالم الغد.

يقول الله سبحانه ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾[1] ﴿يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾[2]﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم﴾[3] ﴿وما كان الناس الا أمة واحدة، فاختلفوا .﴾[4] ﴿وبالوالدين احسانا وبذي

١ ـ سورة النساء. الآية: ١١

٢ سورة الحجرات. الآية: ١٣

٣ سورة الروم. الآية: ٢٢

٤ ـ سورة يونس. الآية: ١٩

القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ﴾[1]

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . . ﴾[2] ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم . ﴾ ﴿وقولوا للناس حسنا ﴾[3] ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم، ان الله يحب المقسطين﴾[4] ﴿وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[5] ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا﴾[6] ﴿فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين﴾ ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على الاَّ تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله﴾[7] ﴿واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل﴾[8] ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾[9] ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين، انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون، يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكنَّ خيراً منهنَّ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾[10]

الأمر الثاني:

يتعلق بمعنى المعرفة وطرق البحث العلمي فالحضارات والفكر المادي القائم جوهرياً على الأسلوب العقلي التجريبي الاستقرائي ينطلق من

---

١ ـ سورة النساء. الآية: ٣٦

٢ ـ سورة المائدة. الآية: ٣٣.

٣ ـ سورة البقرة. الآية: ٨٣.

٤ سورة الممتحنة. الآية: ٨.

٥ سورة النحل. الآية: ١٢٦

٦ سورة البقرة. الآية: ١٩٠

٧ سورة المائدة. الآية: ٨.

٨ ـ سورة النساء. الآية: ٥٨.

٩ ـ سورة المائدة. الآية: ٢

١٠ ـ سورة الحجرات. الآيات: ٨ ـ ١٠

العالم المحسوس والتجارب والمعلومات المتوفرة للتعرف على القوانين التي تحكم الحياة والكون. وهو فكر منبت عن اي معرفة مسبقة أو وحي منزل لأنه لأسباب خاصة بالأديان الكبرى الأخرى عدا الاسلام خاصة المسيحية بامكان اتباعها علميا والثقة بأي معلومة بعينها مما جاءت في كتبهم المقدسة ولأن كثيرا مما بها لا يقبله العقل والعلم.

واذا أدركنا التعقيد الهائل للطبيعة الاجتماعية للانسان وتعدد العوامل التي تؤثر على السلوك الانساني في وقت واحد واستحالة تثبيت بعضها أو اخضاع البشر للتجربة المعملية، أدركنا التخبط الهائل للعلوم الاجتماعية وتوالي النظريات المتناقصة في ميدان العلوم السلوكية والاجتماعية والتربوية

ولما كانت آثار الأخطاء في هذه المجالات لا تتضح في أمد قصير ولا يسهل تلافي آثارها المدمرة بعد ان تصل الى مداها في تكوين الجماعات الانسانية والتأثير على بنيتها

اذا ادركنا ذلك ادركنا الميزة الموروثة في مجال المعرفة الاسلامية، فالمعرفة الاسلامية تنطبق على المعرفة المادية لكنها لا تقف عند حدها بل تهذبها وتمنع اضرارها

ففي الوقت الذي يجب فيه على المسلم النظر والفهم في الخلق والمخلوقات والتعامل معها والافادة منها ورعايتها الا ان المسلم لديه كمية من المعلومات والمسلّمات المسبقة بلغت اليه وحيا من عند الله تختص بالقضايا الاجتماعية السلوكية الاساسية، فاذا شط الفهم والنظر بالمسلم في قوانين الكون والوجود والعلاقات فإن له من الوحي عاصما يمنعه من الندم بعد فوات الأوان فليس صوابا ولا حقا ما عارض حلالا أو حراما بفهم صحيح لنص صريح وهكذا فان المعرفة الاسلامية توظف وفي وقت واحد مصادر المعرفة العقلية التجريبية الاستقرائية الى جانب مصادر المعرفة الكونية الكلية الاستنباطية فللمسلم ان يتعامل ما شاء له التعامل وان يتاجر

وان ينتج ما شاء الله المتاجرة والانتاج الا ان يكون عملا يسبب اذى للخلق أو ربا أو ظلما لهم لابذل جهد وتبادل نفع.

وللمسلم ان يتخذ له ما شاء من أساليب العيش وتقاليد الحياة الأسرية الكريمة وأن يكيفها وفق ظروفه الخاصة، الا ان يبيح لنفسه نيل الجنس على غير الغاية منه ودون عقد مشروع يرتب للمرأة وللطفل كرامتهما وحقوقها النفسية والمادية المترتبة على نيله لوطره وحاجته، فاذا فعل ذلك فقد ظلم وأفحش واعتدى والله لا يحب المعتدين.

وهكذا حال الوحي وتعاليم الاسلام ليست قيودا ولا قوالب وانما هي مشاعل وعلامات على دروب الحياة لدرء الضلال والغواية والفحش وتحقيق الوجود والعلاقات الاجتماعية الأمثل.

﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1]

لا يغير من هذه الحقيقة عن المعرفة الاسلامية ووسائلها جهل اتباع الاسلام لموضع العقل من النقل ولا استهانتهم بشأنه، فذلك أمر كان وراء طاقتهم بسبب العزلة والانفصام الذي فرضته ظروف الأحداث على قياداتهم الفكرية وقياداتهم الاجتماعية ولعدة قرون.

هذان الأمران وهما مجتمع الوحدة في مقابل مجتمع الصراع واستكمال ضوابط العلاقة في مصادر المعرفة الانسانية سيكون لهما في تصوري في عالم الغد أهمية خاصة حين لا يستطيع المجتمع البشري دفع ثمن الأخطاء كما تعود في الماضي حين كانت المعارك التاريخية الفاصلة يموت فيها عشرات أو مئات الرجال. وكانت الأمم في مأمن مما يجري على ساحات سواها على وقت تصبح الأرض قاطبة كالحجرة الواحدة كل صرخة منها تخدش اسماع كل من في الغرفة وكل مأساة منها تصدم ابصار كل من في الغرفة وكل أذى يقع بها ينال كل من حضر الغرفة.

---

١ سورة النحل. الآية: ٩٠

وحين تتيقن الانسانية ما بلغته من وسائل التدمير والخراب ومن تهديد وجود الأرض في عالم الفضاء.

حينئذ فقط تدرك الانسانية حاجتها الى الضوابط الدقيقة الحاسمة - المعلومة في كتاب الله وصحيح السنة والتي فرضت احترامها والثقة على كل منصف متأمل - لتقيها من الانزلاق الى هاوية الفناء.

وحينئذ فقط لا يكون المخرج بالتطلع الى المواجهة والغلبة ولكن الى الوحدة والتقارب والى البحث عن عوامل الوجود المشترك والمصلحة المشتركة.

ان على المسلمين فهم رسالتهم اداء للحق وانفاذا للغاية منها في هذا الوجود على مقتضى حكمة الخالق.

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس. ﴾[1]
فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[2]

الخاتمـــــة:

هذه تأملات فيما آل اليه أمر الأمة ونظرة حاولت ان استبطن بها التاريخ لأرى كيف بدا التغير المأساوي في حياة المسلمين واسبابه والانطلاق من ذلك الى أسس التغيير والعلاج في اطار موضع الأمة الاسلامية من الانسانية في أزمتها الكبرى وقلقها الأبلغ.

واني أرجو بهذه التأملات ان اشحذ همم المفكرين بالنظر على امتداد آفاق الوجود الاسلامي والانساني وعلى ابعد الأعماق علَّ ذلك يوفر الجهد المطلوب على مستوى المعاناة التي تلقاها الأمة الاسلامية والقلق الذي يساور الانسانية.

ان على قيادات هذه الأمة ومفكريها في اعتقادي ان يعلموا ان مناجزيهم يدركون ان قيم الاسلام وعقائد الاسلام وحضارة الاسلام هي تحدي المستقبل ووارث المستقبل ولذلك فهم يحرصون على ان يصرفوا

---

١ - سورة البقرة. الآية: ١٤٣
٢ - سورة الزلزلة. الآية: ٦

المسلمين عن فهم هذه الحقيقة وجرهم الي متاهات فيها المزيد من الجهد والمزيد من العمل والمزيد من المعارك ولكن دون تغيير في فهم لأنفسهم واعادة لبناء علاقاتهم ونسيجهم الاجتماعي وفقا لقيم الاسلام ومنطلقاته الصحيحة

ان في تصحيح المفاهيم والمنطلقات واعادة بناء العلاقات الاجتماعية على أسس الاخاء والبذل والعطاء والفاعلية الاسلامية تغييراً كاملاً لكل معادلات الوجود والقدرة والفاعلية للأمة الاسلامية، وهو توحيد اتجاه وتفجير طاقة وهو ما يخشاه المناجز، أما الجهد والكد من واقع الأمة السقيم ومفاهيمها الفجة وأساليبها العاجزة وعلاقاتها الفاسدة ونسيجها الاجتماعي الواهن المنتن هو مزيد من الضياع والوهن والعجز وهو ما يحرص على ابقائه المناجز، ان عامل الحسم في الأمر ليس في كم الجهد والعمل بقدرما هو في نوع العمل ووجهة العمل.

هل هو في تنمية قدرة الأمة على الفعل أو في مزيد من انهاك قدرتها على الفاعلية والانجاز

ان حقيقة ميدان المعركة هو فكري أيديولوجي وليس اقتصاديا، وهو امر على أي حال لا يعني التعارض ولكن يوضح علاقة وأولوية العمل والبناء، فالبنية الاجتماعية الفكرية النفسية القادرة السليمة، ميدان انجازها وتعبيرها في شكله هو مادي اقتصادي عملي تكنولوجي لغايات سليمة، ولا بد ان يكون كذلك بشكل أو بآخر والعكس ليس صحيحا فليس للمريض العاجز ان يفعل مهما تبجح أو تمنى.

ومما يدعو الى التأمل هنا هو ان الانجاز الاسلامي هو أيضاً انجاز انساني، وأن في تحقيق الذات الاسلامية انقاذا لمستقبل الذات الانسانية

ان هذه حقيقة أرجو ان يعيها عقلاؤنا وعقلاء المناجزين لنا وأن ينصرفوا الى ما فيه الخير لكافة الفرقاء وعلى امتداد الأبد.

الخصائص البشرية والجغرافية للعالم العربي

الدكتور عبد الرحمن بوزيده

لقد تجاوز سكان العالم العربي ١٦٤ مليون نسمة سنة ١٩٨٠م، بنسبة نمو سنوية تساوي: ٢,٨٪، ويساوي هذا العدد ٣,٨٪ من سكان العالم.

وكل التوقعات تشير الى ان هذا العدد سيرتفع الى ٢٨٦ مليون نسمة في نهاية هذا القرن، أي ما سيعادل ٤,٦٪ س سكان العالم.

ويعيش سكان العالم العربي فوق مساحة تساوي ١٤٠٠ مليون هكتار أي ما يعادل ١٠٪ من مساحة العالم.

وتتكون هذه المساحة بنسبة ٩٦٪ من أراضي صحراوية أو شبه صحراوية

وتتمثل نسبة الأراضي الفلاحية ١١٠ ملايين هكتار يستغل نصفها فقط في الوقت الحاضر، وتكوّن الأراضي الفلاحية غير المسقيّة ٧٨٪ من مجموع الأراضي الفلاحية

وحسب المعلومات الحالية لا يمكن اعتبار العالم العربي ثريا جدا بالمواد الطبيعية ماعدا المحروقات والفسفاط.

المحروقات:

١ - البترول:

لقد قدر احتياطي البترول العربي سنة ١٩٧٩م بـ (٣٥٩) مليار برميل، أي ما يتجاوز الاحتياطي العالمي.

أما احتياطي الغاز فيقدر (٩٣٠٤) مليارات متر مكعب أي ما يعادل ١٤٪ من الاحتياطي العالمي المعروف.

وبعد تعديل سعر البترول سنة ١٩٧٣م، وصلت مداخيل البلدان العربية الأعضاء في منظمة الأوبيك، ما يفوق ٥٦ مليار دولار سنة ١٩٧٥

ويساوي هذا الدخل ١٢ مرة أضعاف دخل سنة ١٩٧٠م.

وقد بقي هذا الدخل في ازدياد متواصل الى ان تجاوز ١٠٠ مليار دولار في سنة ١٩٨٠م، الا ان سعر البترول قد عرف في الآونة الأخيرة بعض التراجع الذي يعتبره البعض مؤقتا.

وينفق القسم الأهم من هذه المداخيل في:

أ ـ استيراد المواد الاستهلاكية الفلاحية

ب ـ استيراد المواد الاستهلاكية المصنعة

جـ ـ استيراد التكنولوجيا.

ففي سنة ١٩٧٦م على سبيل المثال صدرت البلدان البترولية بما قيمته (٩٧) مليار من الدولارات. بينما استوردت البلدان العربية في نفس السنة ما يعادل ٤٤ مليار دولار أما ما يتبقى من عائدات البترول فيصبح في أغلب الأحيان ودائع في البنوك الأجنبية.

ويبين هذا المثال المحسوس المشكل الذي يعاني منه اليوم العالم العربي وهو مشكل انعدام الاكتفاء الذاتي في أغلب وأهم الميادين رغم قيام تجربة تنموية في أغلب أقطار العالم العربي.

فما هي العوائق التي تعترض التجربة التنموية في البلدان العربية؟

التجربة التنموية في البلدان العربية:

لقد عرفت البلدان العربية تجارب تنموية مختلفة في كثير من ترتيباتها وتفاصيلها، الا انها ترمي في مجملها الى هدف واحد وهو الحاق هذه الدول بركب الأمم المتقدمة وقد تم ذلك في أحقاب زمنية متفاوته لأسباب موضوعية تخص كل قطر، الا انها متقاربة بصفة عامة، ونحاول ان نتعرف على ايجابيات هذه التجارب بصفة اجمالية ثم سنتعرض بعد ذلك الى النقائص.

١ ـ ايجابيات التجارب التنموية في مختلف الأقطار العربية:

لقد ارتفع الناتج المحلي الاجمالي للبلدان العربية ما بين ١٩٦٠

١٩٧٧م من (٢١,٥) مليار دولار الى (٦٧) مليار دولار بالسعر الثابت لسنة ١٩٧٠م، أي بمتوسط انمائي سنوي يساوي ٧٪ وفي نفس الفترة ارتفع عدد السكان من ٩٧ مليون نسمة الى ١٦٤ مليوناً مما يجعل زيادة الدخل الفردي لا يتجاوز الـ ٤٪ فقط. وقد لعب البترول دورا أساسيا في زيادة المعدلات الانمائية للدول العربية البترولية.

أما بالنسبة للدول غير البترولية فقد بقيت الفلاحة هي المورد الأساسي. وقد عرفت البلدان البترولية نموا اسرع من غيرها اذا تضاعف ناتجها المحلي الاجمالي ما بين ١٩٧٠ ـ ١٩٧٧م فقط. وعلاوة على هذه النسب الاحصائية فلقد أنجزت البلدان العربية بنية قاعدية مهمة نسبيا سواء في ما يتعلق بالطرقات والنقل بصفة عامة، أو ما يتعلق بالصحة والتعليم. فبإمكاننا القول الآن بأن أكثر من ٦٠٪ من أبناء العالم العربي الذين يتراوح سنهم ما بين السادسة والحادية عشرة يوجدون اليوم داخل المدارس.

كما زاد عدد الأيدي العاملة العربية التي تمثل الثروة الحقيقية للعالم العربي قبل البترول والفلاحة على ٢٨ مليون عامل سنة ١٩٦٠م الى ٤٥,٧ مليون عامل سنة ١٩٨٠م. الا انها بقيت غير متعلمة بنسبة ٥٠٪ وقليلة التخصص العالي في مجملها ويوجد ٧٥٪ من هذه الأيدي العاملة في البلدان غير البترولية

٢ ـ سلبيات التجارب التنموية العربية:

أهم المظاهر السلبية الواضحة للعيان في التجربة التنموية العربية هو عدم تمكنها الى الآن من الوصول الى الاكتفاء الذاتي ـ حتى في الميدان الغذائي الى الآن. بل على العكس من ذلك لقد ارتفعت الواردات الغذائية بشكل مفزع بين ١٩٦٠ ـ ١٩٨٠م.

فقد تضاعف حجم الواردات الغذائية خمس مرات ما بين ١٩٦٠ ـ ١٩٧٥م بالنسبة لمجموع الدول العربية بينما وصل ٩ أضعاف في البلدان العربية النفطية

وبالاضافة الى ذلك لقد انقسم العالم العربي اليوم عمليا الى منطقتين أو ساحتين:

١ ـ ساحة الأقطار العربية النفطية الثرية والقليلة السكان ماعدا الجزائر والعراق.

٢ ـ ساحة الأقطار العربية غير البترولية وهي في أغلب الأحيان فقيرة ومكتظة بالسكان.

وقد أحدث ذلك اختلالا وتناقضا داخل العالم العربي ككل ـ أثر تأثيرا سلبيا على التجربة التنموية، حيث حدث تفكك بين رأس المال وقوة العمل. ففي الساحة الأولى يوجد فائض في رأس المال دون ان يوجد ما يقابله من اليد العاملة.

وفي الساحة الثانية يوجد فائض في اليد العاملة دون ما يقابله من رأس المال. وقد أدت هذه الحالة الى اختلاف في الدخل الفردي وصل الى حد الافراط في التفاوت. فبينما يصل دخل الفرد في الكويت على سبيل المثال الى ١٥٠٠٠ دولار، لا يتجاوز في الصومال ١٣٠ دولاراً وفي موريتانيا ٢٧٠ دولاراً.

وقد أدت هذه الوضعية المتميزة بضعف المؤسسات الاقتصادية التنسيقية أو بقلة فعاليتها في حالة وجودها الى ظهور علاقات تبعية بين الساحة الأولى والثانية، وتتجلى هذه التبعية اقتصاديا بالقروض والاستثمارات المختلفة الصادرة من البلاد النفطية الى غيرها من البلاد العربية، وبالتنقل المكثف لليد العاملة من البلاد غير النفطية الى البلاد النفطية بما في ذلك هجرة الكفاءات والأدمغة.

أضف الى ذلك أن الغرب الذي يسلط على الأمة العربية عميلته اسرائيل التي تفتك وتعربد في ربوعها، يرمي الى أن يلهينا ويصرفنا عن عملية تنمية حقيقية تفكنا من عقال التبعية الذي ما فتىء يكبلنا به

ما هي الأسباب؟

يرجع الدكتور لبيب شقير اسباب المشاكل التي تعاني منها التجربة

التنموية العربية الى عدم صحة وعلمية المفاهيم التقليدية للتنمية والى فشلها في تحديد أسباب التخلف الحقيقية لكي يمكن معالجتها.

فعندما تقارن النظرية التقليدية للتنمية بين بلدين مختلفين في نموهما تقوم بذلك من زاوية حصر درجات التفاوت التي تفصل بين البلدين دون ان تأخذ علاقات التأثير المزدوج الموجودة حتما بين البلدين.

فالنظرية التقليدية للتنمية لم تكن تؤمن بأن التقدم آت من التخلف والعكس بالعكس. بل كانت ترى في التقدم والتخلف ظاهرتين منفصلتين عن بعضهما البعض.

وهكذا يصبح التقدم في ظل هذه النظرية فوارق كمية بين الأغنياء والفقراء يمكن قياسها كميا بالرجوع الى العناصر التالية:

- درجة نمو الناتج المحلي الاجمالي.
- درجة التزايد الديموغرافي.
- درجة انتاجية العمل.
- مدى كثافة الاستثمارات.
- نوعية التكنلوجيا.
- مدى وجود الثنائية الاقتصادية الخ.

أما العيب الثاني الذي تحمله النظرية التنموية التقليدية فهو اعتبار عملية التنمية عملية اقتصادية محضة بينما التنمية في الحقيقة هي عملية تاريخية وثقافية قائمة على الشعور الوطني ولا يمكن الا بالرجوع إلى الانسان ومدى رفاهيته

وهذا ما يذهب اليه أكثر فأكثر المنظرون الأجانب مثل (P.Borel) في كتابة الثورات الثلاث في التنمية حيث يقول في هذا الصدد: ان الذي لا يعتبر التنمية مشروعاً انسانياً انما يعتبرها عملية مادية فزيائية وتوازناً بين البيئات وميكا نسمات توفر بواسطة رؤوس الأموال، والتقنيات

والبيروقراطيين، ويحافظ على سيرها الحسن والمنظم بقياس مردوداتها المادية النقدية، سيفشل حتماً.

فالتنمية هذا المشروع الانساني، لا يمكن ان يكون لها معنى الا ضمن مستقبل وضرورة الانسان.

وهذا ما تردده أهم مواثيق الثورة الجزائرية فلقد جاء في الميثاق الوطني الجزائري الذي صادق عليه الشعب سنة ١٩٧٦م بأن السعي لترقية الانسان يكون الهدف الأعلى المنوط بعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية

ان النشاطات الاقتصادية البحته، وعلى الخصوص الفلاحة الصناعة تساهم بشدة، في السعي الى ترقية الانسان، بالاضافة الى مهمتها الانتاجية[1] كما ان كثيرا من المسئولين العرب انتهوا الى أهمية هذا الطرح ففي مقال صدر بمجلة العربي سنة ١٩٨٢م ـ تحت عنوان "هموم خليجية" للدكتور **علي فخرو** وزير التربية والتعليم في دولة البحرين يفتح الوزير كلامه بهذ الجملة:

إذا اعتبرنا الانسان هو المدخل الحقيقي بل المعيار والهدف، لأي سعي في اتجاه التنمية، فان تجربة الدول الخليجية في هذا الميدان تظل بحاجة الى المناقشة واعادة النظر

وبعد ان يؤكد الدكتور **فخرو** على تبعية الدول الخليجية ـ موضوع محاضرته ـ للغرب اقتصاديا، وتكنلوجيا وماليا ينتهي الى نتيجة أن التعليم هو مفتاح التنمية الشاملة، ثم يحاول حوصلة ما تم في هذا الميدان كما يلي:

ـ تنتشر الأمية الأبجدية الحسابية بين مواطني الدول الست بنسبة تتراوح بين ٣٠ و ٦٠٪، وتصل نسبة السقوط والتساقط قبل الانتهاء من المرحلة الابتدائية الى حدوث ثلث الطلاب الذين يدخلون المدارس.

---

١ ـ أنظر الثورات الثلاث في التنمية ب. بوريل. ص. ١٢٢

ـ تتميز العملية التربوية والتعليمية في جميع المراحل الدراسية بأنها تلقينية هدفها تمرير المعلومات من رأس الأستاذ أو كتابه الى رأس التلميذ أو كراسه

ـ تتميز المناهج الدراسية بأن قسما كبيرا منها غير مرتبط بالبيئة ولا يصب في مجرى التنمية.

ـ يحظى التعليم الابتدائي بشرف الأهمية الثانوية في خطط وزارات التربية وموازناتها

ـ تعتبر المدرسة الثانوية ممرا للتعليم الجامعي الأكاديمي أو التوظيف الحكومي الكتابي، ولا تزال الغالبية الساحقة من الطلبة يدخلون فرعي الآداب والعلوم في حين ينعق البوم في الفروع التقنية والمهنية الأخرى وعلى الأخص الصناعية منها.

وما زالت الغالبية من جامعاتنا لا تزيد عن أن تكون امتداداً لمدارسنا الثانوية عقلية وأسلوب تعليم، ومناهج تلقينية، وعبودية اكاديمية، وابتعادا (قد يكون مفروضا) عن مشاكل المجتمع وطموحاته بالنسبة للتخصصات أحيانا وبالنسبة للبحث العلمي احيانا اخرى.

فهل تستطيع هذه المؤسسات التعليمية أو تلك المناهج أو طرق التدريس التي وصفنا ان تنمي الانسان الذي نريد. ؟ ثم يضيف الدكتور فخرو في موضع آخر:

هذا الانسان الجديد المطلوب لذلك العالم المتميز هل تتجه التنمية الاجتماعية والثقافية لبنائه؟

إنني شخصيا لا أعتقد أننا نفعل ذلك بالرغم من النشاط المحموم الذي نراه من حولنا، ان التاريخ يمكن ان يوضح ما نقول. ألم تقم مدن كاملة في الغرب الأمريكي حول مصادر الذهب، وكانت تزخر بالنشاط التجاري والمالي والترفيهي عبر السنين؟ ومع ذلك فانها قد اصبحت بعد حين اشباح مدن. لقد هجرها أهلوها بعد انتهاء امكانيات وجودها.
ألم يحدث نفس الأمر مع اسبانيا القرن السادس عشر

ونفس الاقتناع يردده غالي شكري معمما اياه على كل المحيط الثقافي

العربي حيث يقول في استجواب لمجلة الثقافة العربية. سنة ١٩٨١ ما يلي:

فالحقيقة اننا شيدنا جامعاتنا ومدارسنا على النسق الغربي الذي أملاه الاستعمار، والحقيقة ايضا اننا اسسنا دورا للنشر وصحفا هي مسوخ مشوهة للفكر الاستعماري والصهيوني.

وكلام الدكتور فخرو لا ينفي ما تحقق على الساحة العربية في ميدان التربية والتعليم على المستوى الكمي أو حتى الكيفي، فقد شيدت معظم البلدان العربية أنظمة تعليمية عصرية أو هكذا تدعى من الابتدائي الى العالي بعد ان كان التعليم فيها يقتصر على بقايا النظام التقليدي. كما ان الأمية انخفضت بأكثر من ١٤٪ بين ١٩٧٠ - ١٩٨٠م في البلدان البترولية وبأكثر من ٩٠٪ في البلدان العربية غير البترولية الى آخره.

وبالاضافة الى ذلك فان التعليم في مختلف مراحله: من الابتدائي الى العالي هو مجاني في كل البلاد العربية البترولية

لكن النقد منصب على نتاج النظام المدرسي كما رأينا. فالنظام المدرسي القائم في البلاد العربية والمناخ والمحيط الثقافي بصفة عامة لا يسمحان بظهور وبروز الانسان العربي القادر على تحرير نفسه اقتصاديا وثقافيا وأديولوجيا، والراغب في صنع حضارة عربية اسلامية جديدة تمتد جذوها في التراث وتتعالى أغصانها أو تساوي على الأقل الحضارات المتقدمة الموجودة الآن.

وذلك لأنه منقول في بنياته الذهنية ونظرته للزمن والانسان والاشياء، في قيمه الكبرى والصغرى، نقلا مشوها عن الغرب سواء كان ذلك بطريقة واعية أو غير واعية فلا يكفي ادخال تعليم القرآن وأصول الدين الى المؤسسة التعليمية "العصرية" أو الغربية على الأهم لكي تصبح عربية اصيلة، فالمؤسسة المدرسية هي نتاج اجتماعي يستمد وظيفته، وفاعليته ومعناه العميق من التركيبة الاجتماعية التي نشأ فيها انه صورة ملخصة للمجتمع الذي نشأ فيه ولذلك لا يمكن التعامل معه كما نتعامل مع الأشياء الجامدة انه يحمل في طياته جراثيم اجتماعية متعددة ستسري لا محالة في الجسم الاجتماعي الجديد المتقبل له

وليس هذا الكلام من باب الشقشقة اللفظية بل ان هناك عدة أبحاث تثبت ذلك

فلقد تم القيام بدراسة ميدانية على عينة من الشباب المدرسي لبلدان الخليج تتراوح سنه ما بين ١٦ ـ ٢٦ سنة إناثا وذكورا يقدر عدده بـ ٢٧١٤ وعلى عينة من أساتذة التعليم العالي بنفس البلدان مكونة من ٢٤٠ مدرساً، وعينة ثالثة من أساتذة التعليم الثانوي تشتمل على ٥٠٣ أساتذة، وعينة رابعة لدور النشر والطباعة تحتوي على ١٩ دارا وكانت النتائج الاجمالية المختصرة جدا كما يلي:

١ بالنسبة للطلبة:

- يفضل الطلبة القراءات الأدبية المكتوبة بلغة مبسطة أمثال أعمال الروائيين المصريين: **نجيب محفوظ، ويوسف ادريس، واحسان عبد القدوس،** ويهملون القراءات الكلاسيكية مثل الشعر الجاهلي والقديم بصفة عامة
- يوجد ضعف كبير في انتشار الكتب اليسارية والكتب الدينية في الأوساط الطلابية
- يوجد ضعف كبير في انتشار الكتب الفكرية والكتب الدينية في الأوساط الطلاب.
- يوجد ميل كبير للمسرحيات والأفلام الفكاهية وأفلام العنف على غيرها من المسرحيات والأفلام بما في ذلك الدينية منها.

٢ **بالنسبة لأساتذة التعليم العالي:**

يُجمع أساتذة التعليم العالي على ان هذا الأخير مصاب بعيب أساسي ألا وهو: عدم قدرته على تكوين الذهنية العلمية وروح الخلق لدى الطالب. ويُرجعون ذلك الى طبيعة البنيات الثقافية لبلدان الخليج

أما المشاكل الثقافية المطروحة بإلحاح، فيصنفها أساتذة التعليم العالي كما يلي:

أ ـ انتشار الأمية.

ب ـ صعوبة انتاج ونشر الكتب.

جـ ـ انعدام الكتاب اللائق للطفل.
د ـ ضعف برامج التلفزة والاذاعة

أساتذة الثانوي:

يؤكد أساتذة التعليم الثانوي بأن اهم مشكل يعاني منه هذا الأخير هو عدم رغبة التلاميذ في التكوين نتيجة لضعف الدوافع كما يعتبرون وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية المتردية من أهم العوائق التي تقف في وجه تأديتهم لواجبهم الثقافي والعلمي على أحسن وجه

أما البحث الميداني الثاني فقد قام به الدكتور عبد القادر زيدان الأستاذ بكلية علوم التربية بجامعة الرياض على عينه من تلاميذ ثانوية الجزيرة تقدر بـ (٤٣) تلميذا وذلك للتعرف على ميولهم العميقة في ميدان التعليم.

وقد اعطى هذا البحث في اختصار النتائج التالية:

- الميول الفنية ـ من ٥٧٪ الى ٥٤٪
- الميول الادارية والاجتماعية ـ من ٥٢٪ الى ٥٠٪
- الميول الأدبية ـ ٤٧٪
- الميول العلمية ـ ٤٠٪
- الميول الميكانيكية ـ ٢٩٪

وبدون الدخول في التفاصيل يتجلى بأن الأنظمة المدرسية الموجودة اليوم في أغلب البلدان العربية ان لم نقل في كل البلاد العربية عاجزة من ناحيتين:

١ ـ هي عاجزة من ناحية على اشباع الشباب بالقيم العربية الاسلامية المنشودة. وهي عاجزة من ناحية ثانية عن تلقين الشباب قيم الفعالية الفكرية العلمية التي قامت عليها حضارة الغرب في بدايتها.

كما انها في نفس الوقت قادرة مرتين:

١ ـ قادرة على التوظيف وبقرطة المجتمع وتعقيد الحياة الاجتماعية بدون

مبرر والبيروقراطية الحديثة كما تعلم هي ظاهرة غريبة في نشأتها وتضخمها

٢ ـ وقادرة على خلق الاستهلاك الثقافي الرديء والاستهلاك الاقتصادي المصطنع لبضائع الغرب.

وهكذا فالنظام المدرسي القائم اليوم في البلاد العربية يشبه المؤسسة الدعائية لأسلوب الاستهلاك الثقافي والاقتصادي الغربي ـ أكثر منه مؤسسة علمية قادرة على تطوير قوة الخلق والاكتشاف والاعتماد على الذات لدى الفرد والمجتمع العربي.

ان وظيفته الأساسية الكامنة والمستترة هي ان يجعل منا أسواقاً عصرية للإنتاج الغربي الحديث المادي منه والشبه ثقافي ـ وأن تكون شعوبنا وأوطاننا سوقا عصرية كانت أو تقليدية لأوطان اخرى فهذه هي التبعية بعينها.

وفي خلاصة القول نستطيع ان نقول بأن التجربة التنموية العربية تلاقي صعوبات جمة نتيجة لمفهوم التنمية الضمني أو المعلن الذي قامت على اساسه والذي يميل الى اعتبار التخلف حالة تخص بلدا في حد ذاته وبالتالي فلابد للنمو أن ينظر لنفس المقاييس. بينما التخلف علاقات قوة وهيمنة بين بلدين وأكثر والنمو هو التخلص الايجابي من علاقات الهيمنة والنفوذ في كل الميادين بالاعتماد على القوة الذاتية على الخصوص.

ـ فقد اشترينا تكنلوجيا من الغرب كانت في صالحه أكثر مما هي في صالحنا

ـ وقد اشترينا أنظمة مدرسيه وادارية وحتى سياسية في بعض الأحيان كانت في صالحه أكثر من صالحنا

ـ وقد اشترينا اسلحة من الغرب بأثمان باهظة كانت في صالحه أكثر من صالحنا اذ انها لم تمكننا حتى من الدفاع عن أنفسنا ضد اسرائيل التي ما هي في نهاية المطاف الا كيان عدواني مصطنع وضعه الغرب وباركه واستغله بقيادة أمريكا لإجهاض كل تجربة تنموية جادة وكل محاولة رزينة في طريق الوحدة الشاملة

فما الذي يدفعنا للاستمرار في هذه الطريق رغم كل النكسات. ان هناك حبالاً خفية وقوية تشدنا اليه انها حبال التبعية اللاواعية التي تنسج

خيوطها البنوك والمصارف الكبرى والشركات المتعددة الجنسيات وانتشار القيم الغربية من انماط الاستهلاك الى انماط الحلق والتدخين فضلا عن انماط التفكير والتسيير

ولا يمكن الخلاص الايجابي من هذه الدوامة الا بتوفير الشروط الضرورية لذلك فيمكن ان تستمر بعض الدول العربية في انفاق أكثر من ١/١٠ انتاجها للتسلح مثل ما كان الأمر بالنسبة لمصر وسوريا والعراق والأردن خلال سنوات ١٩٧٥ ـ ١٩٧٠م وهي أرفع النسب في العالم.

بينما كانت في نفس الفترة دول مثل ليبيا والمملكة العربية السعودية والسودان والصومال تنفق بين ٥,١٠٪ من انتاجها من أجل التسلح.

لابد أن يكون الاعداد جماعياً يبدأ بالتعاون والتكامل العربي في كل الميادين، المالي منها والبشري والثقافي والعسكري الخ وينتهي بالوحدة الشاملة، فأين وصلنا على هذا الطريق.

ماعدا بعض التجارب الوحدوية التي انتهت بالفشل مثل تجربة الوحدة بين سوريا ومصر وهي أهم التجارب لا يوجد في الوقت الحاضر الا بعض الهياكل والمؤسسات التعاونية المنبثقة عن الجامعة العربية مثل الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي وبقية المؤسسات التابعة للمجلس الاقتصادي. ويعتبر مؤتمر القمة الحادي عشر للجامعة العربية الذي تم بعمان مؤتمر بداية الرشد الاقتصادي بالنسبة للدول العربية اذ وقع فيه تعديل مهام المجلس الاقتصادي الاستشاري وأنيطت به خمس مهام أساسية هي:

١ ـ مهمة التخطيط واعداد استراتيجية العمل العربي المشترك والخطط القومية المترتبة على ذلك

٢ مهمة الاشراف على المنظمات العربية المتخصصة العاملة في الميدان الاقتصادي والاجتماعي

٣ مهمة تقويم الأداء لكل مؤسسة اقتصادية قومية.

٤ مهمة المبادرة في اقتراح انشاء أو الغاء أي مؤسسة اقتصادية

٥ مهمة رسم السياسات والعلاقات الاقتصادية مع العالم الخارجي

كما كلفت لجنة وزارية سداسية في نفس المؤتمر باعادة النظر في الاتفاقيات الاقتصادية القائمة بين مختلف الدول العربية وأهمها اتفاقية الاستثمار العربي، واتفاقية التبادل وانتقال السلع بين الاقطار العربية على أساس وثيقة الاستراتيجية التي صادق عليها المؤتمر والتي تحتوي كل أهداف أساسية

١ تحرير الانسان العربي وتحرير قدراته الابداعية

٢ توفير وتكريس الأمن بكل عناصره الفكرية والعسكرية والغذائية والتكنلوجية

٣ مجابهة التحدي الصهيوني.

٤ القيام بالتنمية الشاملة بالاعتماد على الجهد العربي الذاتي.

٥ المساهمة الفعالة في اقامة نظام اقتصادي دولي جديد.

وقد ركزت الوثيقة على هدفين مترادفين:

أولاهما: الأمن. وثانيهما: الانماء

وقد اعتبر المؤتمر: أن الأمن القومي يستلزم وجود قاعدة اقتصادية صلبة لا توفرها الا التنمية العربية الشاملة وفي الوقت نفسه فان الأمن يوفر السياج الواقي للمنجزات الإنمائية كما لخص ذلك الدكتور عبد المحسن زلزلة أحد الخبراء العرب الذين ساهموا في اعداد الوثيقة.

كما اتخذت القمة قرارات تحدد العلاقات الاقتصادية بين مختلف الدول العربية وذلك في اطار ما سمي "بميثاق العمل الاقتصادي القومي" وهذا لكي لا تتعرض للخلافات العربية العابرة، كما عدل مؤتمر القمة الحادي عشر المادة الثامنة من معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي

المصادق عليه سنة ١٩٥٣م من طرف الدول العربية.

وبهذا التعديل أصبح المجلس الاقتصادي يمثل الهيئة المركزية للتخطيط القومي، لا يضم وزراء الاقتصاد فقط بل يضم كذلك وزراء الخارجية والوزراء المتخصصين في القطاعات المتدارسة أو ممثليهم.

كما بلور المجلس الاقتصادي بمساعدة المؤسسات المختصة التابعة له خطة انمائية قومية خماسية لسنوات ٨١ ـ ٨٥ وحدد له ميزانية تقدر بـ ١٥ مليار دولار

من أجل كل هذه المعطيات تعتبر القمة العربية الحادية عشرة بداية الوعي الاقتصادي القومي. الا ان تنفيذ قراراتها ـ لا زال يصطدم بعدة عراقيل ناجمة عن تعدد الهيئات التنفيذية واختلاط المهام بين المؤسسات القومية والقطرية وضعف التخطيط والانجاز في بعض الأقطار العربية.

وبالاضافة الى هذه المساعي الشمولية على مستوى مجموع الأقطار العربية توجد مساعٍ تنسيقية تندرج ضمن المسيرة العامة مثل المساعي التي تقوم بها دول الخليج والمبادرات التي برزت في شكل جلي هذه السنة في المغرب العربي.

والذي يؤخذ عادة على هذه المجهودات القومية انها تسير ببطء، وأن تدبرها والتخطيط لها يتم في إطار ضيق لا يسهم فيه مختلف الفئات والقطاعات الشعبية والمثقفة رغم ان مثل هذه الأعمال لا يمكن ان يكتب لها النجاح الا اذا تظافرت جهود الجميع.

كما يؤخذ عليها من الناحية النظرية أنها في أغلب الأحيان تعد محاكاة لبرامج ومؤسسات السوق الأروبية المشتركة والأمم المتحدة وهي بالتالي غير مطابقة لواقع وتاريخ وامكانيات الأمة العربية

والى ان تتغير الأوضاع تغيرا جذريا فان العالم العربي اليوم ينقسم الى قسمين أو منطقتين:

١ ـ منطقة اليسر العربي. وهي منطقة تعرف في أغلبها ثراء مفاجئا لانُموًا متوازيا.

٢ ـ منطقة العسر العربي وهي منطقة تنعدم فيها المنهجية التنموية الصحيحة

في اغلب الأحيان زيادة على عدم توفر الثروة.

ويوجد اليوم بين المنطقين تكامل سلبي ما زالت المساعي مبذولة داخل الجامعة العربية وخارجها من أجل تحويله الى تكامل ايجابي.

الا ان هذه المجهودات لم تصل بعد الى وضع حد لتلك السلبيات وذلك لضعف الاهتمام بالمستقبل البعيد تحت تأثير الرخاء واليسر الموفرين الآن في بعض البلدان.

وانتشار أنماط الاستهلاك البذخي.

وتزايد ارتباط الاقطار العربية بالسوق الرأسمالية

كما أنه لا زالت المدخرات والفوائض النفطية المتراكمة والتي تقدر في سنة ١٩٧٨م بحوالي ١٤٠ مليار دولار يستفيد منها الغرب وأمريكا أكثر مما نستفيد منها نحن.

- ولأن أجهزة تعلمنا في محيطنا الثقافي بصفة عامة لازالت غير قادرة على خلق الانسان الذي بإمكانه ان يغير بسرعة هذه الوضعية وما دامت الحالة هذه فسيكون أمن الأمة العربية مهددا أردنا ذلك أم أبينا.

وكلامي هذا ليس من باب التشاؤم، بل من باب الحق والحقيقة والرجوع الى الحق فضيلة دنيوية واخروية وأمنية بالخصوص. ومع ذلك فنحن نؤمن ان بعد العسر يسرا. كما نؤمن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

عوامل الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية

الأستاذ محمد أحمد جمال*

أود أن نتساءل أولا: ما هو سبب الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية؟ ونتساءل ثانيا: لماذا كان الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية هو السبيل الميسر للغزو الفكري والخلقي الاجنبي في مجالات الاعلام، والتعليم والتربية والثقافة والاقتصاد، وفي البيئات الاجتماعية أيضا؟

الجواب على السؤال الأول: ان الاستعمار الفكري والسياسي الاجنبي، غربيا كان ام شرقيا، وان كان الغربي هو الغالب، هو السبب الرئيسي، أو هو المقدمة لكل النتائج التي اثرها فيها بعد من عقائد ومبادىء واخلاق وأفكار وشعارات.

الجواب على السؤال الثاني: ان هذه العقائد والمبادىء والاخلاق والأفكار والشعارات الوافدة ـ من غرب أو من شرق ـ كانت من السبل الممهدة لمزيد من الغزو الفكري والخلقي الأجنبي ربما كان اقوى اثرا، وأعمق رسوخا من سابقه الذي تسرب خلال الاستعمار السياسي والعسكري، ولنتسمع الى مايقوله بعض المفكرين والمؤرخين الغربيين انفسهم من مقاصد (الاستعمار) وآثاره في المجتمعات الاسلامية ـ عربية وغير عربية ـ

يقول برنارد لويس في كتابه **(الغرب والشرق الأسط)** ان ادخال القومية العلمانية الى الشرق الأوسط كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب بالاسلام في هذه المنطقة.

---

* جامعة أم القرى. مكة المكرمة

ويصف جيمس موريس في كتابه **الملوك الهاشميون** السياسة الاستعمارية الانجليزية بالغرور والشذوذ والخداع. حين يقول: ان بريطانيا لم تف بوعدها للعرب الذي كانت كلمة الانجليزي عندهم ـ كما يقول المؤلف ـ رمزا للصمود والوفاء!

وتحضرنا هنا ونحن نتحدث بايجاز عن الاستعمار الانجليزي خطبة (**غلادستون**) في مجلس العموم البريطاني، التي اعلن فيها بمنتهى الصراحة والوقاحة قوله:

(لن يهدأ بال أوربا ما بقي القرآن في ايدي المسلمين، وما دام المسلمون يرعون اجتماع (**الجمعة**)بينهم، وما دام الأزهر معمورا بمدرسيه وطلابه في مصر، وما ظلت وفود الحجاج تهوي أفئدتها الى البيت الحرام في مكة.)!

وكموقف غلادستون الحاقد على الاسلام والعروبة في مجلس العموم البريطاني، وقف (**غوردو**) القائد الفرنسي الذي احتل سوريا، وأراد ان يشفي ظمأ طبيعته الحمقاء التي هزمها صلاح الدين الأيوبي شر هزيمة، قد ذهب غوردو الى قبر صلاح الدين وبصق عليه، وقال في بلاهة الشامت وجبن الحي الذي يتعالى على ميت: ها قد عدنا مرة اخرى رغم انفك، ياصلاح الدين، فانهض لترانا في سوريا!

ومثله القائد الانجليزي (**اللبني**) الذي قال عندما دخل القدس بعد هزيمة الأتراك، قال متهكما: (الآن. انتهت الحروب الصليبية).

ونعود الى ايجاز ما سود به التاريخ المعاصر صفحات الاستعمار الغربي للبلاد العربية أو الاسلامية، فنذكر ما كتبته الدكتورة زهيرة عابدين في تقرير لها سنة ١٣٨٤هـ عن الاستعمار الغربي لافريقيا. حيث قالت: ان المسلمين الأفارقة يعيشون في فقر وجهل وذل اجتماعي وذلك نتيجة للسياسة الاستعمارية الغربية التي دأبت على محاربة الاسلام، ونشر المسيحية، ووضع القيادات والرئاسات في دول افريقيا في أيدي المتنصرين من الأفارقة، أو المثقفين ثقافة غربية!

ويقول الاستاذ حافظ وهبه في كتابه (**خمسون عاما في جزيرة العرب**): ان الانجليز لا يهمهم الا مصالحهم، والأروبيون عامة لا يعملون الا لمصالح بلادهم، ثم يأسف الاستاذ حافظ وهبه اسفا شديدا على موقف الانجليز الغادر تجاه أصدقائهم من العرب الذين وقفوا الى جانبهم خلال الحرب العالمية الثانية

وفي كتاب (**الاسلام في التاريخ الحديث**) يقول مؤلفه ـ ولفرد كانتول ـ ان الاستعمار الغربي وجه كل اسلحته العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية لحرب الاسلام. وان الغرب خلق اسرائيل في قلب العالم الاسلامي كجزء من هذا المخطط.

وأروع ما في هذا الاعتراف والشهادات التاريخية عن الاستعمار السياسي والعسكري الغربي للعالم العربي أو الاسلامي، ما ينبه اليه المفكر الاسلامي أبو الاعلى المودودي رحمه الله حين يقول: ان كل الجرائم الاستعمارية التي ارتكبها الغرب في المجتمعات الاسلامية من بطش وتنكيل، واحتلال للأوطان واستغلال للانسان، لا تساوي ظلما ارتكبه الاستعمار الغربي حين فرض على هذه المجتمعات الاسلامية أنظمته التعليمية والتربوية الغريبة عن معتقداتنا وعاداتنا، فأنشأ بذلك اجيالا من شبابنا تنكرت لشخصيتها الاسلامية وابغضت دينها، واحتقرت تاريخها.

وقد اعترف القس (زويمر) في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م بان الاستعماريين الغربيين نجحوا في استبعاد التربية الاسلامية من جميع المدارس والجامعات العربية، ويجب ان لا ننسى ما أنزله الاستعمار الشيوعي المتمثل في روسيا بمستعمراتها في آسيا وافريقيا وشرق اوربا. من استبداد واستعباد وتشريد وتجويع وتعذيب ونفي وتنكيل وتقتيل. والشيوعيون يعادون الاسلام، ويحرصون على استعباد المسلمين لتحويلهم الى ماديين ملحدين، لأن الدين في معتقداتهم، افيون الشعوب، وشعار مذهبهم الشيوعي: (الا إله والحياة مادة).

وعلى اية حال فالاستعمار سواء أكان غربيا أم شرقيا: ملة واحدة في أهدافه ومقاصده وتحركاته المعادية للشعوب العربية والاسلامية. وان اختلفت الأساليب والأدوات والأفكار ومبادىء كل منها عن الآخر، التي يتخذها من اجل الانتصار في غزوه الفكري والخلقي والعقدي لعالمنا العربي والاسلامي

وقد رأينا من مظاهر الاستعمار غير المباشر، وهو ما اطلقنا عليه (الغزو) الفكري والخلقي: المحاولات التي بذلها المستعمرون لاستبدال اللهجات العامية في البلاد العربية باللغة الفصحى، الدعوة الى استعمال الحروف اللاتينية في الكتابة والتدوين. كما فعل مصطفى اتاتورك في تركيا في اعقاب استيلائه على الحكم بعد انهيار الخلافة الاسلامية العثمانية اذ استبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

ومن ذلك تشجيعهم لدعوة القاديانية الباطلة الى ابطال فريضة الجهاد، وشغل المسلمين بدعوى مرزا غلام وما جاء به من قرآن جديد.

الى جانب ظهور مفكريهم بنظريات اغراقية عقيدة وخلقا. كالدارونية والفرويدية، والدوركايمية، والماركسية، وكلها تحويل وترجمة وصياغة جديدة لتعاليم اليهود في (تلمودهم) التي دبروها ليلهوا بها النصارى والمسلمين، ويتفوقوا عليهم حكما وعلما.

كذلك من صنائع الاستعمار غير المباشر: نشوء المذاهب الصوفية المغالية، والعقائد الدينية المنحرفة، المسماة (بالاسلامية) زورا وبهتانا. وقد فرقت شمل المسلمين اعتقادا وتعبدا واخلاقا.

وهناك الدعوات القومية العنصرية التي شجعها الاستعمار غير المباشر، وغذاها بلبانه الخبيثة، ففرق بين الأمة الاسلامية الواحدة بما بعث من دعاة القومية الفارسية، والعنصرية التركية، والقومية العربية، والاعتزاز بالفرعونية المصرية..

ويجب ألا ننسى هنا ونحن نتحدث عن الغزو الأجنبي الفكري والاخلاقي، ما بذل الاستعمار غير المباشر له كل جهده، وكثيرا من ماله،

خلال دعواته ومؤتمراته، وما أصدر من كتب وصحف ومجلات عربية الوجه غربية الاتجاه.

ذلك هو (تحرير المرأة) بزعم انها مظلومة، مهضومة الحقوق في المجتمعات الاسلامية. وما يجب من مساواتها بالرجل تعليما وتربية وتوظيفا في مثل أعماله ووظائفه دون اختلاف أو تفريق، وما تقتضيه هذه الحرية أو المساواة من سفورها واختلاطها بالرجال في المكاتب والمتاجر والاسواق والأندية وأماكن اللهو واللعب.

لقد اعترف المستعمرون انفسهم في المؤثرات التحضيرية التي كانوا يعقدونها في مصر والجزائر والقدس ولبنان والعراق ـ بأن (المرأة) عنصر فعال في تربية الأطفال، والمحافظة على عقيدتهم، فيجب كما تنادوا في مؤتمراتهم تلك، التركيز على العمل في المجتمعات النسائية للتعجيل باخراج الأجيال الناشئة من اسلامها عقيدة وخلقا. عن طريق تحرير المرأة من رباط الأسرة والتزامات الزوج والولد.

ونكتفي بمثل واحد من تأثر الساسة والمفكرين العرب بالدعوات الاستعمارية الغربية، فقد أثبت الاستاذ مصطفى أمين الصحافي المصري المعروف في كتابه (**من واحد لعشرة**) بأن الزعيم المصري (سعد زغلول) رفع الحجاب عن وجه ابنة الشيخ علي يوسف في احدى حفلات بيت الأمة فانطلقت السيدات الى تقليدها، ورفعن الحجاب عن وجوههن، وكرر سعد زغلول فعلته النكراء في احتفال كبير آخر اذ رفع الحجاب عن الآنسة فكرية حسني وهي تخطب، فصفقت الجماهير استحسانا، وأصبح ذلك كأمر من قائد الثورة بنزع الحجاب.

وظهر معه، في الوقت نفسه، قاسم امين فألف كتابيه (**تحرير المرأة، والمرأة الحديثة**) باغراء من سعد زغلول. ثم دعت الدعوة نفسها الأميرة عائشة بنت محمد الخامس سلطان المغرب، فرفعت النساء المغربيات المثقفات الحجاب عن وجوههن.

ويحضرنا هنا قول (**ارنولد توريني**) المفكر الانجليزي المعاصر: ان الشرقيين لشعورهم بعقدة النقص أمام الحضارة الغربية، ورغبتهم في ان

يصبحوا متحضرين على غرار الغربيين، اخذوا عنا كل شيء الفضائل والرذائل، وبذلك طغى عليهم الطابع الغربي، وتفككت ذاتيتهم.

ونلاحظ أن توريني قد أحسن الظن فقال عنا انا أخذنا من الحضارة الغربية (فضائلها) مع رذائلها، في حين ان الواقع يثبت انا اخذنا (رذائلها) فقط اذ لو اخذنا فضائلها ايضا لكان لنا مثل تقدمها العلمي صناعيا وزراعيا وعسكريا. ولكنا بقينا في هذه المجالات عالة على الغربيين والشرقيين معا الى اليوم وما زلنا في نظرتهم الينا دولا متخلفة وان كانوا يسموننا دولا (نامية) من قبيل المجاملة في الخطاب.

كما يحضرنا ـ ونحن نتحدث عن تأثرنا بالاستعمار غير المباشر الوصف الذي اطلقه زعماء التغيير على ربائبهم من المفكرين المثقفين المسلمين عربا وغير عرب، الذين تسلموا خلال الاستعمار السياسي والعسكري، وبعد الاستقلال أزمِّة الحكم في بلادهم. فقد اطلقوا عليهم وصف (احجار في لعبة الشطرنج) يحركهم خبراؤهم القديرون من وراء الستار، كما يقول وليم غابي كار في كتاب له بهذا العنوان.

لقد بدأ الاستعمار الغربي المباشر ينحسر عن العالم الاسلامي بلدا بلدا ودولة دولة في اعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م) فتحررت منه سياسيا وعسكريا كافة الدول العربية: مصر والسودان والاردن وسوريا ولبنان والمغرب وتونس والجزائر وليبيا والكويت وقطر والبحرين وعمان وبقية دول الخليج واليمن الجنوبي ودول افريقيا الوسطى والجنوبية الخ.

وحتى (فلسطين) خرج منها الانجليز سنة (١٩٤٨)، ولكنهم سلموها لدولة اسرائيل المعتدية الظالمة وفاء منهم ـ **وبئس الوفاء** ـ بوعد بلفور سنة (١٩١٧م) لليهود باقامة وطن قومي لهم على تراب الأرض العربية المسلمة

أجل تخلص العالم الاسلامي والعربي من الاستعمار الأجنبي بقومياته المتعددة المختلفة من انجليزية وهولندية وايطالية واسبانية وغيرها.

لكن هذه (الفرصة) فرصة خروج المستعمرين الغربيين من الديار العربية والاصلامية، لم تتم. وكان الاستقلال أو التحرر من الاستعمار مزعوما أو موهوما

نعم. تخلصت الدول العربية والاسلامية من الاستعمار الأجنبي (المباشر) أي العسكري والسياسي، ودخلت في (استعمار) جديد باختيارها وطوعها. وكان الأول استعمارا اجنبيا بالحديد والنار. وكان يتمثل في سلطة مباشرة وسيطرة فعاله على سياسة البلاد العربية والاسلامية واقتصادها وتعليمها وتربيتها وكافة شؤونها الثقافية والفكرية والاجتماعية

اما الاستعمار الجديد. فقد كان عن طريق الفكر والعلم واللسان، وغير مناهج التربية والتعليم، ومن خلال المؤسسات الاعلامية اذاعة وصحافة وتلفاز.

تحت شعار التحالف المزعوم والصداقة المفتراه.

لقد تقبل قادة الثورات التحريرية في البلاد العربية والاسلامية ـ بعد فوزهم بالحكم والسيادة والسيطرة على مقاليد الأمور في شعوبهم وأوطانهم ـ تقبلوا واعتنقوا وارتضوا العقائد والمبادىء والأفكار التالية:

فكرة القومية والتعصب العنصري.

مبدأ العلمانية ـ فصل الدين عن الدولة

الاشتراكية الاقتصادية

ثم الشيوعية الخالصة

الى جانب المناهج والبرامج التعليمية والاعلامية الغريبة عن عقيدتهم الاسلامية، وخلقهم العربي الأصيل.

وكان هذا ـ في نظرنا ـ هو الأهم والأخطر نعني الاستعمار غير المباشر الذي تلقاه ورحب به الاستعداد الذاتي عند المسلمين انفسهم، وبخاصة قادتهم وكبراءهم المسيطرين على ازمة الحكم ومقاليد السياسة، والموجهين في ميادين الفكر والتربية والتعليم.

ان (الاستعداد الذاتي) لدينا للتقليد والاتباع والاندماج في بوتقة المخططات الاستعمارية، والتوجيهات الصهيونية، والمبادىء الشيوعية الملحدة، وبالتالي نقل المذاهب والأفكار والأخلاق الأجنبية الغازية الى مجتمعاتنا: من اسر ومدارس وجامعات ، وصحف ومجلات واذاعات هو

المسئول عمّا تعانيه المجتمعات العربية والاسلامية من بلاء.

وكانت هذه المنقولات أو المقتبسات - الغربية والشرقية - تقدم الى الشعوب الغافلة من قبل سادتها وكبرائها مغلفة حلوة موصوفة بأوصاف وأسماء اطلقوا عليها: التطوير، والتحرير، والتجديد، والتنمية، والتيسير، والعدالة الاجتماعية، والاشتراكية العربية.

أجل ان الاستعمار الذاتي هو الأهم والأخطر، فالاستعمار الخارجي بكل قواه العسكرية والاقتصادية عندما كان مسيطرا على الدول والشعوب العربية والاسلامية لم يستطع ان يجهز على (العروبة المسلمة) تماما. ولكن العرب انفسهم استطاعوا ان يساعدوه في الإجهاز عليها، بعد ان تحررت بلادهم من الاستعمار السياسي والعسكري المباشر، وتنادوا بأن دولهم أصبحت حرة مستقلة، وتغنوا بانهم اصبحوا سادة بلادهم واحرارا أعزاء.

اذن يجب الا نهتم بالاستعمار الأجنبي السابق، والا نضيع اعمارنا وأموالنا في شتمه ولعنه، وفي القاء الاتهام تلو الاتهام عليه بانه السبب الدائم لما يعانية العالم الاسلامي والعربي من انهيار فكري وخلقي.

كما ينبغي الا نشغل مؤتمراتنا وصحفنا ومجلاتنا وأجهزة اعلامنا، ومنابر مساجدنا. باللوم أو النقد لما سميناه (بالتيارات) الفكرية الهاجمة على المجتمعات العربية والاسلامية - من غرب وشرق -

فهذا وذاك كلاهما شبيه - في نظرنا - بما تفعله الندابات من عويل، ولطم للخدود، وشق للجيوب في جنائز الموتى او على قبورهم.

ولكن المطلوب بل المفروض على مؤسسات الأمن العام في المجتمعات العربية، ووزارات التربية والتعليم، وما يسمى بوزارات الثقافة والشباب، ووزارات الاعلام: ان تهتم بالاعداد للمستقبل اعني بتدارك الشباب العربي في مجالات التربية والتعليم والثقافة والاعلام والرياضة، وهو في مرحلته الخطيرة، مرحلة النمو والتلقي والاقتداء، وتوجيهه وجهة الخير والبر والتقوى، وابعاده عن المؤثرات والمغريات

الحضارية الوافدة أو الواردة من شرق أو من غرب. وتحصينه بثقافة اسلامية عميقة يستطيع ان يواجه بها ماسميناه الغزو الفكري والخلقي.

(فالشباب) هو أمل الانقاذ، ورجاء الخلاص مستقبلا لا حاضرا. لأن الحاضر ـ ممثلا في الكهول والشيوخ ـ لا يستطيع أن يقدم اكثر من النصائح والنذر والمناهج والمخططات.

وكذلك المؤتمرات والندوات التي يجتمع خلالها المهتمون بقضية الغزو الأجنبي فكريا واخلاقيا للمجتمعات العربية والاسلامية، هذه المؤتمرات والندوات لا تقدم اكثر من القرارات والوصايا بما يجب اتخاذه من عمل لاعادة البنيان العربي قويا صحيحا بعد انحصاره بسبب تلك الغزوات الأجنبية الفكرية والاخلاقية

أجل. لكي نعيد (الشخصية) العربية الاسلامية الأصيلة الى عقول المسلمين عربا وعجما، والى السنتهم ووجوههم وهيئاتهم، يجب ان نبدأ من الآن (بالشخصيات) ليبدلوا غدا ما نشكوه، ويحققوا ما نرجوه.

أما الكهول والشيوخ الذين تأثروا ـ باختيارهم أو رغما عنهم ـ بالحضارة الغربية والتفكير الشيوعي، وتمكن الغزو الفكري والخلقي الأجنبي من رؤوسهم وقلوبهم وجوارحهم، فلن تعود اليهم شخصيتهم العربية المسلمة مهما حضروا من مؤتمرات وندوات، ومهما سمعوا أو قرأوا من قرارات وتوصيات، أو نصائح ونذر.

ولا يسعنا ـ في الختام ـ الا ان نحيي المركز العربي للدراسات الأمنية تحية طيبة مباركة على جهوده المتتابعة من اجل تحقيق (الأمن العام) في البلاد العربية في كل مجالاته ومصادره وموارده.

ونلاحظ ان (المركز) ليس سعوديا فقط، بل هو (عربي شامل) ولذلك اتقدم اليه بالمقترحات التالية:

أولا: اصدار الكتب مشتملة على الأبحاث والدراسات القيمة لا يكفي لتطبيق قرارات الندوات والدورات التي يعقدها المركز، لذلك ينبغي

ان تبلغ خلاصات* عن هذه الدراسات والقرارات والأبحاث والدراسات الى رجال الأمن في الدول العربية، لينتفعوا بها في ممارساتهم الأمنية، ومعاملاتهم مع المواطنين.

ثانيا: ان المركز مطالب بابلاغ وزراء الاعلام في الدول العربية بنتائج أبحاثه ودراساته وقراراته الدورية حول (واقع) الاعلام العربي ـ اذاعة، وصحافة وتلفاز ـ وما طرح من آراء المفكرين والعلماء ـ خلال الدورات والندوات ـ لاصلاح الأوضاع الاعلامية العربية

ثالثاً: لأن المملكة العربية السعودية تمتاز بأنها ملتزمة بأحكام الشريعة الاسلامية، ولذلك تقل نسبة الأحداث الخلقية والجنائية فيها عن غيرها من المجتمعات العربية، ينبغي للمركز أن يسارع ـ بالتعاون مع الجامعات والمدارس ومؤسسات الأمن العام ـ الى تنفيذ مقررات الدورات والندوات أولا فأول.

---

* اضافة الى ان المركز يقوم تباعاً بابلاغ كافة الأجهزة العربية ذات العلاقة بالتوصيات والنتائج التي يحققها المركز من خلال أنشطته العلمية. فقد درج أيضاً على نشر "مختصر للدراسات الأمنية" يصدر سنويا، وقد صدر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء.

الفن والابداع في الثقافة والاعلام

الدكتور التهامي نقره*

الثقافة الاسلامية وسماحتها:

لتكون الثقافة الاسلامية صورة حية للأمة تحدد ملامح شخصيتها وتضبط اتجاهات سيرها واهدافها، وتصدر عن عقيدتها ومبادئها ونظامها وتاريخها وتراثها، ينبغي ان يكون في مقدمة ما يهتم به رجالها، أن يحولوها من نظر مجرد الى واقع حي وأن يصلوا حياة الناس بها، حتى تكون منطلقا لسلوكهم ومصدرا لشعورهم، وطابعا لنمط حياتهم. وبذلك يخرجون مدلول "الثقافة" عن المعرفة المجردة الى المعرفة الهادفة، لأن الثقافة تواكب الأمة في أحوالها المختلفة، وفي سيرها مع حركة الحياة.

واذا لم يكن للأمة شخصية ثقافية تميزها، أو سمات تنفرد بها آلت الى الاضمحلال معنويا.

وثقافة كل امة تقوم على أساس من القيم التي تسود مجتمعها، وهي العقيدة والتراث والفكر والتقاليد الاجتماعية المرعية

وأهم السمات المميزة للثقافة الاسلامية، الثبات والشمول والتوازن والوحدة، والحركة.

أما ثباتها فلأنها تعتمد على حقائق لا تتبدل وأصول لا تتغير، ومبادىء لا تبلى من ايمان وتقوى وخير وبر واخاء، وعدالة وحب واحسان، وهذه المعالم والحدود التي وضعتها الثقافة الاسلامية ليست ضوابط للكبت، لكنها نداءات للخير، حتى لا يكون المسلم كالإمعة ان أحسن الناس أحسن، وان أساءوا أساء، وذلك عملا بقول الرسول ﷺ:

(وَطّنوا انفسكم ان أحسن الناس ان تحسنوا، وان أساءوا أن تتجنبوا اساءتهم).

* رئيس قسم القرآن بالكلية الزيتونية تونس.

ومبادىء الاسلام الحنيف توحي دوما بفكرة الخلود وتقترن بما يشد الانسان اليها، وتدفعه الى الانتفاع بكل ما في وجوده في الأرض حتي يناله في السماء وتبعث فيه القدرة على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء بمثل قوتها وأقوى. **وأما الشمول** فيتمثل في ذلك التصور الشامل الذي يبدأ مع الحقيقة الالهية التي يصدر عنها الوجود كله. فالثقافة الاسلامية تأخذ من الاسلام شموله وسعته، لذلك فهي تعرض الحياة متصلة متناسقة محكومة بقانون واحد كبير، في حين ان بعض الثقافات الأخرى تعرض الثقافة مقطعة الأوصال، مفرقة الأجزاء من خلال الجنس، أو المال أو الصراع الطبقي أو من خلال التفسير المادي للتاريخ ومن المسلم به ان الحقيقة الأشمل هي الحقيقة الأجمل.

فهذه الهوة التي تفصل الانسان عن ذاته، وتفصل الكون عن الله هي التي يملؤها الاسلام في روح الانسان، ليجعل لوجوده هدفا ومعنى.

وأما التوازن فتلاحظه في الثقافة الاسلامية بين الجوانب المختلفة المادية والروحية والفكرية والوجدانية ولو اقتصرت على جانب واحد من جوانب الحياة، أو أشبعت جانبا على حساب جانب آخر، لما استطاعت ان تستجيب لطبيعة الانسان ونزعاته الفطرية واختل التوازن الذي أراده القرآن.

فعنصر التوازن في الاسلام أصيل لأنه يقدم تعاليمه على أساس التوازن بين المادة والروح.

جاء رجل من مجتمع علماني ليتعرف على الاسلام، فكانت دهشته في نهاية الأمر عظيمة حين قال: لقد أجفلت أول الأمر لا لاهتمام القرآن بالأمور الروحية فحسب، بل لاهتمامه أيضا بكثير من وجوه الحياة التي كانت تبدو لي تافهة، الاَّ أنني مع الزمن بدأت أفهم أنه اذا كان الانسان حقا وحدة كاملة من جسد وروح، فإنه ليس هناك وجه من وجوه حياته يمكن ان يكون من التفاهة بحيث لا يقع داخل نطاق الاسلام.

ولا شك ان لهذا الجانب الموحد من الفلسفة الاسلامية نتائج ايجابية في مجالات النشاط الانساني.

أما الوحدة فان عقيدة التوحيد التي هي الدعامة الأولى للثقافة الاسلامية تتلخص في وحدانية الله، وعنها نشأت وحدة الخلق، أي الوحدة الحق بين المادة والروح، وكذلك وحدة العلم والايمان، ووحدة الدنيوي والروحي، وكذلك الوحدة الانسانية، فلا تفرقها الألوان والأجناس والأقاليم.

فالاسلام لا يعتبر كل جيل أمة مستقلة، بل يعتبر الأجيال كلها رغم تباعد الزمان والمكان أمة واحدة. لذلك خاطب القرآن الرسل بنداء واحد رغم تباعد الأزمان التي تفصل بينهم فقال تعالى:

﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم، وانَّ هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون﴾[1]

وأما الحركة فهي أن علوم الوسائل والمقاصد وعلوم الدنيا والدين تدور كلها حول محور واحد، وتجعل حركة كل واحد منها مرتبطة بحركة سائرها، والدوافع لهذه الحركات العلمية وهو المبدأ الايماني الذي به طلبت العلوم، واليه تتجه نتائجها.

أما اليوم فقد توزعت الشخصية الاسلامية بين خطين متوازيين لا يلتقيان، خط المعارف الدينية، وخط المعارف العصرية، فبقيت في مفترق الطرق، لأنها لم تجد الاطمئنان الى متابعة سبيل يفصلها عن ذاتها، ولا الى متابعة سبيل يفصلها عن عصرها، وصارت عناصر الثقافة الاسلامية متنافرة متضاربة بين علوم دينية وعلوم سميت بالعصرية، حتى كاد الدين ينكر العصر، والعصر ينبو عن الدين، خلافا للوضع التكاملي الذي كانت عليه من قبل. أما اليوم اشتبهت السبل، وتشعبت المسالك واختلط الأصيل بالدخيل، والحقيقة بالزيف، والفن بالغثاء.

الفنون والاعلام:

لقد اصبحت الفنون الجميلة في العصر الحديث من صميم الثقافة فما هو موقف الاسلام من هذه الفنون؟ وما هي الأسس الضابطة للحركات

---

١ سورة المؤمنون. الآية: ٥١ ـ ٥٣.

الثقافية التي لا تصادم المجتمعات الاسلامية، ولا تجرفها الى حيث الانسلاخ والمسخ والضياع؟

وهذا التساؤل لا يعني الحجر على سلوك الناس أو ضبط سلوكهم في قوالب معينة، ولكنه يعني اقناعهم عن رضا لمعرفة ما يتيحه الاسلام وما لا يتيحه لحركة الانسان داخل نفسه وداخل اسرته وفي بيئته التي يعيش فيها ويتعامل معها أخذا وعطاء، حتى لا يضل عندما تنفتح أمامه آفاق جديدة تبدو له روعة الحياة وجمالها الأخاذ من خيال الأوربي وتعبيره الذاتي.

فتحديد معالم المجتمع المسلم، ووضع ضوابط لحركته في مجال الثقافة على ضوء تعاليم الاسلام مما ينقذ مجتمعاتنا في هذه الفترة التي لم يشهد تاريخها الاسلامي لها مثيلا في الانحلال الخلقي والتفسخ الاجتماعي تحت قناع الفن في كثير من الأحيان.

ومن التجني على الفن أن نجعله ذريعة الى المتع الرخيصة، واثارة الغرائز الدنيا، وما ورثناه من تراث فني لا يلزم ان يكون دائما اسلاميا حتى نعمل على احيائه فقد يكون من افرازات عصور الانحطاط، فلا بد اذن من تشخيص هذا التراث واعادة تقويمه من الوجهتين الفنية والاخلاقية لمعرفة ما يغرسه في النشء من شهامة وفتوة وبطولة أو مكر وتميُّع واستسلام، فنبقى على الصالح، وننبذ الفاسد الذي تأباه الأخلاق الرفيعة، ويأباه ديننا الحنيف.

فالقضية تتمثل في ما نراه من فن معربد ان صح التعبير ـ فيفسح له المجال في مختلف مجالات الاعلام، دون اعتبار لما ينتج عن انتشاره من ضرر وفساد، أو ما يصادم من مبادىء وقيم وتقاليد.

ومن عرف نفاذ هذا الغثاء الذي يسمونه فنا ومدى تأثيره في نفوس شبابنا وعرف ضعف بعض اقطارنا في ضعف وسائلها في الرقابة والمقاومة يدرك مدى خطورة الوضع

وفي عصرنا الحديث كاد ينحصر مفهوم الثقافة في الفنون الجميلة التي تغذي النفس، وتسمو بها عن الحياة اليومية الرتيبة.

فالمشاعر والتجارب الباطنية وما يتولد عنها من انتاج أدبي وفني تشكل

اليوم في المجتمعات المعاصرة قطاعا من أهم القطاعات، وتسهم الى حد كبير في تكييف المجتمع، وتعد عنوانا على رقي الأمة وحضارتها.

الدين والفن:

ولكن تنتابناالحيرة عندما نتساءل: ماهي ابعاد التجربة الباطنية للانسان المسلم في ميادين الفن التي أضحت كالضوء أو الظل الذي يحسم المشاعر، وهي الألوان التي تميز كل مجتمع انساني وتطبعه بطابع خاص، وهي الأرضية التي عليها يقوم الوجود الاجتماعي والحضاري بصورة عامة.

انها قضية اخرى في ثقافتنا الاسلامية المعاصرة، تفرض وجودها على الباحثين لأننا كثيرا ما نصطدم بشبهات تدور حول هذه العناصر الأساسية بالنسبة للثقافات المعاصرة. ومن هذه الشبهات مثلا ما يقال بأن الاسلام لا يساعد على نمو التعبير الفني على اختلاف أشكاله في حرية تكفل له الافادة من تجارب الآخرين.

والحقيقة ان الاسلام لم يقف يوما ضد الأشكال، لا في ميدان الحكم والادارة، ولا في ميدان الاقتصاد والاجتماع، ولا في ميدان الآداب والفنون بل هو على العكس من ذلك يعتبر ان الأشكال قضية ديناميكية لا تستقر على حال واحدة، ولا تقف عند حد.

ومن ثم فان التشبث بالشكل الواحد في كل عصر مناقض لطبيعة الحياة، وانما يرفض الاسلام كل اتجاه لا ينسجم مع نظرته الى الانسان، وكل انعكاس في عصر ساده تصرف ما، وكل تصور نابع عن افرازات مرضية يطرح غثاءها فرداً أو جماعة أو حضارة مزيفة ينتظرها التدهور والسقوط في نهاية الطريق ومن حق المجتمع الاسلامي، بل من واجب كل مجتمع ينشد الفضيلة ان يقاوم كل ما يتستر وراء الفن من ضلال وشذوذ وتفسخ، ولكن ليس من حقه ان يصادر الفن الرفيع الذي يكشف عن وجدان الانسان واحاسيسه الذاتية بمختلف وسائل التعبير، ويمتاز بسمو اهدافه وقوة تأثيره.

والمجال في الفن لا ينبع من الاتقان والجودة فحسب، بل ينبغي ان

يكون أخلاقيا، ومن هنا كان الفن الرفيع مثل الدين قائما على قواعد الأخلاق الرفيعة.

فالفن الرفيع ليس ذلك الذي يثير في النفس أحر المشاعر وأعنفها، ولكنه ذاك الذي يثير فيها أكرم المشاعر وأنبلها

فاذا أبدع الفن في تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط، وحملنا بهذا الابداع في لغته أو أسلوبه أو خياله على أن نعطف على الانحلال، ونعجب بالتفسخ فان مجتمعنا لا بد ان تسري فيه العدوى عن طريق هذا الفن المغري.

وفي اعتقادي هنالك صلة بين رجل الدين ورجل الفن، فالدين والفن كلاهما يضيء من مشكاة واحدة هي القبس العلوي الذي يملأ قلب الانسان بالراحة والصفاء والايمان. وأن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر الانسان عند اتصاله بالأثر الفني.

وتأكيد هذه الصلة بين الدين والفن يخدمهما معا، فنخدم الدين حين تستخدم وسائل الفن وطرائقه في نشر التعاليم والمبادىء الاسلامية، ونخدم الفن حين نرتفع به الى مستوى الذي يتعالى عن الاخلاط وسوء الاستغلال فيكون ذلك تكريما للفن.

وقد نشأ الفن منذ ان استيقظت في الانسان حاسة الجمال والقدرة على التعبير عنه وما استلهم الانسان قديما روائعه الا في سكون المعابد، والهياكل الدينية فالفن في أكمل صوره معبر عن أعماق تجارب الانسان الباطنية ويلتقي بالدين في اللحظة التي تستغرق المؤمن وهو يذوب حباً في الله، ·واعجاباً بما أبدع في كونه من آيات الجمال.

فأين هذه العلاقة التي تربط بين الجزء والكل، وذلك التناغم والتجاوب بين القريب والبعيد، وبين الانسان والكون من احساسه في الوجودية الملحدة بأنه غريب أو معزول عن الكون، تفصله عنه جدران سميكة لا نهاية لها أو جدران كأنها مرآة أينما نظر لا يجد الاَّ نفسه

فهذا الانفصام الشنيع هو من صنع الوجودية، هو من صنع الانسان

الوجودي ولا يمكن ان يأتينا من خارج، انه من صنع فلسفة التشاؤم والعبث.

فلماذا هذا اليأس والتمزق الداخلي ونحن لم نخلق عبثا؟

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون﴾[1] ولهذه الرؤية العبثية ألوان من المآسي والانحرافات تنكشف من وراء أقنعة الفنون. في جولة من جولات بباريس رأيت بالحي اللاتيني ما يجلب الانتباه.

فهذا رسام يضرب بفرشاته على اللوحة بجنون علّه يزيد قلقه.

وهذا عازف ينفخ في البوق نفخا متواصلا عنيفا يكاد يصم الآذان، ليصب ألمه ويدفع خوفه.

وهذا عرض مسرحي يقدم بكل سخف، وقد تحطمت فيه قواعد المعقول حتى غدت فيه كل حركة أشبه بمشية السكران، لا هدف لها ولا معنى.

وما يقال عن الحركات في المسرح يقال عن الكلمات في القصص المريضة والقصائد المائعة أو الغامضة التي تجسد العثيان والهبوط في الشكل والمضمون. فحيثما اتجهنا في هذه الفلسفة الوجودية وجدنا هذا الانعكاس الحزين للعبث والمذاقات التي لا تعطي لهؤلاء المرضى سوى العلقم.

وقد كان لهذا الفن المريض ـ ان صح التعبير ـ أسوأ أثر على أخلاق بعض شبابنا في حين ان الفن الاسلامي بمفهومه العقائدي والتصوري يمثل أوسع نظرة جمالية متفتحة على الانسان والكون، لأنه يستمد تصوراته من الحقيقة لا الزيف، ومن الصحة النفسية والنفس السوية لا المرض والانحراف، ولم يعرف في قاموسه العبثّية واللامعقولية، والحرية اللاخلاقية، ونحو ذلك من العبارات التي تنتهي في مدلولها الى الفوضى والالحاد.

الفن في التصور الاسلامي:

الفن المعبر عن روح الاسلام يرفض هذا التمزيق المشوه لكيان

---

[1] سورة المؤمنون. الآية: ١١٥

الانسان فالقصص الجنسي الذي يثير الغريزة، ويصور الحياة كلها كأنها لحظة جنسية مسعورة، وكل ما تعكسه القيم والمفاهيم، فتصور انتصار الشر كأنه سنة كونية وكذلك القصص الذي لا يهدف الى شيء وان صيغ في قوالب فنية لأن الاسلام جعل للفن هدفا أسمى من اثارة الميول الهابطة، هدفا يؤدي دوره في النفس دون أن ينفرها، فالفن يدخل عليها عن طريق الجمال، وهو طريق قريب الى الفطرة، حبيب الى الشعور

والجمال الذي يحتفي به الفن الاسلامي لا يقف عند حدود الحسن ولا يحصر في جمال المرأة، أو في قالب محدود، ولكنه الجمال بمعناه الواسع في الاحياء والطبيعة والمشاعر والتصرفات.

ان جمال الانسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، ورفع منزلته في الكون. وان جمال الكون بنجومه وشموسه وأقماره وما بينهما من تجاذب وارتباط وجمال الطبيعة بما فيها من جبال وأنهار وأشجار

وجمال المشاعر بما فيها من حب وخير ونبل.

وجمال القيم والأفكار والمبادىء

فالظلم قبح لأنه ينافي جمال العدل، والحقد قبح، لأنه ينافي جمال الحب، والانحلال قبح، لأنه ينافي جمال الخلق.

وهكذا فان كل ما يعرض لحياة البشر من انحراف واختلال هو قبح، لأنه خروج عن الجمال الذي يتسق مع ارادة الله في خلقه للكون وتصرفات الانسان فيه فاذا كان النشاط الفني تعبيرا انسانيا عن تصورات الانسان وانفعالاته واستجاباته، وعن صورة الوجود والحياة في النفس، فان هذه الانفعالات والاستجابات انما يبعثها في نفس المسلم تصورها الاسلامي بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة من حيث علاقتها ببارئها، وتصورها لحقيقة الانسان، مركزة في الكون، وغاية وجوده، ووظيفته ومصيره. الخ

وكلها يشملها التصور الاسلامي الذي هو ليس مجرد تصور عقلاني وانما هو تصور اعتقادي مؤثر، ومسيطر على كل انفعال.

ومن هنا يصح القول بأن الفن الاسلامي واقعي ملتزم، وانساني ايماني، وثوري توحيدي، وأخلاقي ايجابي، ولا يمكن ان يكون اعلامنا اسلاميا اذا لم تكن حياتنا اسلامية. بمعنى انا نعيش الاسلام، ونتفاعل معه بمشاعرنا.

فمن أبرز صفات الواقعية الاسلامية:

١ ـ ان الحقيقة عند المسلم وحدة مكونة من ثلاثة عناصر: الحق والخير والجمال. فأفكارنا غايتها الحق، وسلوكنا هدفه الخير، وعواطفنا وجهتها الجمال.

٢ ـ ان هذه الواقعية ذاتية موضوعية، لأن الفنان الحق من يرى العالم من خلال ذاته، وليس معنى ذلك انه ينطوي على نفسه، حتى تصبح ذاته هي عالمه الوحيد الذي لا شيء قبله ولا بعده. كما ان من ابرز صفات هذا الالتزام انه عفوي لا تقوم علاقته بالعطاء الفني على العسر والتكلف والاكراه.

فنبع الفن الاسلامي لا ينضب، وهو يتطلب ما يتطلبه كل فن من فكر ووجدان، واحساس وذوق، ومعرفة وتأمل، ومشاركة واندماج. المعالم والحدود التي وضعها الاسلام ليست قيودا واغلالا، ولكنها شارات حارسة لكل فنان يحب ان يرتفع بفنه، فلا يقع في التفاهة والتبذل أو الازدواج

العداء بين الاسلام والفن:

وقصة العداء بين الفن والاسلام من رواسب عهود الانحطاط وليس لها من أسس دينية الا اذا افحمنا في الفن ما ينزل بمستوى الانسان

فالقرآن الكريم يوجه الحس الى الجمال في المصابيح التي تزين السماء وفي الحدائق ذات البهجة، وفي الضحى الرائق، وفي الليل الساجي بل في الأنعام. ﴿**ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون**﴾[1].

فهو لا يدع فرصة دون توجيه المؤمن بكل الوسائل الفنية المعبرة نحو آيات الله في الكون، ومن ثم كان اللقاء متجددا في داخل النفس، وفي صفحة الكون، لا ينفد ولا يزول.

---

[1] سورة النحل. الآية: ٦

ومن أمثلة ذلك قول الله عز وجل: ﴿ان الله فالق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون. فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[1].

ان الأشياء التي عرضتها هذه الآيات تشتهي، لذلك لم يقل كما في موطن آخر من القرآن، "كلوا من ثمره اذا أثمر"، وانما قال: "انظروا" بعيون مفتوحة، وحس مستشرف لتملي الجمال، لأن المعرض معرض الجمال المبثوث في الطبيعة، والقدرة التي تبدعه

والقرآن في ذاته كتاب جميل ممتع لا ينتهي منه تاليه، حتى يحب ان يعود اليه. فأسلوبه البديع ووجهه المشرق، وروحه الصافية، لتنقل للإنسان الفه وعاداته، وتهزه هزا ليستيقظ ويتأمل.

فالانسان يعيش في القرآن مع الكون وفي لقاء جميل، والقرآن يخاطب في ذلك حسه وروحه ومن هنا تخرج من مدرسته آلاف وآلاف على مر العصور، كانوا نقادا وذواقين، لأن مخاطبة كينونة الانسان لن تؤتي ثمارها الا ان تصاغ النداءات والتعاليم، وفق احسن الاساليب فنا، وأشدها اثارة واستجابة.

وما الذي يمنع الشاعر ان يقول على لسان مؤمن يغزو الفضاء مثل هذا القول:

---

١ - سورة الأنعام. الآيات: ٩٥ - ٩٩

صاعد في الجو يبغى مأربا   في مدار الشمس أو مسرى القمر
كلما أمعن سيرا في الفضاء   وجد الأرض تناهت في الصغر
والجبال الشم في أرجائها   قد بدت في العين اشباه الأثر
أين من يملأ كبرا صدره   وارم الأنف وفي الخد صغر
يملأ الأرض فسادا طيشه   كل عود من أذاه ينصهر
هو والرحمة ضدان ولا   يعرف الرفق وان لان الحجر
أين من ينكر ربا قادرا   وهو في انعمه الغر غمر
يرتع الجاحد في خيراته   ثم يمضي وهو بطران اشر
يدعي - ظلما وزورا - انه   ليس الا العلم رب مقتدر
من علوم الأرض في علم السما   غير حشر الطير من ماء النهر
ليس عمر المرء الا ومضة   من سنين الضوء تأتي من مجر

أليس من حق الانسان اذن ان يعبر بفنه عما يدور في عقله من أفكار ويعتمل في قلبه من عواطف، ويجيش في وجدانه من مشاعر؟

أليس من حقه ان يسهم في أي ميدان من ميادين الفن مادام يرى في ذلك نتيجة تقربه الى هدفه، أو تقرب الجمهور منه، فيعرض عليهم صورا حية تحيل الكلمة الى انطلاقة، والهمسة الى صرخة، والسكون الى حركة وأضواء وظلال ولم يقف حائرا تتنازعه عوامل الاقدام والاحجام، أو يرفض الدخول من باب الفن، وقد حمل في قلبه عقيدة التوحيد.

أليس القلم من سيوف الحق يرفه الشاعر أو الكتاب المؤمن ليستنهض الهمم ويدفع الى الاحياء والتعمير، وبالعزائم الى مقاومة الشر والعدوان؟

نحن في حاجة الى دعوة أو نداء يخاطب أعماقنا دوما في قصيدة أو قصة أو لوحة، أو اغنية ليخرجنا من غربتنا عن هذه التيارات الأجنبية، ويزيغ عنا هذا الزكام.

واذا كان الفن الصادق يغرف من معين الحياة، فان الاسلام لم يصادر مباهج الحياة وزينتها، لذلك كانت الحياة في الاسلام متكاملة ترضي الجسد والروح، وتستوكب الجد والتسلية، وتستكمل الاشواق، وتستجيب لدواعي الكمال والجمال والترويح

ألم يكن الاسلام دين الفطرة؟ ومن فطرة الناس التي خلقهم عليها حبهم للترفيه، وميلهم للترويح. ولكن الاسلام احاط هذه الرغبة بسياج من الفضائل، وجعلها منوطة بنبل الأهداف، حتى لا يخرج بها الهوى الى حيث المجون والاستهتار ومعصية الله.

ففي الاسلام دائرة فسيحة اسمها المباح، تشمل ما لم يرد فيه نهي، وهي الأصل في كل شيء. ومن البدهي ان دائرة المأمورات والمحظورات تصغر بجانب دائرة المباح، كما يصغر المستثنى بجانب المستثنى منه، وحسب المباح الا يكون ضارا أو يؤدي الى ضرر والمبالغة في استعمال الشبهات توسيع لخروج الاستثناء عن اصله. وشبابنا المسلم في أشد الحاجة الى ما يملأ عليهم أوقات فراغهم من ضروب الترويح والتسلية البريئة التي تكسبهم ذوقا ومهارة وترهف احساسهم، وتعلمهم وهم يمرحون، ثم هي في الوقت نفسه تعدهم لاستئناف أعمالهم بكل جد ونشاط.

ولكن أنى لنا اليوم ما يروح عن نفوسنا من انتاج فني مقروء أو مسموع أو مرئي، لم يخل من فن وابداع في تأليفه وعرضه، ولم ينتهك الفضيلة.

لا شك ان تزايد الانتاج السينمائي على الشاشة الصغيرة والكبيرة خلال هذه الفترة وما بلغه من عمق وتأثير في تصوير أزمة العصر الحديث بكل أبعاده الفردية والأسرية والاجتماعية، باعتباره جامعا للفنون كلها، الكلمة والحركة والصورة والتعبر والموسيقى بعد ان هيأت له التكنولوجيا الحديثة من وسائل مكنته من أداء مهمته على وجه يشد الجمهور ويبهرهم، ليفرض على الأمة العربية والاسلامية الا تترك المجال الكبير، والسلاح الخطير فغيرنا ممن جعلوا من الأفلام التلفزية والسينمائية منصة يلتقي فيها قادة الفكر والفن في الغرب، ليملوا على الناس آراءهم بأسلوب جذاب ومؤثر، ويوجهوهم نحو الوجهة التي يريدونها، أو يشركوهم معهم عن طريق الايحاء النفسي في حيرتهم وقلقهم ومعاناتهم والله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم

كافرين) [1]

فالشريط السينمائي والتلفزيوني يحول الفكرة الى حركة، ويجسد القيم والاتجاهات والفسلفات التي تعمل عملها في حضارة هذا القرن، وذلك بما أصبح لها من امكانات وطاقات قد لا توجد في غيرها من الفنون الأخرى.

ومن هنا تحتم على الاعلام العربي ان يوجه عناية فائقة الى السينما الذي يعبر عنه الفن السابح، لأنه ذو حدين، فيكون الخبراء والفنيين في التمثيل والاخرج والانارة والسيناريو والتسجيل والتصوير، والالتقاط والارسال كما يقتني الأجهزة والمعدات الفنية، حتى اذا منعت المراقبة في أي بلد عربي عرض فيلم من الأفلام وجدت ما يعوضه من البدائل.

أما اذا فقدت البديل الصالح، فلا مناص من سد الفراغ ولا ننسى أن الاعلام ليس آلة فتوغرافية تسجل الصورة كما هي عليه، ولكنه تفسير للأحداث بطريقة غير مباشرة من خلال وجهة نظر معينة.

فالاسلام قادر على مواجهة تحديات العصر في مجالات الفنون على اساس الاقرار بأن المجتمعات البشرية تخضع للتطور التاريخي ولو في شكل معين وهذه الحقيقة لا تتجسم الا باخرجها من النطاق النظري المجرد إلى مخطط ومناهج عملية قابلة للتطبيق.

والواقع ان الاسلام يعيش اليوم غريبا بين اهله، لأنهم يجهلون الكثير عنه، فهو في قلوبهم كالتيار الكهربائي الضعيف، لا يدير آلة، ولا يحرك جهازا، ولا ينير مصباحا، ولا يعطي كيانا حقيقيا للأمة.

يقول المصلح الديني عبد الحميد بن باديس رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: **﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾**[2] ان الناس سواء في النعم الدنيوية والتمكن من اسباب التقدم في

---

١ سورة آل عمران. الآية: ١٠٠

٢ سورة الإسراء. الآية: ٢١

هذه الحياة، لا فرق في ذلك بين بر وفاجر، ومؤمن وكافر فلا يمنع الله كافرا لكفره أو عاصا لعصيان من اسباب الرقي والعمران، فهي مبذولة للخلق كلهم على السواء وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا، فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا لواء المدنية بالعلوم والصنائع، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم لإهمالهم تلك الأسباب. فهذه الآية من أنجح الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم وقد بينت ان المسلم لم يتأخر بسبب اسلامه، كما يزعم أعداء الاسلام.

دور الاعلام ودور المربين:

ان الاتجاهات الثقافية اليوم بما فيها الفنون الجميلة، وبخاصة الفن السابع السينما الذي مازالت تأخذ بناصيته شركات أجنبية أشبه بتيار هوائي عنيف يقتحم علينا أوطاننا وبيوتنا.

ولو افترضنا انا نملك القدرة على القيام دون تسرب هذه التيارات الى مجتمعاتنا، فقد حولنا عن غير قصد منا اهتمام بعض شبابنا نحو المنطقة المحظورة لحب الاطلاع على الأقل، وقد رأينا نحن الذين هم أقرب من غيرنا تاريخيا وجغرافيا الى مواطن هذه الحضارات وهذه التيارات بالبحر الأبيض المتوسط، ان طائفة من الشباب الذين حرص أولياؤهم ان يسدوا على أعينهم الستائر والحجب كيلا يروا الا ما يسمح به منظورهم ان يروه، ولا يعرفون من شئونها الا ما يحبون ان يعرفوه، كانت ردود فعلهم لما تفتحت عيونهم وآذانهم على هذه الأنماط الخلابة من الحياة المعاصرة نحيفة، اذ تاهوا في الغواية، وفقدوا توازنهم، وعجزوا عن الانسجام مع ذواتهم وشخصياتهم، فانجذبوا مدفوعين نحوها.

ومن الخطأ ان نفهم الدعوة الى عدم الافراط والمبالغة في تشديد المراقبة على المراهقين الشباب هي دعوة الى التهاون والاهمال أو منحهم مطلق الحرية في التصرف والسلوك، لأني رأيت بالتجربة ان العقول والعواطف كالأجسام تفقدها المغالاة في المحافظة عليها من الجراثيم

والأمراض الحصانة والمنعة وتجعلها أكثر تعرضا اليها، وأقل احتمالا ومقاومة لها.

ونحن نرى اليوم بعض الأسر المحافظة كثيرا ما تشتد في التحصينات الشكلية ولكنها تترك أولادها خواء من أجل حصانة ذاتية وداخلية، فينزلقون عندما تزول هذه الحواجز المصطنعة لأنهم لم يتزودوا بما يقف كالأمصال الواقية في وجه التيارات الهدامة ثم اننا في الوقت نفسه نجد غلاة آخرين، لكن في اتجاه معاكس، أولئك الذين يضيقون في دائرة المباح، ويوسعون في دائرة المحرمات ولا يرون في نسق الحياة العصرية الا الخطر والشر، فأعلنوا رفضها جملة وتفصيلا والتطرف في جانب لا يتيح الَّا تطرفا مماثلا في الجانب المقابل.

فمنهج التربية السليم تجنب الإفراط والمغالاة في التشديد أو في التسامح وهنا يأتي دور الاعلام التربوي بما يقدمه للناشئة الاسلامية من غذاء فكري ووجداني وتربية اخلاقية وجمالية، وفن سام، ودراسات هادفة في مختلف المعرفة

ولا يلزم ان يكون العمل الاعلامي الواحد يخاطب الجمهور على اختلاف درجاته من الثقافة والمعرفة، فان وجد عملان فنيان كلاهما جيد من الوجهة الفنية احدهما يخاطب فئة ثقافتها عالية، والآخر يخاطب فئة أقل ثقافة، فانهما على درجة عالية واحدة من الفضل، لأن المهم مراعاة النفع والاجادة الفنية فلايطغى الكم على الكيف. اذ ان الأسلوب الفني في العرض والتقديم هو الذي يجذب الجمهور ويشده اليه ولا يمنع ذلك من تحديد هذا الجمهور ومعرفة مستواه، وتفهم حاجاته وتطلعاته، ولا سيما الأطفال والشباب وقد قال الرسول ﷺ (امرت ان انزل الناس منازلهم، وأن أخاطب الناس على قدر عقولهم).

كما ان الاعلام الاسلامي ليس مواعظ تلقى، أو خطبا تتلى، أو أحاديث دينية تذاع، فان الطريق المباشر في التربية والتوجيه قد لا يفيد كثيرا في هذا العصر، والحقيقة تضيع اذا قدمت في اطار رديء يطفىء بهاءها، فكان من أوكد الواجبات تطوير اجهزة الاتصال الجماهيري ووسائله،

وجعلها أكثر فاعلية وحيوية ترفه على الجمهور وتنشطه وتوجهه، وتوعيه بأهمية دوره في التنمية الوطنية الشاملة وتقوي فيه ارادة التغيير، وروح المبادرة وكل ذلك يحتاج الى جهد متواصل لاكتساب الخبرة، وحذق التعليم وحس الاستعمال والذي يجب ان تعيه الأمة العربية لتصليح شئونها في مختلف نواحي الحياة بعد ان أزاحت ما كانت ترزح فيه من قيود الاستعمار أن تؤمن بأن أحداث الحياة لا تمهل، وعجلة التطور لا تقف ، وتنازع البقاء لا ينتهي والغلبة للأقوى والبقاء للأصلح هو القانون العملي.

فعلى اعلامنا العربي ان يستقطب كل ما يوجه الى عملين متوازنين:

عمل من الداخل يوقد جذوره الايمان في القلوب التي خمدت، ويبعث القوة في العزائم التي وهنت، ويكبح أهواء النفوس التي جمحت، ويعمل على التوعية الهادفة وعلى تعبئة الطاقات المادية والروحية لتحقيق الأهداف الوطنية.

وعمل من الخارج يحسن الانتقاء والاختيار لما يقدم من ثقافات أجنبية، أو يعرض من برنامج تلفزيونية ويعزز التعاون وينميه بين الأقطار العربية في مختلف المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية، حتى تكون بينهم وحدة ثابتة الأركان، وقوة ترهب عدو الله وعدوهم، وتقف في وجه البغي والعدوان وحسبنا ان نرى في عصرنا كيف يتحد الشيوعيون والماسونيون وغيرهم ممن ينتمون الى مذهب أو ايديولوجية واحدة رغم اختلاف أجناسهم وأوطانهم ولغاتهم، لأن هذه الوحدة ترتكز على دعامة قوية، وهي المبادىء التي غرستها في نفوسهم جميعا ثقافة معينة.

فكيف بالثقافة الاسلامية العربية ومصدرها الموحد عقيدة التوحيد وبها سادت الأمة وصنعت المعجزات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وسائل التحصن من الاعلام الخارجي

الدكتور احمد صدقي الدجاني*

كل قضية في عالمنا المعاصر لها بعدها العالمي، نحن امام وضع مميز لم يعرف تاريخ الانسانية له مثيلا، ولم يكن حال اية أمة من قبل كحال امتنا اليوم، فهي على اتصال وثيق بالأمم الأخرى وطبيعي ان ينجم عن هذا اخذ وعطاء وتفاعل وقد وصف احد الكتاب المعاصرين هذا الوضع فقال:

ان هذا الوضع لأمتنا العربية يتميز بالانطلاق النافذ، والتغير المتسارع والتشابك والتعقد والاتساع والشمول[1]

ولا نغفل في عالمنا المعاصر الحضارة الحديثة وعن امكانات هذه الحضارة: فمنجزاتها المادية هائلة، وكذلك منجزاتها العلمية.

ان حرية الانسان في مجتمع ما وبين اقرانه قضية اخذت اهميتها ولكن هذه الحضارة الحديثة تعاني من مفارقات عجيبة.

هناك تفوق في التطوير العلمي والتقني لكنه ليس شاملا، فهناك شعوب متقدمة. وهناك شعوب متأخرة ما زالت تعيش بعيدة عن هذا التقدم، وما زلت اذكر العالم الذي كان يرأس مؤتمر العلوم السياسية الدولي وكان منعقدا في موسكو سنة ١٩٧٩م وهو يبحث عن التحدي الكبير الذي يواجه عالمنا، لأن ثلاثة ارباع سكانه ما زالوا يعيشون في تخلف، وقد تساءل اذا كنا بربع هذا العالم حققنا هذه الانجازات فكيف نسخّر العقل الانساني كله

هناك مفارقة أخرى بين التطور التقني وتطور الأفكار والنظم فما زال هنالك تخلف في كثر من النظم عن مسايرة الركب.

وهناك مفارقة كبيرة بين التطور التقني والتطور الخلقي، إنها أزمة

---

* رئيس المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم بمنظمة التحرير الفلسطينية.

١ في معركة الحضارة: قسطنطين زريق.

حقيقية خلقية نلاحظها في المجتمعات الحديثة ويعبر عنها بأساليب مختلفة بأنها تحتاج الى معالجة

وهناك مفارقة كبيرة بين تطور الشعوب ورغباتها وبين قدراتها، نحن نعيش في عالمنا المعاصر هذا، فلنتمثل حقائقه، كي نحس التعامل مع مشكلاته وتحدياته، لأن العالم له تقسيماته وله مشكلاته وله تحدياته

ننتقل الى وجه آخر بعد ان عرفنا أمتنا وعالمنا المعاصر، دعونا نركز النظر على اهم ما في دورتكم على عملية التفاعل الحضاري، ولقد قرأت صباح اليوم النشرة الملحقة بهذه الدورة، وتساءلت انها تنبهت الى هذا الموضوع ووضعت يدها عليه، فنحن حين نتحدث عن اعلام خارجي، وعن افكاره وعن وسائل التحصن، فانما نحكي في حقيقة الأمر عن عملية تفاعل حضاري، فلنحاول أن نتعمق في فهم هذه العملية

ابن خلدون تحدث عن علم العمران البشري ووضع فيه نظريته ثم تطور هذا العلم وتقدم كثيرا في القرن الأخير على عدة من علماء الاجتماع وعلماء فلسفة التاريخ، وصدر في ما صدر كتاب (**شنيدار**) وكتاب (**تويني في التاريخ**) الذي هو من اشمل الكتب عن قيام الحضارات.

وصدر في مكتبتنا العربية عدة من الكتب التي تناولت هذا الموضوع ولكن اشملها هو كتاب قسطنطين زريق (**في معركة الحضارة**).

الحضارة نعرفها جميعا بأنها الجهد المبذول في امة لتحقيق حياة اكثر رقيا وتقدما، والرقي والتقدم على الصعيدين المادي والمعنوي، وقد شهد التاريخ الانساني كثيرا من الحضارات ومن ثم شهد مجموعة ظواهر

فالحضارات تتواصل وتتفاعل، ومن خصائصها انها حركية تتميز بالديناميكية مع انها تتغير وتتطور، فطبيعة الانسان انه يتعلم ويُعلِّم، وانه يُقلَّد ويُقلِّد، وأنه يأخذ ويعطي هذا التبادل في المجتمع الواحد ينشىء الحضارة، فكيف بالتبادل بين حضارة واخرى، فهو يحقق عملية التفاعل الحضاري

فما هي سبل التفاعل الحضاري وما هي وسائله؟

باختصار: هنالك الغزوات والفتوحات والحروب كانت تنقل دائما تجارب مجتمع الى مجتمع آخر، هناك انتقال الأشخاص. وهناك انتقال الأشياء المادية، فأي جهاز يأتي وأي إذاعة تأتي من مكان الى مكان، تحمل في طياتها بصمات صانعيها، وهنالك اخيرا ظاهرة فادحة، هي ظاهرة الاستعمار الحديث الذي هو تجربة في التفاعل الحضاري فريدة من نوعها.

شعوب تسلط على شعوب تحاول ان تفرض نماذجها في الحياة، وأن تتدخل في مختلف جوانب الحياة، تنطلق من فكرة خاطئة غبية، هي الاعتقاد المزعوم بوحدانية الحضارة فتحاول ان تفرض حضارتها، ولو كانت واعية لأدركت ان الشعوب التي غلبت لها حضارة، ولها أصالتها، ولها تجربتها.

فالاستعمار الحديث حاول ان يفرض هذا وقد عانينا منه ما عانينا

الاستعمار الحديث اخذ اشكالا عدة من تسلط سياسي واقتصادي وتسلط فكري وتسلط التفاعل الحضاري يمكن ان يتم بشكل صحيح، وعندئذ هو مطلوب أما ان جاء على هذا الشكل الخاطىء فانه مرفوض، فلابد ان نلاحظ أخيرا ان تفاعل الحضارات في عصرنا جاء قويا بفعل الأجهزة المختلفة من المذياع الى التلفزيون الى الفيديو، كلها تتحرك معا، وكلها تنقل اليك الأفكار، وصورا مختلفة من عوالم أخرى، وهذا يحقق التفاعل الحضاري.

اننا نلاحظ ثلاث ملاحظات هامة في التفاعل الحضاري:

١ ـ ان التفاعل يكون من الاقوى الى الأقل قوة، كالأواني المستطرقة، فان كان الماء هنا اكثر ينزل، وليس شرطا ان المغلوب هو الأضعف، المغلوب عسكريا احيانا يكون هو الأقوى حضارة وهذا حصل في التاريخ بمثلين صالحين، حين فتحت روما بلاد الاغريق، اخذت كل حضارة الاغريق، وحين جاء الفرنجة الى بلادنا، وغزونا في الحروب الصليبية اخذوا كل حضارتنا وتمثلوها، ورحم الله فارسنا اسامة المنقذ في كتابه **(الاعتبار)**، وهو يحكي عن هذا التفاعل الحضاري وعن هذا التواصل الحضاري، ورحم الله ابن القوطية في الأندلس، وهو يحكي عن

هذه الشعوب المتبربرة التي لا تعرف شيئا في ميدان الحضارة، والتي تأتي الينا لتأخذ ليس شرطا إذن ان يكون الغالب هو الأقوى، وإنما نقصد بالأقوى الأقوى حضاريا بمؤسساته ومنجزاته وفكره.

٢ ـ الملاحظة الثانية ان التفاعل أخذ وعطاء، وان كانت نسبة العطاء من الأضعف أقل. ولكن له نسبة ويجب الانتباه لهذا في الاستعمار الحديث.

ففي تجربتنا الانسانية المؤلمة التي عاشها اخواننا السود في الولايات المتحدة الامريكية، الذين تركوا بعض بصماتهم على الحضارة الأمريكية الحديثة يجب ان نلاحظ ان بعض المؤرخين لفرنسا الحديثة يؤرخون المراحل المختلفة بحسب ما كان يجري في الجزائر، لأن ثورة الجزائر كانت تفرض نفسها على الحوادث وعلى الحياة داخل فرنسا.

التفاعل هو اخذ وعطاء وان كانت نسبة الأخذ والعطاء تختلف.

الملاحظة الثالثة وهي هامة جدا، ان الانتقال من حضارة لأخرى يكون أسرع في انتقال الأشياء المادية من انتقال الأفكار

حين يكثر التفاعل الحضاري يحار المرء إزاءه وأنا اتناول هنا نقطة هي من اهم نقاط حديثنا اليوم.

هناك ثلاثة مواقف ازاء حضارة غازية، وازاء التفاعل الحضاري:

موقف يرفض كل شيء يسميه بعضهم بموقف الانعزاليين، ويستجير ليستطيع ان يفر من مواجهتها، وغالبا ما يستجير بالعودة الى الماضي.

الموقف الثاني: يرى ان هذه الحضارة أقوى وأفعل فيحاول أن يبحث عن سر قوتها فيستعير منجزاتها المادية، فيأخذ موقف الآخذ من كل شيء- الأفكار والأنظمة والانجازات ولا يفرق ولا يبحث هنا يجب التنبيه الى ان الحضارة الغربية فيها تياران اساسيان، تيار غربي رأسمالي، وتيار داخلها شرقي ماركسي، ولكن الاثنين هما ابناء الحضارة نفسها، المصطلحات، والعلاقات الاجتماعية فنحن هنا نبحث عن ظواهر حضارية، وليس عن قضايا سياسية فالذين يحاولون ان يفرضوا ذلك بالقوة، عجيب ما يفعلون

انهم الانغماسيون، اذكر اني في سن العشرين شغلت بدراسة تجربة اتاتورك، كيف حاول ان يفعل شيئا، واين يتمثل الخطأ هنا واذكر اني وقفت امام حادثة ما زالت ماثلة امامي أوردها هنا.

قرر في يوم ما كمال اتاتورك بالقانون أن يلبس جميع الأتراك القبعة، ويقول أحد الصحفيين الذي شهد تطبيق القانون: كنت في قرية مسلمة بتركيا وفيها عائلة واحدة من عائلات يونانية وفيها محل لبيع القبعات وفتحوه عنوة، وأخذ كل واحد قبعة، يقول الصحفي: ودهشت،اضحك ام ابكي حين ارى أولئك الرجال جميعا يلبسون قبعات النساء.

الانغماسيون يقلدون تقليدا أعمى، ولا يحلون المشكلة ابدا ونهايتهم كارثة، وما حصل في بعض أقطارنا من جيشان خلال السنوات الماضية انما اعلن فشل التغريب.

الاستجابة الصحيحة لمثل هذه التجربة هي في التيار الثالث.

أما التيار الأول والثاني فيهما رد فعل.

التيار الثالث هو الذي يستجيب لتحدي الحضارة الغازية بالبحث عن سرها وعوامل قيام الحضارة ، ويبدأ هو بأن يفعل من جديد ، وهنا نقف امام ظاهرة هامة وهي ان الأمة ذات الحضارة تبدأ تتفاعل مع حضارتها الماضية التي نسميها تراثها وهذا حصل بوضوح في عصر النهضة كما احتكت اوروبا بحضارتنا العربية الاسلامية والحضارة الرومانية والحضارة الاغريقية

ولما احتككنا نحن بالحضارة الغربية عنا لنخرج تراثنا، والتراث لا يكون حيا الا في امة حية، وأن أهم الأمور أن نجمع بين الأصالة والمعاصرة.

تلك هي الاستجابة الصحيحة التي تحث بنا السير في انبعاثنا الحضاري كي نسهم في بلوغ اهدافنا في الحضارة الانسانية وإثرائها، وهنا ينبغي ان أختصر فأتناول ثلاث نقاط:

الأولى: مادمتم تتعاملون مع اعلام خارجي، وما دمتم مسئولين تربية أو إعلاما أو أمناً على ضبطه فدعونا نشرح عملية الاتصال، ولقد خطرت

الفكرة على بالي وانا جالس في ندوة اليونسكو فاستخدمت هذا التعبير **(تشريح عملية الاتصال)**.

فهي تتألف من امور اربعة:ـ

١ ـ انسان يتصل أو يُتصل به

٢ ـ مضمون هذا الاتصال فكرة كانت او خبرا أو أي شيء.

٣ ـ الأجهزة التي يتم بها الاتصال.

٤ ـ الجهات التي تشرف على هذا الاتصال. وهو الذي يعنينا هنا ونضبط اموره.

أي انني أقول لهذه الجهات: انها تتعامل مع انسان ومع مضمون ومع أجهزة وعليها أن تحسن التعامل.

الفكرة التالية هي مضمون الاعلام الخارجي الذي نحن بصدده وقد مهد لها عرضي السابق.

نحن اليوم نعيش في ظل الحضارة الحديثة، ويجب ان نعترف بأن جل المنتجات المتعلقة بالاتصال تأتي من تلك الجهات، ويجب ان نعترف بأن هناك خللا فيما يسمونه (تدفق المعلومات)، ولقد خصصت (اليونسكو) لجنة على أعلى مستوى لكتابة تقريرها على هذا الموضوع ونشر التقرير في كتاب ضخم طبع في الجزائر، والتقرير جاء تحت عنوان (أصوات متعددة وعالم واحد).

والعنوان يوحي بأن عالمنا ما دام واحدا، فلا يجوز ان يكون فيه صوت واحد، بل يجب ان يكون فيه اصوات جميع الذين يقيمون فيه التقرير يبرز الخلل لتدفق المعلومات التي تأتي من ناحية لأخرى ولا ترشد، ودراسات تفصيلية، كم نسبة الأخطار التي تقرأ في بلاد الغرب عنا وعن العالم الثالث عموما كم نسبة ما نقرأ نحن عنهم، هذا الضجيج حول حضارتهم وثقافتهم وأفكارهم ومشكلاتهم التي نعيشها، والسبب هو ان التدفق جاء من ناحية واحدة.

فالاعلام الخارجي يوضح اننا امام جوانب ايجابية منه، ومن المفيد ان نتعرف عليها، وان تأتي الينا، وهناك اعمال تتم في تلك المجتمعات

الخارجية صارت ملكا للانسانية جمعاء فمثل هذا الاعلام لا نضيق به بل نعطيه مكانه وحجمه، ولكن الويل كل الويل ان نركز عليه فقط وننسى مثلنا وقضايانا وبالمناسبة يناقش علماء الاعلام حق الانسان في ان يعلم وحقه ايضا في ان يهرب من الاعلام، وذلك بعد ان اشتد ضغط الاعلام عليه يدخل الغرفة، فاذا بالتلفزيون واذا بالراديو واذا واذا الخ

أين هو الاعلام الخارجي؟ من العرض السابق نصل إلى التحديد أن كل اعلام يخالف روح الأمة وقيمها وتقاليدها وافكارها ويحاول ان يفرض عليها نماذج غريبة لا تقبلها فهو يخل بجوانب حياتها

فهذا الاعلام ضار ولا بد ان نواجهه

فكيف نواجهه وماهي وسائل التحصن إزاءه؟

في كل مواجهة يجب ان نأخذ في الاعتبار عدة امور:

كيف نتعامل مع الانسان ونحن نريد بناء شخصيته المؤمنة المعاصرة؟

وشخصية الانسان مم تتألف؟ البعض يقول: هي عقل وضمير وذوق وانا احب ان ابدأ هو بدن وعقل وضمير وذوق، اشارة الى أبعاد اربعة وهي:

البعد الجسدي.

البعد العقلي.

والبعد الروحي (الضمير).

والبعد الجمالي (الذوق).

والشخصية الناقصة هي التي تهمل اي بعد من هذه الأبعاد، فيجب ان يحدث التكامل فيها.

وحين بنى الاسلام شخصية المسلم اعطى هذه الأبعاد حقها وبالعودة الى السيرة النبوية اعظم قصة تتلى (ان لبدنك عليك حقا، وان لنفسك عليك حقا، وان لأهلك عليك حق التواصل، فاعط كل ذي حق حقه) هكذا قال محمد ﷺ لمن سأله عن عبادته فرأى انها قليلة، يصوم ويفطر، يصلي وينام ولا يعتزل النساء.

حبب الي من دنياكم ثلاث. .الخ.

والأمثلة على ذلك كثيرة.

فالشخصية المسلمة هي الشخصية المتكاملة التي لا تعاني من الحرمان والتي شبعت فتوازنت وتعادلت.

يجب ان نذكر ايضا ونحن نبحث في التحصن، أخاطب اخواني رجال الأمن ورجال التربية ورجال الاعلام في نقطة هامشية في هذه المرحلة من تاريخنا.

ما هو الموقف الذي اقفه عند تناولي هذا الموضوع؟

أهو موقف الواعي بالمشكلة في حجمها الطبيعي الواثق بنفسه وبأمته وبقدرتها على المواجهة، وقدرتها على دفع الانبعاث الحضاري.

ان من اهم وسائل التحصن ان تقف هذا الموقف قبل ان تبحث عن وسائل التحصن، فمن تجاربنا الكثيرة في القرن الماضي ان استطعنا ان نقف في مواجهة هذه الحضارة الغازية، وان نطرح بضاعتنا، وأن نثق بأفكارنا، فرجالاتنا كرجالاتهم، وقدراتنا موجودة، وان سبقونا بجوانب مضيئة كالنضال والدأب والعمل، فنحن مصممون على ان يكون لنا النضال والدأب والعمل.

هذا الموقف اساسي، وفرق بين موقف الهلع الذي يفعل ردود الفعل وبين موقف المستجيب الذي يفكر بتؤده، ويبحث المعقول وغير المعقول.

إذا حصل الموقف الأول ولم تدرس التفاصيل، يأتي الشعار الذي استخدمناه (غزو فكري وخلقي)، فينفعل بعض الناس في عدد من الشعوب النامية والتجارب التي ما زلنا نعيشها. ويكون الحكم عاما وهو ان كل ما يأتي خطر وفيه غزو، فلنمنع الكتب ان تدخل وليس هذا استجابة صحيحة، (إذن فلنحرق الانتاج).

لا! ان العلاج بهذه الطريقة لانصل به الى شيء. لنأخذ موقف الواثق، واثق الخطوة يمشي ملكا مطمئنا انه قادر على العلاج بعد هذا الموقف نقول: ان وسائل التحصن تأتي في نوعين، بعضها سلبي، وبعضها ايجابي.

فأما السلبي وهو مشروع فانا أريد أن أجنب مجتمعي زكاماً لا يمكن أن

يُنقل كما هو، والغرب نفسه الآن يرى أنه قد ذهب الى مدى (الحرية الفردية) التي يعاني منها، وهو يحاول ارجاع التوازن ، ومن اسرار قوته ان كل ما حصل فيه خلل يطرحه للنقاش فيعالجه، ولكن بعد أن يجرب ثم يسير.

لكن من حقنا نحن كحد من الرقابة محدود ان نمنع هذا الخلل الذي بلغ مداه، والذي كان فيه اجماع على عدم فائدته وجدواه.

الوقاية هنا توضع ولكن في الأطر الصحيحة وبالحجم المعقول، ومرة اخرى اصدقكم بأنها لا تكون وحدها كافية.

ان وسائل التحصن الفاعلة التي تساعد الرقابة هي وسائل ايجابية يجب ان تصل بالانسان العربي المسلم الذي بينا ان تكون لديه شخصيته القادرة على ان يرفض تلقائيا هذا الذي لا يناسبه يلفظه ازدراء لأنه لا يليق، يلفظه احيانا كراهية لأنه لا يناسب مزاجه، وليس ذلك تعصبا، فيصبح كحال المؤمن وهو يشعر بأن الكفر كريه الى نفس. لماذا؟ لأن الفطرة السليمة لا تقبله.لي تجربتي الشخصية مع اولادي وتلامذتي: كان المؤثر دائما ان تعطي الحرية المقترنة بالمسئولية، وان تتيح الفرصة لمناقشة ما يعرض.

نحن في عصر لا يمكن ان نمنع العيون عن ان ترى، ولا الآذان عن ان تسمع، عصر تداخل، فنرى في الفيديو بالبيت اشرطة العنف التخريبية التي لا تمثل روح مجتمعاتنا ويعجب المرء منها. ترى اشرطة تقدس الفرد، وهو بمعزل عن المجتمع، ليست هذه روح حضارتنا، روح حضارتنا تتمثل في أننا نركب السفينة، البعض أصاب أعلاها، والبعض أصاب أسفلها، فاذا الذي بأسفلها اذ طلب الماء وثقب مكانه هلك الجميع يقول (ﷺ): اذا أخذوا على يده نجا ونجوا جميعاً، وان تركوه هلك وهلكوا مجتمعنا مختلف فيه هذه المعاني.

مجتمعنا لا ترد فيه فكرة (فرافير العجيب) هذا المصطلح التلفزيوني الذي ساد في الستينات وكان الذي يفعل كل المعجزات.

حد ادنى من بذل الطاقات مطلوب، ولكن في الوقت نفسه يجب ان يأخذ بعده الاجتماعي

لا بد من ان تكون وسائل التحصن مقترنة بعمل ايجابي، لابد لاعلامنا ان يفعل فعله بحيث انك لو وضعت هذا الشريط المستورد، ووضعت شريطا يمثل تراثك، فانك ستشاهد ما يمثل تراثك بمتعة، واذا شدك الشريط الاول بشيء جديد يستحق الأهمية، وعندئذ لا اعتبره ضارا.

هام جدا ان أصنع انا الاعلام. وهذا دور الاعلاميين والمفكرين، ودور الذين يعطون المادة. وصحيح ان ما نتج حتى الآن قليل، ولكنه بالقياس الى عشرين سنة خلت نجد الخط البياني في ارتفاع.

قد تتساءلون اذن. لماذا هو قليل؟ لأن الحاجيات مبالغ فيها، ولأن ملكاتنا من الأفراد في هذا الطور الحضاري اقل من الميادين الواسعة التي خضناها مع الزمن سوف نتقدم في هذا.

ومن وسائل التحصن الهامة تشجيع حركات النقد فالنقد يعلم الناس الذوق الرفيع، ويعلمهم ان يميزوا الخبيث من الطيب، ويعودهم على ان ينسجموا مع الرفيع.

في هذا المجال نسير قدما ونقدم تجاربنا ولعلنانصل الى ان نفرض اعلامنا على العالم الخارجي.

ولقد حدث هذا احيانا قليلة.

فاني أذكر أنه ابان معركة بيروت الكبرى استطاع الحدث الساخن الحاد الذي عبر عن معان كثيرة ان يفرض نفسه على العالم اجمع يوميا، وكيف تأثر العالم برؤية صور بمعان جليلة تتصل بثورة التحرير وبقيم التحرير، وبقيم الانسان الذي يرتبط بشعبه ووطنه. وامته وربه.

اننا ننطلق من حضارة تقول:

ان الله سبحانه وتعالى خلق الناس في نظرة شاملة، وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، فحق علينا وواجب ان نتعارف وهذا يعني ان نتواصل وان نكون ايجابيين في تواصلنا، وان نكون فاعلين واثقين قادرين على تمييز الخبيث من الطيب، وعلى بناء جيل يربط بين الأصالة والمعاصرة ويتحمل مسئوليته كاملة

وسائل احكام الرقابة على الاعلام الخارجي

الدكتور عبدالله شقرون*

ومما لاشك فيه ان تناول مثل هذا الموضوع قد يحتاج الى دراسة معمقة، ويدعو ـ من الوجهة العملية ـ الى قيام باستطلاعات ميدانية متعددة والى مراجعة شتى القوانين والضوابط والتنظيمات الجاري بها العمل في كل بلد عربي على حدة.

وبما ان المقصود بذاته في هذا الصدد قد لا يتجاوز مجرد ابداء الرأي، واستلهام التجربة العملية، واستنطاق الواقع المهني.

فقد يحسن ان يكون الكلام في هذا المجال نوعا من التأملات استشرافاً الى ادراك المتيسر من الحقائق، واهتداء الى ما قد يبديه من هم على وثيق العلاقة بمجالات الاعلام والاتصال وقضايا المجتمع.

مصطلحات ومفاهيم:

ولتحديد جوانب الموضوع أود باديء ذي بدء التوقف عند بعض المصطلحات التي يشتمل عليها.

إن هناك ثلاثة مصطلحات أساسية في عنوان هذا الموضوع وهي:

١ ـ الرقابة

٢ ـ الاعلام الخارجي.

٣ ـ الانحراف.

أولا: الرقابـة:

من بين هذه المصطلحات ما هو مثير للجدل والأخذ والرد منذ زمن غير قليل بين السياسيين والمفكرين، والمشرعين والاعلاميين.

---

* الأمين العام لاتحاد اذاعات الدول العربية ـ جدة.

ونعني به المدلول الدارج بين عموم الناس لمصطلح الرقابة مما لاشك فيه ان هناك من حيث التداول والاستعمال، فرقا بين الرقابة والمراقبة وان احدهما قد يحل محل الآخر

والشعوب العربية التي اكتوت بالاستعمـــار وقاومت جبروته من اجل استعادة كرامتها واستقلالها تفهم من مدلول الرقابة أنه الإلزام الذي كانت السلطة الاستعمارية تفرضه على الأهالي لعرض جميع مكتوباتهم ومصنفاتهم بصفة مسبقة، على نظرها لتراقبها قبل نشرها على العموم. فكانت هذه السلطة قد تقبل السماح لهم بالنشر، وقد ترفض وقد تغير بقلمهاجزءاً من تلك المكتوبات والمصنفات المعروضة عليها، وقد تحذف منها كلا أو بعضا ولذلك فان مفهوم الرقابة قد ظل في البلدان العربية التي ابتلت بالاستعمار يعني مختلف العراقيل والموانع والمصاعب والمظالم والتعسفات التي كان المستعمر يفرضها فرضا على الصحافة الوطنية، والمنشورات، والمطبوعات، والمسرحيات. منعا وكبتا لحرية تواصل الأفكار وترويجها، وتدفق الأخبار وسريانها بين الأهالي.

ونحن الى الآن، نتذكر تلك الصحف الوطنية العربية التي كانت تصدر مطبوعة، على عهد الحكم الاستعماري، وفي بعض صفحاتها مجالات فارغة بيضاء تماما قد شغلت مكان مقالات، أو مقاطع من مقالات، أو أسطرا وجملا قد حذفها الرقيب فحلت محلها، في نفس تلك المجالات الفارغة البيضاء من صفحاتها كلمة: (حذفته الرقابة) وان هذا التعبير (حذفته الرقابة) قد ظل الى الآن جاريا على ألسنة العموم.

على ان المقصود من مفهوم الرقابة في مجالنا هذا لا يعني التحجير.
وانما لابد من الاشارة تنبيها إلى الأثر السيء الذي تحمله تاريخيا تلك الكلمة، سواء في البلدان العربية التي جابهت الاستعمار والقهر، أو في عدد من البيئات الأجنبية غير العربية وما ذلك الا لكون المفهوم السياسي للرقابة Censure والرقيب و الرقباء censeurs هو غير المفهوم القانوني أو التشريعي

أو الاجتماعي الذي يهمنا في هذا الصدد والذي يعني وقاية المجتمع عموما والشباب خاصة من التأثير المضر والهدام الذي قد تحمله فعلا بعض الافرازات الاعلامية كلما اسيء استعمال أجهزة الاعلام والاتصال.

وفي المشهد الثالث من الفصل الخامس لمسرحية «زواج فيغارو»

للكاتب الفرنسي «يومارشي» (وهو من مفكري القرن الثامن عشر للميلاد) نطالع المقطع الفكه اللاذع التالي، الذي قال فيه هذا الكاتب، منذ قرنين اثنين.

(يكفي ألا أتحدث في مكتوباتي عن السلطة، ولا عن الشئون الدينية، ولا عن السياسة، ولا عن سيرة الناس الخلقية، ولا عن أصحاب المناصب، ولا عن طبقات الوجهاء، ولا عن مسرح الأوبيرة، ولا عن ألوان الفرجة الأخرى، ولا عن أي فرد له علاقة ما بشيء ما وحينئذ يمكنني أن أطبع وأنشر ما أريد بكامل الحرية تحت نظر اثنين أو ثلاثة من الرقباء).

وبصرف النظر عن مثل هذا الموقف وما اتخذه المفكرون إزاء الرقابة قديما وحديثا نشير الى ان التاريخ يؤكد أن نظام الحكم (لروما العتيقة) في فترته التي تلت الميلاد، كان السباق الى فرضها على المجتمع الروماني، فكان الرقيب رجل قضاء مكلفا بمراقبة التصرفات الأخلاقية لعموم الناس في سيرتهم الخاصة

وقبل ظهور الطباعة بقرنين اثنين نجد لأحد ملوك أوربا هو الملك «فيلب لوهاردى» الذي عاش في القرن الثالث عشر للميلاد ـ مرسوما يقضي باخضاع جميع المكتوبات والمصنفات للمراقبة المسبقة من طرف رجال الكهنوت، وكانوا هم رجال الجامعة

ونحن في هذا المضمار لا نستهدف الاستعراض التاريخي، فذلك أمر لا يعنينا في حد ذاته، إلا أن التغلغل في تحديد هذ المفهوم بكثير من الدقة يدعو الى معرفة الحقيقة، فندرك والحالة هذه ان الرقابة متأصلة، أساسا عن عمل الكنيسة، وكانت الغاية منها الحرص على التقيد بتعاليم العقيدة

الدينية المسيحية وأخلاقيتها، فكانت المؤلفات المخالفة لهذه التعاليم تسجل في مجموع الكتب المحرمة التي لا يجوز تناولها أو الاطلاع عليها.

وقد قيل ان الملك "لويس الثالث عشر" ـ الذي عاش في النصف الأول من القرن السابع عشر للميلاد ـ هو أول من رتب في أوروبا "رقابة" باسم الدولة على المكتوبات قبل نشرها بحيث كانت رقابة دنيوية وقد استمر العمل منذ ذلك العهد حتى صدور الاعلان بحقوق الانسان والمواطن سنة ١٧٨٩م في فرنسا، وقد بين هذا الإعلان الفرق بين حرية القول وبين الشطط والمبالغة في استعمال هذه الحرية، فرسم للقانون سيادته بهذا الصدد، وفيه جاءت أول اشارة صادرة الى الدولة ـ أي دولة ـ لتتخذ ما تراه مناسباً وفي المصلحة العامة من التشريعات التي من شأنها الحيلولة دون الإساءة الى المجتمع، ونحن نعلم ان الاسلام قد أقر هذه المبادىء وسجلها قبل ذلك التاريخ بعدة قرون وهكذا فمن جملة ما نص عليه الاعلان الفرنسي بحقوق المواطن، أن الترويج الحر للأفكار والآراء حق من الحقوق الثمينة جدا للانسان بحيث يمكن لأي مواطن أن يكتب ويطبع بكل حرية. لكنه مسئول عن الشطط في استعمال هذه الحرية، طبقا للحالات التي يحددها القانون.

نعم هذا فيما يرجع الى أقوام سوانا، أي الأوروبيين

أما فيما يرجع الينا نحن العرب والمسلمين فمن المعلوم ان حرية التعبير مكفولة بالسليقة، والتقاليد، وشتى التعاليم المقدسة

ان الشاعر العربي القديم كان يقف أمام علية القوم وعموم الناس فيفاخر بقومه وبشخصه، وينتقد ويتشبب ويتظلم. من غير ان يكون عليه حسيب أو رقيب، لا من قبل ولا من بعد.

والرجل العربي ـ بموجب هذه الحرية ـ كان يأتي الى النبي ﷺ، فيناديه في بساطة بقوله: يامحمد. ثم يطرح من الأسئلة ما قد يبدو لنا اليوم انه ضرب من الجرأة. فكان الرسول الكريم لا يتأفف ولا يغضب.

وقد ظل العربي المسلم على هذه العادة في مخاطبة الخلفاء والأمراء والملوك. زمنا طويلا

إن الاسلام قد كفل للفرد مختلف الحريات التي هي من حقه، ومنها حرية القول ـ التعبير ـ التي تأتي في مقدمة ما يهم العمل الاعلامي بوجه عام.

وقد جاءت الآيات الكريمات والأحاديث النبوية الصادقة مؤيدة كامل التأييد لتأمين تلك الحرية.

﴿فذكّر إنما أنت مذكّر، لست عليهم بمسيطر﴾[1] ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[2]

الدين النصيحة، قلنا لمن يارسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ويدعو الاسلام في هذا المجال الى تحمل المسئولية عينا وفرديا وذلك قبل ان تعرف هذا قوانين أوروبا **﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى. ﴾**

واذا كانت الرقابة المضبوطة بالقانون لم تعرف بشكلها العام في أوروبا إلا منذ القرن الثامن عشر للميلاد فان الشريعة الاسلامية قد بينت هذا بالضبط من قبل، وقوامه: ان حريتك تنتهي في النقطة التي تبدأ فيها حرية غيرك.

ولعل الخليفة عمر بن الخطاب كان المبادر لضبط قانون الحق العام بهذا الصدد.

ففي المجتمع العربي والاسلامي كان هناك ـ على الدوام ـ عشرات الخطباء والشعراء يعبرون عن مشاعرهم وآرائهم وأفكارهم بكامل الحرية والاطمئنان ـ كما قلنا، الا ان أحد الشعراء تجاوز نطاق الحرية الى فحش القول بدل النقد النزيه والتعبير البناء: إنه التجأ الى الشتيمة كذبا على الناس وثلبا لأعراضهم، فما كان من الخليفة عمر بن الخطاب الا القيام بواجب حماية الحق العام فحبس ذلك الشاعر ـ الحطيئة ـ المعروف بهجائه المقذع.

---

١ سورة الغاشية. الآيتان: ٢١، ٢٢

٢ ـ سورة آل عمران. الآية: ١٠٤

طبعا، لم تكن هناك رقابة مسبقة وانما هو القانون الذي يشمل الجميع، والناس أمامه سواسية. ولنتذكر من جهة اخرى، موقف الرجل العربي الذي قال للمسئول الأول عن الدولة وشئون المسلمين فيها: لو رأينا فيك اعوجاجا لَقوّمناك بسيوفنا!.

ولهذا وذاك فان الرقابة في ميدان الاعلام ـ كما في سواه ـ لا يمكن ان تجد مدلولها وتبريرها الا في نطاق القانون النزيه العادل المتكفل بضبط حريات الأفراد ومراعاتها. وفرق شاسع هناك بين العدالة والظلم، وبين النزاهة والتعسف، وبين خدمة الصالح العام وحماية المصلحة الخاصة والتشريع الأسلامي الصحيح في هذا المجال ـ كما في سواه ـ هو المرتكز على العدالة قولا وفعلا، **﴿واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾**[1] **فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا﴾**[2].

(لايستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)[3].

ثانيا: الاعلام الخارجي:

ماهو الاعلام الخارجي؟ وما المقصود بهذ المصطلح؟ وأين يبتدىءالاعلام الخارجي وأين ينتهي؟ وبعبارة أخرى: هل توجد حدود للاعلام الخارجي. ؟

هناك مفهومان للاعلام الخارجي:

أ ـ مفهوم يعني ان الاعلام الخارجي ـ بالنسبة للدول العربية ـ هو الاعلام «المنجز» في بلد أجنبي أو بلدان أجنبية ـ في الخارج ـ والمصدر أو الموجه بصفة من الصفات الى هذه الدول العربية، كلا أو بعضا.

ب ـ مفهوم آخر يفيد أن الاعلام الخارجي ـ بالنسبة لكل دولة على حده ـ ـ هو ما يَصدر أو ما يُصدّر اليها عن جهة أو جهات أخرى ـ في الخارج

---

١ ـ سورة الأنعام. الآية:

٢ ـ سورة النساء. الآية: ٩

٣ ـ رواه أحمد.

ـ قد تكون أجنبية، أي غير عربية، كما يمكن أن تكون عربية.

وبما ان ما يعنينا هنا إنما هو الاعلام الخارجي المسيء أو غير الودي. فإن المفهوم الأول هو بدون شك ولا ريب، المقصود في هذا المجال.

أما عن مصطلح "الاعلام الخارجي" ذاته فيجب ان نعترف جميعا بأنه عريض فضفاض وقد يعسر حصر جوانبه التي من جملتها:

أ ـ الجرائد، والمجلات، والكتب، ومتنوع المنشورات. المطبوعة في بلدان اجنبية ـ أي بالخارج ـ والواردة على الدول العربية، اما موزعة فيها توزيعا نظاميا، وإما مدسوسة اليها أو مهربة بطريقة ما.

ب ـ الأفلام السينمائية، وشرائط الفيديو، والكاسيتات الصوتية، والاسطوانات، وبعبارة مجملة مواد الـ «فونوغرام» التي تكون منجزة في بلد ما من البلدان الخارجية، وتروج في داخل البلدان العربية

جـ ـ إذاعات الراديو الأجنبية التي تكون موجهة باللغة العربية توجيها مباشرا من الخارج الى المناطق العربية في أوقات وساعات معينة، وكذلك البرامج الموجهة من تلك الاذاعات الأجنبيةبلغات غير العربية لكنها تتناول القضايا العربية

د ـ إذاعات التلفزيون: وهنا لابد من بعض التبيين والتوضيح:

١ ـ من المعروف أن امتداد الارسال التلفزيوني التقليدي أي الذي يبث على وصلات الميكرويف والشبكات الهرتزية، يكون محددا بحيث قلما يتجاوز في العادة التراب الوطني. فهذا ليس فيه خطر ما على الغير في البلدان الأخرى.

٢ ـ من المعروف ايضا، في نقل البرامج التلفزيونية عبر الأقمار الصناعية المسماة (أقمار الاتصال) من نقطة لنقطة أو من نقطة لعدة نقط ان هذا النقل يمر عبر المحطات الأرضية المخصصة في كل قطر للارسال والاستقبال ـ أو لإحدى العمليتين دون الأخرى ـ والمحطة الأرضية التي تستلم الاشارات الحاملة لتلك البرامج تتولى توجيهها لمركز التلفزيون المعني في ذلك القطر

ومن المعلوم أن التلفزيون في الدول العربية تابع للدولة - في الوقت الحاضر - وهكذا فإن مركز التلفزيون هو الذي يتولى إعادة بث البرامج - المنقولة من جهات أو بلدان أخرى عبر القمر الصناعي - على

عموم المشاهدين داخل التراب الوطني إما رأسا وفي الحين (كما يحدث عادة في المباريات الرياضية، وبعض الأحداث الدينية والفنية الكبرى، وإما بعد تسجيلها والنظر فيها شكلا ومضمونا. والخطر بذلك يكون محددا.

٣ - التلفزيون المباشر عبر القمر الصناعي. وهو النظام الذي سيصبح عما قريب سائدا في عدد من البلدان إما لتغطية كامل التراب الوطني لدولة على حده، وإما لتغطية التراب الوطني لأكثر من دولة. بحيث يكون استقبال البرامج والحالة هذه مباشرا وحينا، أي رأسا من القمر الصناعي، فلن تكون هناك بين المشاهدين والمشاهدة لا محطة أرضية، ولا شبكة وطنية، ولا أدنى وسيلة للفرز والرقابة!

ومن الملاحظ - ان التغطية المرسومة تقنيا في هذه العملية للتراب الوطني لبلد واحد أو لعدة بلدان بكامل التعاون والاتفاق مسبقا - قد تتجاوز مداها الجغرافي بحيث ان بلدانا مجاورة لها يشملها - رغما عنها - السقي بتلك البرامج الموجهة مباشرة عبر القمر الصناعي وقد تكون هذه البرامج مخالفة، أو معاكسة لعقائد هذه البلدان المسقية، ولمصالحها سياسيا وايديولوجيا واقتصاديا. .-

وهناك ملاحظة أخرى، وهي اقتناء هوائي (انتينا) خاص بالتقاط البرامج التي يبثها القمر الصناعي المباشر - بحسب المواصفات المطلوبة وتركيزه فوق البيت أو في الحديقة وهذه امكانية بإرادة من يسعى اليها فعلا.

ومن هذا القبيل ايضا تلك الأجهزة الصغيرة التي أصبحت تباع في السوق، ومن شأن ربطها بجهاز التلفزيون أن تفتش عن الممكن من البرامج "السابحة" في الفضاء عبر القمر الصناعي

وكنت اعلم ان هذه الأجهزة تباع في **الولايات المتحدة، وكندا**

واليابان. لكن علمت انها موجودة كذلك في بعض البلدان العربية، وحدثني احد الاخوان انه رآها معروضة للبيع في دمشق. ومن صنع ياباني!

وحتى لا نذهب في متاهات ففي تونس يشاهد المتجول شتى الهوائيات الدوارة المعروفة لكن المثير للانتباه أن بعض المشاهدين يحلو له بهذه الوسيلة التقاط عدد من المحطات الخصوصية والتجارية في **ايطاليا**.

٤ ـ توزيع البرامج السمعية والبصرية بواسطة **الكابل**. ان هذا الصنف من التلفزيون يخضع للتعامل على أساس الاشتراك تماماً كما مشترك في الكهرباء والانارة والغاز والتلفزيون مع فارق في تحديد مبلغ الاشتراك الا انه لم ينتشر بعد في الدول العربية لا سيما وأنه مزاحمة سافرة للتلفزيون الوطني!

أما أين يبتدىء الاعلام الخارجي وأين ينتهي؟ أو هل توجد له حدود. ؟ فيكفي ان نعلم انه **ظاهرة** جديرة بالاهتمام وعلوم الاعلام تكتسب واسع المنزلة سنة إثر سنة، ليس فقط في المحيط الاجتماعي والسياسي بل وأيضا على المستوى العلمي والأكاديمي

ثالثا: الانحراف:

هل نعود بالضرورة الى علوم الاجتماع والأخلاق والنفس، أم الى القانون الجنائي، أم الى معاجم اللغة. لنحدد فعلا ما هو **الانحراف** في واقعه وما هي روافده؟

نعم ان هناك **مجالات انحرافية** قيل ان للتلفزيون، والسينما، والمطبوعات المزخرفة مفعولا وتأثيرا في أفراد المجتمع بصفة عامة وفي الناشئة بوجه خاص. وتوجد دراسات وأبحاث جامعية وأكاديمية متعددة في هذا الصدد.

على ان هذه **المجالات الانحرافية** ـ أو التي هي كذلك في نظرنا وفي قناعة بعضنا ـ قد يراها غيرنا على عكس رؤيتنا وبمنظار مخالف تماما لمنظارنا.

ان بعض ما يبدو لنا أنه انحراف فكري أو خلقي أو ديني ، قد يدعي سوانا انه نوع من "التحرر أو الحرية" ولهذا هناك خلافات بشأن الاعتماد على نتائج الدراسات والأبحاث سواء كانت جامعية أو أكاديمية أو غيرها وتمييز الانحراف بالنسبة للمسلمين لابد ان يعتمد على تعاليم الاسلام: كتاباً، وسنة، واجماعاً.

ومن قبيل الانحراف ايضا التنكر للتقاليد الوطنية والتفريط في الخصائص الأساسية التي تطبع شخصية كل بلد من بلداننا المتمايزة، وكذا التهاون في التمسك بالمقومات الدينية، والعزة القومية

ومن قبيل الانحراف أولا وأخيرا التقاعس، أو مجرد التساهل، في استمرار الدفاع ومسترسل الكفاح من أجل تحرير الأرض العربية من الطغيان الصهيوني الاستيطاني المستعمر

وللاعلام الخارجي ـ مثل الاعلام الداخلي أيضاً ـ تأثير تواتر التأكيد بشأنه في تفشي الانحراف بالمجتمع على شتى الأصناف والألوان، ليس فقط من حيث المشاهد والصور والمواقف التي يكررها في مجال العنف، والاغتيال، واللصوصية، والحرابة والسلب والنهب بل وأيضاً من حيث شتى المشجعات على المفاسد في الالحاد، والدعارة، والخمر والميسر، والكذب والخيانة، الغدر، والنفاق، والتجسس، والنميمة، الارتشاء وغيرها.

إحكام وأحكام:

والآن وبعد هذه التعرية التي اردناها تشريحا خفيفا. يمكننا ان نتساءل فيما بيننا عن الوسائل التي من شأنها المساعدة على إحكام الرقابة على الاعلام الخارجي تفاديا للتشجيع على الانحراف؟

ليت الأمر كان يعني الاعلام بوجه عام وليس الاعلام الخارجي وحده.

فإن المعالجة ربما كانت اشمل وأعم. لكن ما دام المراد هو الاعلام الخارجي فليكن القول ما قالت حذام!

لكن عما عسانا نتحدث؟ أعن الجرائد والمجلات والكتب والمطبوعات؟ أم عن الأفلام السينمائية وشرائط الفيديو؟ أم عن الاذاعات

الأجنبية؟ أم عن التلفزيون المباشر وقضاياه الشائكة؟

إذ كان الأمر يتعلق بالجرائد والمجلات والكتب والمطبوعات "المجلوبة" التي نخشى من موادها ـ في حالات معينة على الناشئة اخلاقيا وفكريا فيخيل اليّ ان التشريعات والتنظيمات الوطنية والمحلية هي المعتمدة والمعول على تطبيقها في هذا السبيل. إن لكل امة دستورها والقانون الذي يطبق هذا الدستور، واللوائح الجاري بها العمل في هذا المضمار ونحن جميعا نعلم ان هناك نصوصا بل وأعرافا فيما يرجع الى التعامل القانوني من المنشورات اللاأخلاقية والى بيعها وعرضها وتوزيعها على العموم. إن التعامل المألوف مع هذه البضاعة "البورنوغرافية" متشابه في شتى الأقطار كيفما كان نظامها الاجتماعي والسياسي، ونادرا جدا ماتكون هناك انظمة متساهلة أو متغاضية بهذا الخصوص. إن كل دولة هي صاحبة السيادة في ضبط أمورها الداخلية.

لكن الأدهى والأمرّ هو كيف يمكن التعامل مع منشورات الاعلام الخارجي ـ سواء وصلت الى بلداننا أو لم تصل اليها ـ ؟ وإن نشاطها قد يتمثل في حالات مجسمة، ومنها:

١ ـ المنشورات التي تشوه صورة الانسان العربي في الخارج بحيث تعطي عنا نحن العرب صوراً "مغيضة" في نظرنا ونتأثر منها ونتألم لها.

٢ ـ المنشورات التي تعادي بصفة تكاد تكون مطلقة قضايانا ومواقفنا وطموحنا في الحياة والكرامة

٣ ـ المنشورات التي تنتقد عقيدتنا وخاصة العقيدة الاسلامية المقدسة، وتلك التي لا يدرك محرروها خبايا حضارتنا، فيكتبون عنا بعامل الجهل المضحك ـ المبكي شتى المهازل.

نعم لقائل ان يقول ان مثل هذه الحالات بعيدة كثيرا عن موضوعنا حول الحيلولة دون التشجيع على الانحراف أخلاقيا. ولكن هل هي بعيدة عنه فكريا؟

إن أولادنا وبناتنا يتناولون المطبوعات الأجنبية ويطالعونها لأنهم في طور الاستكشاف، ومن هذه المطبوعات ما هو ظاهريا، من قبيل الكتب

الثقافية والتاريخية التي لا تثير انتباها. وأذكر ـ على سبيل المثال ـ انني قضيت اياما في محاولة تصويب ما علق بفكر شاب من عائلتي لاحظت بالصدفة اقباله الشديد على سلسلة من المطبوعات المزخرفة المصورة بالألوان حول التاريخ المقدس، وحياة الأنبياء، وأرض الميعاد، وفلسطين. لا سيما وقد كانت هذه السلسلة باللغة الأجنبية التي يكاد لا يجيد سواها. وكان يتناولها من مكتبة مدرسته.

وهنا لنا أكثر من تساؤل وأكثر من ملاحظة في متعدد المجالات: في تنظيم مدارس التعليم الأجنبي بالبلدان العربية، في توفير المدارس الوطنية بالقدر الكافي داخل كل قطر، في الحرص المتوالي على تلقين النشء العربي اللغة العربية بأيسر الطرق البيداغوجية، في العمل على منافسة دور النشر الأجنبية باصدار المطبوعات المزخرفة الأنيقة المشوقة باللغة العربية حول الاعلام والعرب وحضارتهما، والعمل على نشرها وتوزيعها بأرخص الأثمان وتزويد مكتبات المدارس الابتدائية والثانوية بالكميات الكافية منها. الى غير هذا من وسائل نشر الأمن المعنوي في الفكر المتفتح للناشئين قبل أن يشبوا عن الطوق فيحار المجتمع، وتحار الدولة في الاهتداء الى الانتفاع بهم كمواطنين صالحين.

هناك أيضاً الحملات المسعورة التي تشنها ضدنا بصفة منتظمة:
أ ـ **الصهيونية العاتية**، من جهة.
ب ـ **الصليبية المتجددة**، من جهة أخرى.

وهناك جهود بناءة مكثفة وعلى جانب كبير من الفعالية تقوم بها سياسيا وقوميا، مشكورة كل الشكر، جامعة الدول العربية، ومكاتبها في الخارج، والحكومات العربية على مستوى وزارات الاعلام فيها وسفاراتها في الخارج. وذلك لمواجهة هذا الاعلام الأجنبي المكتوب: وإنه لنشاط قيم جدير بأن يُعرف حق المعرفة

ولكن. حتى نبقى في المجال الرامي الى الحيلولة دون التشجيع على الانحراف فكريا وخلقيا داخل البلدان العربية، من جراء مفعول الاعلام الخارجي، لنتجاوز الصحافة المكتوبة وشجونها، ولننتقل الى

الاذاعات الموجهة من الخارج الى البلدان العربية على الأمواج القصيرة.
وكذلك الاذاعات الأجنبية التي تصل الى بعض الدول العربية على الأمواج المتوسطة والطويلة، بقطع النظر عن اللغات التي تستعملها عربية أكانت أم أجنبية

إن أفضل وقاية لصرف المواطنين داخل كل بلد عربي عن تتبع الاستماع الى الاذاعات الخارجية هو أن تعمل كل اذاعة وطنية على بذل متوالي الجهود خيالا وابتكارا ومالا لتنويع برامجها، وتجديدها، وجعلها، بصفة مستمرة، مشوقة وجذابة وممتعة وخصوصا بالنسبة لجيل الراديو الذي قوامه اليوم الشباب: بنات وذكورا. فحتى لا يرتمي هؤلاء في أحضان الانحراف من خلال مبثوثات الاذاعات الخارجية أصبح من المتعين الأكيد أن نحبب اليهم إذاعاتهم الوطنية.

وقد يقول قائل انهم لا يهوون الا الموسيقى الراقصة، والأغاني المتهتكة، والألحان السمجة فنبادر الى الاجابة فورا بأن لكل داء دواء الا ما استفحل فاستعصى على الأطباء أو ما كان هؤلاء الأطباء غير ماهرين بشأنه!

إن أساليب العمل الاذاعي تعرف اليوم تجديدا وتطورا ليس فقط في برامج المنوعات بل وأيضا في تحرير الأخبار وطريقة عرضها وفي طريقة نقل البرامج الوصفية (الريبورتاجات). ونحن سعداء بأن نؤكد أن إذاعاتنا العربية واعية هذا الواقع كل الوعي ومستجيبة للتجديد والتطوير كل الاستجابة.

لقد أخذ الشباب العربي يقبل إقبالا متزايدا على برامج إذاعاته الوطنية بينها تلك الموجهة اليه خصيصا، بما فيها المسابقات الثقافية والفكرية والألحان الجديدة التي ظهرت هنا وهناك من الوطن العربي، وغالبيتها معتمدة على أنغام تقليدية أصيلة، وكلماتها تمجيد فني للمشاعر الدينية والكفاح الفلسطيني والتوجه الاجتماعي! ولا غضاضة أن يتمسك المرء بتراثه القومي وخاصة اذا كان في مبتكر الطرفة والذوق الجميل.

وقد تودون من جهة اخرى، الالماع الى تلك الاذاعات الخارجية التي

تحاول النيل من الاسلام والمسلمين. نعم لا بد من التأكيد، أولا وقبل كل شيء، أننا جميعا غير متعصبين أبدا. ان المسلمين وغير المسلمين يد واحدة لبناء صرح الوطن العربي وخلق مجتمع واع بمسئولياته، وبناء الانسان العربي الصالح لبلاده وأمته. وعملنا الاعلامي يحتم علينا نشر الاخاء الايجابي - فالمسيحي أخ للمسلم والمسلم أخ للمسيحي. ما في هذا شك ولا خلاف هذا هو المبدأ الأصيل.

في عدد يوم ١٩ شوال ١٤٠٣هـ من ملحق اسبوعي لاحدى الجرائد العربية الغراء نطالع ركنا صغيرا تحت عنوان: **غياب الاعلام الاسلامي** وفيه نقرأ مايلي:-

في غياب الاعلام الاسلامي. خلت الساحة للاعلام المعادي للاسلام ان ينطلق كما يحلو له. يحاول دس الأضاليل والأباطيل والخرافات. ويحاول بأسلوبه الناعم ان يحول المسلمين عن وجهتهم. ويحبب لهم وسائل الانحراف عن طريق الهالة الضخمة للفن والفنانين على سبيل المثال. وتوجيه الشباب لقضاء وقت طويل يستمعون فيه الى الأغاني الماجنة المائعة التي تشجع على الانحراف.

ثم يشير صاحب هذا المقال القصير الى اذاعة خارجية يذكر اسمها، والى العمل الذي تقوم به هذه الاذاعة فيقول إنها **تتحدث باسم المسيح والمسيح منهابراء**.

على ان تلك الاذاعة ليست وحدها في الميدان. فهناك، اذاعات اخرى خارجية تقتفي نفس النهج، ومنها تلك الاذاعة التي قيل إنها تنطلق من أثيوبيا وقد استمعت اليها مرارا وانا في **الصومال** وأعني بها تلك التي يحاول فيها المذيع تلاوة اصحاحات من التوراة والانجيل ترتيلا وتجويدا، تارة محاولا السير على طريقة - مشوهة طبعا - لقراءة **قالون** وتارة لقراءة **ورش أو عاصم**، لإيهام المستمعين أنه يتلو آيات من القرآن الكريم وهذا منتهى التلاعب والانحراف.

ولنعد لصميم الاعلام الخارجي المنطوي على ما من شأنه الاساءة الى المجتمع فكريا وأخلاقيا، أي انحرافيا، و "المجلوب" مشحونا ومعبأ في

الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية من جهة، وفي الشرائط الخاصة بأجهزة الفيديو من جهة اخرى.

وهنا يكمن الكلام العريض الذي قد لا تحده حدود.

على ان الجهر بالحق يقتضي التأكيد بأن المسئولية معنويا ملقاة دائما على عمليات الاختيار والعرض على العموم. لكن أليس من قبيل الحقيقة ان الأذواق والمفاهيم تختلف باختلاف الأفراد فردا فردا؟

إن مشكلتنا نحن مزاولي هذا النشاط أو المتعاملين معه هو تعارض اذواق الجمهور المشاهد، وتمدد أهوائه وآرائه بخصوص المادة السمعية والبصرية.

هناك روائع فنية من الانتاج الأجنبي تعرضها القاعات السينمائية العمومية والشاشات الصغيرة. فلا يسمع القانون بها ولا كلمة ثناء أو تهنئة من أي كان، بينما تقوم القيامة تجاههم وتكاد الأرض تلامس السماء اذا ما تم عموميا عرض شريط أو رواية من ذلك الانتاج ولم ينل رضا بعضهم.

فكيف المخرج؟ وما الحل؟

المثل الأعلى هو أن يكون لنا انتاج عربي متين وأصيل وفي نفس المستوى الدولي العالي، انتاج يراعى كل المحظورات ويستهدف خدمة المجتمع الذي نحن منه واليه مراعيا تقاليده ومقوماته.

أجل هناك انتاج عربي للسينما والتلفزيون على مستوى جيد. لكنه غير كاف لا في حجمه ولا في كميته

فليس هناك من الانتاج السينمائي والتلفزيوني العربي الصالح والمناسب ما يكفي في الوقت الحاضر لتلبية كامل الحاجيات اليومية لكامل الوطن العربي.

هذه حقيقة معلومة، ولذلك تدعو الحاجة الملحة الى الاستعانة بذلك الانتاج الخارجى ودفع المبالغ المالية اللازمة لاقتنائه.

لكن ماهي المحاذر التي تؤخذ بصفة عامة على هذا الانتاج؟

انها تتمثل في كونه غالبا ما يرتكز على قصص العنف والجريمة والانحلال الخلقي والتفسخ الاجتماعي وحتى المواقف التي تستهدف

التسلية فيه قلما تنجو من هذه الآفة.

ويتساءل المتسائلون دائما: وهل لذلك تأثير فعلي وحقيقي على نفسية المشاهدين عموما والناشئة بوجه خاص؟ أم ذلك مجرد وهم فقط؟

هنا لا بد من التوقف مليا.

لقد راجعت - بحكم عملي - كثيرا من الدراسات بخصوص العنف والجريمة والجنس - في برامج التلفزيون - وتأثير هذا على الناشئة والشباب وما قد يترتب من الانحلال المحتمل في هذا الصدد.

ولعل أهم هذه الدراسات هو العمل الأمريكي الذي يدعي تقرير مدير الصحة العمومية حول العنف وقد نشر في سنة ١٩٧٢م بالولايات المتحدة الأمريكية. وأكد فيه عدد من علماء الاجتماع ان للعنف الذي تشتمل عليه برامج الترفيه - أي السينما والتلفزيون - تأثيرا مؤكدا على الناشئة. وكان الاذاعيون من قبل لا يثقون في الأبحاث التي ظهرت بهذا الخصوص خلال الستينات.

وهناك دراسات اخرى - علمية - تمت بهذا الشأن في المملكة المتحدة وفرنسا، وجمهورية ألمانيا الاتحادية كما ان هيئة الاذاعة والتلفزيون النمساوية قد نشرت كتابا ضخما عن العنف وتأثيره في المشاهدين الصغار.

وفي سنة ١٩٧٧م نشرت مراقبة البحوث والدراسات الاعلامية بوزارة الاعلام في الكويت دراسة قيمة في هذا المجال بعنوان: أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة.

والاذاعيون مدينون بعظيم التقدير للعرض الذي كانت السيدة أولغاليني Olga Linne ، مديرة دراسة وسائط الاعلام في الاذاعة الدانماركية، قد ألقته بعالي كفاءتها خلال انعقاد لجنة البرامج التلفزيونية لاتحاد الاذاعات الأوروبية المجتمعة في كوبنهاجن من ٢٩ نيسان الى ٢ مايو أيار ١٩٧٧م.

والاعتماد في هذا المستخلص قد تم على اساس الروايات السينمائية والتلفزيونية التي يقال عنها روايات التسلية، وكذلك على البرامج الاخبارية في التلفزيون وميز المحللون، في هذا المقام، بين العنف الذي لا مبرر له

وبين العنف الذي له تبرير وقالوا ان العنف المبرر أقوى تأثيرا، وهو المتجلى في المواقف ـ العنيفة ـ التي يقوم بها في السينما وكذا في التلفزيون الشخص الذي تبدو عليه أمارات الوداعة، فيكون والحالة هذه، بمثابة الذي يعاقب المجرم على اجرامه.

وقد ميز هؤلاء المحللون بين حالتين:

الحالة الأولى: التقليد، بحيث ان المشاهد الصغير يحاول ان يقلد فعل البطل الذي شاهده على الشاشة.

الحالة الثانية: الدعوة الى القيام بالعنف.

بيَّن الباحثون، من جهة اخرى، خطر الأخبار المصورة التي تتناول مشاهد الأحداث المختلفة، والجرائم، والحوادث المؤلمة وكثيرا ما يصدر عنهم الحاح صريح على ضرورة الاعداد الفكري والاجتماعي والمسئول للمصورين والصحافيين والمخرجين الذين تسند اليهم مسئولية عرض البرامج ـ والأخبار في طليعتها ـ على العموم. ولعل المصالح المختصة في الاذاعة والتلفزيون بفرنسا كانت من قبل نشيطة جدا في هذا الصدد، لاسيما في الأوقات التي كانت فيها مشاهد تشخيص اختطاف الأطفال قد طغت على التلفزيون الفرنسي.

ويمكننا من جهتنا، ان نتحدث طويلا عن المآسي التي يتسبب فيها الجاهلون الذين تبتلى بهم بعض هيئات التلفزيون، في الدول النامية كما في الدول المتقدمة، ونعرف منهم أصنافا في عدد من بلدان وطننا الكريم.

وحتى نزيد حديثنا تركيزا نشير الى ان السيدة **أولغاليني** ـ التي اشرنا الى عرضها القيم ـ تقول ان معظم علماء الاجتماع يميلون اليوم الى التسليم بالنقاط الثلاث التالية:

١ ـ يبدو أن هناك علاقة فاعلية بين مشهد العنف في التلفزيون وبين التصرف الاعتدائي Agressif

٢ ـ هذه العلاقة لا مفعول لها الا عند المشاهدين الصغار.

٣ ـ لا تتأكد هذه العلاقة الا في بعض الظروف التي يحددها الوسط الذي يعيش فيه أولئك المشاهدون الصغار.

ومهما يكن من أمر فإن هذا النوع من المواقف العنيفة لوسائل الاعلام الخارجي ـ وحتى الداخلي بطبيعة الحال ـ وتأثيره في الانحراف الأخلاقي والاجتماعي والفكري والتصرفي. مظهر يتأكد يوما عن يوم من خلال الأبحاث الميدانية بل وحتى المخبرية، وقد وقفت على عمل مخبري من هذا القبيل في مراكز البحث في الجامعة بكندا.

فماهي الوسائل التي يمكن على اساسها الحيلولة دون استفحال هذا الخطر الذي قد استفحل فعلا؟

إنها كثيرة ومتعددة، ولكنها جميعا ذات مزايا ومساوىء في آن واحد. هناك التشريعات والقوانين وقد المعنا الى شيء من هذا القبيل في مطلع جلستنا هذه.

ما هو القانون الذي يمكن تطبيقه ضد معاناة الأسر داخل بيوتها من أخطار شرائط الفيديو المجلوبة، أو المقتناة محليا، أو المهربة.

علما بأن هذه الأسر ـ هي التي حصلت على تلك الشرائط وسعت اليها وربما بإلحاح شديد وتحايل دقيق. ولا بد ان احدا من أفرادها قد دفع مالا للحصول على هذه البضاعة

أحد وزراء جمهورية المانيا الاتحادية، وهو السيد هاينار غايزلار، وزير شئون الأسرة، قاد حملةتوعية وتوجيه بخصوص شرائط الفيديو التي تتناول المشاهد الجنسية المثيرة، وصور الاجرام والعنف المشوقة. وقال في الاذاعة إنه بصدد اعداد قانون خاص بتحريم بيع تلك الشرائط للعموم الا في محلات معينة وبترخيص خاص، وبعد اخذ رأي السلطات المسئولة عن شئون الشباب في كل مقاطعة ـ لاندر ـ من مقاطعات الجمهورية.

اذا كانت جمهورية المانيا الاتحادية التي كانت مدنها الكبرى سباقة بعد الحرب العالمية الثانية الى فتح دكاكين الجنس للعموم تقف هذا الموقف من الانحراف الناتج عن هذا النوع من الاعلام السمعي البصري فماذا عسى مجتمعات المقومات الحضارية والدينية السليمة ان تقول وان تفعل. ؟

وهناك حملات مماثلة في عدد من دول العالم الكبير. وروت الصحف في أغسطس/آب ١٩٨٣م ـ ان مناقشة دارت في البرلمان الهندي، في

نيودلهي، حول أفلام الجنس والاثارة، وأعلن نائب وزير الاعلام هناك عن صدور أمر حكومي الى مصالح الرقابة بعدم اعطاء أي ترخيص لأي فيلم تشتم منه رائحة الجنس أو الاثارة حتى ولو كان ما فيه من هذا القبيل من عنوانه!

القانـــون:

ولنرجع الى الوسائل العملية والاجراءات القانونية المطبقة عادة لوقاية الأحداث من آفات الاعلام الخارجي والداخلي. وهي وسائل واجراءات لا تلقى رضا المفكرين والاعلاميين واصحاب القلم والكلمة. لكن الضرورات تبيح المحظورات والضرورات هنا هي حماية المجتمع ووقاية الشباب ـ رجال الغد ـ من أخطار الانحراف المتمثل في المنشورات والاعلام السمعي البصري، والمحظورات هي المساس بحريات القول والفكر والكلمة.

أعتقد ان لغالبية البلدان العربية قوانين وطنية بحسب تشريعاتها حول الحريات العامة، والصحافة، والاعلام، والنشر، والمطبوعات.
ولدينا بعض النصوص مما هو ميسر في هذا المجال، ومنها، على سبيل المثال، قانون المطبوعات والنشر في المملكة العربية السعودية، وفي دولة قطر، وقانون الصحافة في المملكة المغربية، وفي الجمهورية التونسية ، لكن أحدث هذه النصوص عهدا هو القانون الجزائري ـ قانون الاعلام ـ رقم ٨٢ ـ ٠١ المؤرخ في ١٢ ربيع الثاني عام ١٤٠٢هـ الموافق ٦ فبراير سنة ١٩٨٢م، والمنشور في الجريدة الرسمية العدد ٦ في ٩ فبراير ١٩٨٢م.

وقد اشار هذا القانون الى كثير من الوسائل الضابطة عمليا ومهنيا لقضايا الاعلام، ومنها ما يتعلق، مثلا بمراسلي الصحف الأجنبية وتوزيع النشريات واستيرادها وتصديرها كما انه، من جهة اخرى يضبط ـ في مجال الاعلام ـ حماية الأطفال والمراهقين وأمن الدولة.

وما دمنا نستهدف الاطلاع على التنظيم القانوني لتوفير وسائل حماية المجتمع من الانحراف الذي قد يتولد عن الاعلام الخارجي. والداخلي كذلك.. وحتى يكون منظارنا شاملا عاما ودوليا ـ نوعا ما ـ فلنركز على التشريع والتنظيم في بلاد تعتبر من أقدم الدول عراقة في حرية القول والصحافة والاعلام: فرنسا.

لقد اصدرت الجمهورية الاشتراكية الفرنسية في عام ١٩٨٢م، قانونا احدث ضجة في فرنسا وفي اوروبا وبعض الدول الأخرى. هو قانون الاعلام السمعي والبصري.

لكننا في هذا المقام نركز على عموم القوانين والتنظيمات الفرنسية المتعلقة بالموضوع الذي نتحدث عنه.

لقد حدد القانون في تلك البلاد، إمكانيات مراقبة المطبوعات الخاصة بالشباب، والمطبوعات الأجنبية (أي الخارجية)، والأفلام السينمائية، وعمليات الحجز، وكل عمليات المنع الأخرى الرامية الى الحيلولة دون الترويج المطلق لبعض المصنفات بين العموم.

فاعتمادا على المادة ٣ من قانون ١٦ يوليو / تموز ١٩٤٩م حول المطبوعات الخاصة بالشباب نقرأ مايلي:ـ

تخصص وزراة العدل لجنة مكلفة بالسهر والمراقبة على المطبوعات الخاصة بالطفولة والمراهقين.

ولهذه اللجنة صلاحية تحديد المطبوعات التي يبدو انها تستحسن المنع المنصوص عليه في المادة ١٤ من نفس القانون.

وجدير بالذكر ان هذا القانون قد خول وزير الداخلية اختصاصات بهذا الشأن هي التي نصت عليها المادة ١٤ التي وقع تغييرها بمقتضى قانون ٤ يناير كانون الثاني ١٩٦٧م.

وتتمثل تلك الاختصاصات بوجه عام، فيما يلي:

الحيلولة بين المراهقين القاصرين الذين لا يبلغون ثمانية عشر عاما وبين حصولهم على المطبوعات كيفما كانت طبيعتها كلما كانت تشكل خطرا على الشباب من جراء صفتها الاباحية أو الجنسية أو بسبب المكانة المخصصة

فيها للعنف والجريمة، بحيث يمنع بيع هذه المطبوعات، أو اهداؤها، أو عرضها على نظر العموم في أي مكان مهما كان ولا سيما داخل المتاجر والأكشاك وخارجها، كما يمنع القيام بالاعلان والاشهار لأجلها عن طريق الملصقات، والجرائد، والدوريات والاذاعة والتلفزيون.

وينص ذلك القانون أيضا على العقوبات التي يتعرض لها الناشرون والموزعون في حالة المخالفة

لكن، لسائل أن يسأل: كيف يمكن الجزم بأن المطبوعة كذا تشكل بالفعل خطرا على الطفولة والشبيبة؟ من هو الشخص المخول اصدار التمييز في هذا المضمار - بصرف النظر عن استشارة لجنة وزارة العدل ما دامت هذه الاختصاصات عريضه من يضمن عدم وقوع بعض الموظفين المختصين في الغلط، أو الشطط، أو الزيادة في العلم؟

هذا مجال شائك، وموضوع ثري للأخذ والرد. ومما لا شك فيه ان للمصالح المعنية مذكرات تفسيرية داخلية لضبط القانون.

ومما يحسن الانتباه اليه ان الفقرة الأخيرة من المادة ١٣ في قانون ١٦ يوليو/ تموز ١٩٤٩م تقول:

إن الاستيراد بقصد البيع أو التوزيع المجاني في فرنسا للمطبوعات الخاصة بالشباب يخضع لإذن الوزير المكلف بالإعلام بناء على موافقة اللجنة المكلفة بالسهر على المطبوعات الخاصة بالطفولة والمراهقين.

وهكذا فان **الرقابة** في هذا المقام ملفوفة في مقتضيات القانون.

والقانون الفرنسي **حازم** فيما يتعلق بالاعلام الخارجي، وجلب الصحف الأجنبية، أو نشرها، أو توزيعها داخل التراب الوطني، أي الصحف التي هي غير المطبوعات الخاصة بالشباب.

إن المادة ١٤ (المغيرة) من قانون ١٨٨١ تنص على ما يلي:

ان عمليات الترويج، والتوزيع، والبيع في فرنسا للصحف والمكتوبات - دورية كانت ام غير دورية - المحررة بلغة اجنبية يمكن منعها بقرار من وزير الداخلية. وهذا المنع يجوز اصداره كذلك في حق الصحف والمكتوبات الواردة من الخارج والمحررة باللغة الفرنسية، والمطبوعة في

الخارج أو بفرنسا. ويتم الحجز الاداري للأعداد (الأصلية) والتي تعيد استنساخ الجرائد والمكتوبات الممنوعة، وكذلك تلك التي قد يعاد نشرها تحت عنوان آخر

ولا يذكر هذا القانون المبررات بهذا الخصوص، ولذلك قد قيل ان الاعلام الخارجي في فرنسا يوجد دائما - تجاه سلطات المراقبة والرقابة في وضعية هشة وخاضعا للادارة السياسية

ولا داعي الى تبيان ما هو منصوص عليه في كل قانون من هذا القبيل، وما هو معروف لدى الخاص والعام بشأن الوقار اللازم نحو الدفاع الوطني، واسرار الجيش، ومنزلة رئيس الدولة.

أما عن السينما فان لها وضعا خاصا، ومنذ ان كانت وهي - في فرنسا - خاضعة للمراقبة النظامية.

إن قضايا عرض الأفلام السينمائية واستغلالها في الخارج، وانتاجها، وجلبها من الخارج. تخضع لتنظيمات دقيقة انطلقت من قانون الصناعة السينمائية المؤرخ في ٣٠ ديسمبر /كانون الأول ١٩٥٩م وما تلاه من النصوص الى عهد قريب. وكل هذه العمليات يمكن اجمالها في الحصول على رخصة (Visa) التي هي في واقع أمرها بمثابة **رقابة** وتحتضن وزارة الشئون الثقافية لجنة مراقبة الأفلام السينمائية.

وهناك سلسلة من التقنيات والتنظيمات الأخرى التي تندرج في هذا المسار من الوسائل حول الاعلام الخارجي ووقاية المجتمع مما قد يعلق به.

وهناك ما يشمل نقل الأخبار من الخارج (وكالة الأخبار) فضلا عن المسرح والاعلان، وألوان الفرجة المتعددة.

ولكن مهما قلنا وعددنا فان المستقبل اخطر من الحاضر ان التراسل الاعلامي والخصوصي عبر الأقمار الصناعية. التلفزيون المباشر حادث سيغير الخريطة التي نعرفها رأسا على عقب. فكيف سيمكن تحديد وسائل إحكام الرقابة على الاعلام الخارجي في وجه الانحراف فكريا وخلقيا. غدا عندما تزداد غابة الفضاء كثافة؟

إن هذا الموضوع مطروح على المستوى الدولي شرقا وغربا، شمالا، وجنوبا.

ومن المؤكد ان معالجة قضايا الاعلام والاتصال قد اصبحت مفروضة فرضا على جميع ذوي الاهتمام بمصير المجتمع الجديد، والانسان المتطور

دور الاعلام الداخلي في مواجهة الغزو الأجنبي

الأستاذ محمد عباس*

أبادر بالتعبير عن سروري وارتياحي لهذه الدورة من برنامج الخطة الوقائية العربية، والموضوعات الهامة جداً التي أثيرت وتثار خلالها

ولعل ما يبرر سروري وارتياحي هو الشعور بأننا بدأنا نعالج القضايا المصيرية بالاهتمام الكافي والجدية المطلوبة، وطفقنا نتجاوز الوعي الفضفاض المزيف الذي يغذي التشاؤم واليأس، الى الوعي العلمي الذي يفتح باب التفاؤل والأمل.

ان موضوع الغزو الثقافي وكيفية مواجهته بشتى الوسائل المتوفرة لدينا ومنها الاعلام الداخلي الذي اتناوله في هذه المعالجة جد خطير، ولكني أحاول أن أبين وظائفه وجوانب تقصيره في ادائها ثم الدور المنتظر منه في اطار عملية التحرر الثقافي الشامل.

ولكن قبل الدخول في صميم الموضوع يجدر بنا ان نتوقف قليلا عند اشكالية الغزو الثقافي الذي يتعرض له العالم العربي والاسلامي.

ان اشكالية الغزو الثقافي يمكن تلخيصها في عبارة شائعة قد تبدو بريئة وسليمة في مظهرها ولكنها مغرضة وخاطئة في حقيقتها، انها عبارة اتفق العرب على الاَّ يتفقوا.

ان المحتوى الحقيقي لهذه العبارة الجديرة بمصالح الحرب النفسية المعادية هو اتفق الغرب الاستعماري والصهيونية على الاَّ يتفق العرب والمسلمون.

---

* رئيس تحرير جريدة الشعب. وأمين عام اتحاد الصحفيين الجزائريين.

ان العمل على تقسيم العرب والمسلمين ايديولوجية سائدة في اوروبا وأمريكا، وسياسة مطبقة باحكام، لأن الغرب الاستعماري المتحالف مع الصهيونية ـ باعتبارها رأس حربته في الوطن العربي ـ يعتقد اعتقادا راسخا ان في اتحاد العرب والمسلمين تهديدا مباشرا لأمنه ومصالحه.

وربما ان الوطن العربي يشكل الخط التصادمي الأول في هذا الصراع التاريخي، وسبق له ان هدد اوروبا مباشرة على عدة جبهات شرقا وغربا، كان التركيز عليه، وكان منذ مطلع القرن الماضي موضوع حرب شاملة تستعمل فيها كل الوسائل الممكنة والمحتملة.

ويبدو الهدف الرئيسي لهذه الحرب الشاملة هو فرض السيطرة الثقافية على العرب باعتبارها مطية للاستعمار السياسي والاقتصادي.

ونسجل هنا ان الاحتكاك التصادمي الأول بين الحضارتين الأوروبية والعربية والاسلامية، كان سلبيا في اغلبه بالنسبة الينا، اذ اتبع المنحى التالي هزيمة عسكرية ثم انبهار حضاري تلاه استلاب فكري فتبعية ثقافية، وكان من الثمار المرة لهذا الاحتكاك ظهور "مثقفين" ينطلقون في رؤيتهم لواقعهم من زاوية أوروبية ومن أرضية ثقافية غير الأرضية العربية الاسلامية

ويلعب الاعلام الأجنبي دورا بارزا في خلق هذه الوضعية غير الطبيعية وتغذيتها واستمرارها وتوسيع نطاقها.

فهو يركز هجماته ويوجه سمومه المخدرة لمختلف فئات المجتمع العربي الاسلامي. ويمكن حصر هذه الفئات بصفة عامة في ثلاث:

الفئة الأولى: تتمثل في اصحاب الحل والعقد، وتحظى هذه الفئة بعناية خاصة، اذ يصوب نحوها الاعلام المباشر (الاتصالات الرسمية وغير الرسمية) وغير المباشر (الاتصالات عبر الوسائل).

والهدف الأولي لهذه العناية الخاصة هو التأثير في القرار وتوجيهه في اتجاه الاختلاف والتنافر والتناحر حتى لا يتم الاتفاق والتقارب والاتحاد.

ويعمل الاعلام الاجنبي في هذا الصدد من اجل تخريب الثقة بين الأشقاء حتى لا يجتمعوا على رأي، أو يصلوا الى تفاهم يكون حتما لصالح الأمة العربية الاسلامية.

وطريقته في ذلك ترويج المعلومات المختلفة والاشاعات المغرضة بهدف زرع الهواجس والشكوك. وللاعلام الأجنبي في هذا المضمار تجربة طويلة في احتكار المعلومات والتلاعب بها لتحقيق اهداف محددة.

الفئة الثانية: تتمثل في النخبة ذات الصلة المباشرة بمصدر القرار والتي يمكن ان تساهم بواسطة علاقاتها في صنع هذا القرار أو التأثير في اتجاهه على الأقل. وهذه الفئة ايضا تحظى بعناية خاصة نظرا لمكانتها الاستراتيجية وتمكين بعض عناصرها الى موقع القرار ذاته

الفئة الثالثة: وتتمثل في الجمهور المتفتح على الاعلام الأجنبي بصفة عامة

ويتم التأثير على الجمهور بواسطة استغلال بعض مظاهر الحرمان الناتج عن التخلف، والتلويح ببهارج السراب الحضاري بغية تعميق الاحباط المتولد من تحطيم للمعنويات وتثبيط للعزائم، وتسيب اخلاقي يضاعف من الصعوبات التي تواجهها القيادات الوطنية في القيام بتعبئة المواطنين تعبئة جادة للمساهمة بشكل حاسم في معارك التنمية الشاملة.

وهنا نصل الى الاعلام الداخلي ودوره في حماية جمهوره بمختلف فئاته من هجمات الاعلام الأجنبي وحرب المعلومات التي يخوضها الغرب الاستعماري والصهيونية ضد الأمة العربية الاسلامية

والملاحظة الأولى في هذا الصدد ان المعركة غير متكافئة كذلك على الصعيد الاعلامي، وهنالك عوامل موضوعية وذاتية تجعل الاعلام الداخلي - الا نادرا - عاجزا عن احتواء جمهوره وحمايته بحاجز معنوي يقيه التأثيرات الخارجية أو يخفف من خطورتها على الأقل.

العوامل الموضوعية:

أ - هيمنة المعسكر الاستعماري الصهيوني على سوق المعلومات ووسائل الاتصال، وتكفي الاشارة هنا الى أن أربع وكالات أنباء غربية تحتكر حوالي ٦٥٪ من المعلومات الصحفية، وترتفع النسبة في المواد الاعلامية المصورة الى اكثر من ٨٠٪.

ب ـ وجود الوطن العربي في حالة دفاع عن النفس نتيجة حرب المعلومات التي يتعرض لها، بالاضافة الى موقعه الجغرافي السياسي وانفتاحه الواسع على الاعلام الغربي، ولكن هناك عوامل ذاتية تحتاج الى التركيز حتى تتحدد المسئولية أكثر وتتبين أوجه التقصير بصورة أفضل.

أهم هذه العوامل:

أولا: الاعلام العربي السائد هو اعلام قطري في مجمله اي اعلام انظمة محدودة في الانتشار والتأثير بالضرورة لأنه يعتمد خطا سياسيا ضعيف الصلة بواقع الجماهير العربية وتطلعاتها

فقليلة هي الصحف التي تشذ عن القاعدة أو تتجاوز الحدود القطرية.

ثانيا: ان الاعلام العربي مثقل بمظاهر التخلف التي يحملها الواقع العربي أبرز مظاهر هذا التخلف.

أ ـ النظرة الى الاعلام من زاوية الثنائية التقليدية، ثنائية المدح والهجاء فالاعلام كحاجة اجتماعية سياسية قليل الرواج.

ب ـ طغيان الشعارات على المعلومات، فاعلامنا ما يزال يواجه صعوبة في التعامل مع الواقع والمعلومات، نتيجة ضعف شبكات الاعلام الداخلية وضعف سيولة المعلومات بين المصادر والوسائل.

جـ ـ اعتبار بعض الأنظمة لرجال الاعلام مجرد ادوات لا شركاء، وشتان بين العميل والحليف.

د ـ تبعية الاعلام العربي لوكالات الأنباء الغربية المغرقة بدرجات متفاوتة من طرف الصهيونية العالمية، فاعلامنا يستخدم المواد الأولية المصنعة بخبث في الغرب، ويروج احيانا بوعي او بدون وعي معلومات من صميم الحرب النفسية التي تستعملها الصهيونية العالمية وحلفاؤها ضد الشعوب العربية.

ثالثا: الاعلام العربي لا يساهم بقدر كبير في نشر الوعي القومي التحرري

بل نراه كثيرا ما ينفخ الضياع في الجماهير ويعمق الاستلاب وبعث اليأس في النفوس واستصغار الذات العربية، وهو بذلك وبدون قساوة يمكن ان يعتبر حليفا موضوعيا لأعداء الأمة العربية

رابعا: ان الاعلام قليل الاطلاع على الواقع العربي في تنوعه وشموليته لذا نراه يروج من المعلومات عن الدول الاستعمارية اضعاف المعلومات التي يبثها حول الأقطار العربية، وجهل الصحافيين العرب بالأقطار الشقيقة شائع ومعروف، بعضهم لا يحسن حتى التلفظ باسماء المدن العربية المشهورة مثل: نطق (وهران. أوران)، (وتبسة، طيبة)، (وأبو ظبي، دبي)، وهلم جرا

واستحكم هنا في الاستشهاد بحادثة اصبحت في اوساط الصحفيين الجزائريين وخلاصتها ان زميلا من العاملين باللغة الفرنسية ذهب في وفد اعلامي الى الجمهورية العربية اليمنية أيام الرئيس القاضي الأرياني، وحظي الوفد باستقبال الرئيس الأرياني وكان يرتدي الزي التقليدي متمنطقاً خنجره المعهود بكل جلال ووقار ودون سابق انذار، هب الزميل يسأل قائلا حضرة القاضي العرياني.

وهذا دليل آخر على سوء الحال والعاقبة، فحتى المعلومات التي نستقيها عن بعضنا نحفظها أو ننقلها محرفة عن الاعلام الأجنبي.

ان اعلامنا المثقل بمثل هذه العوامل السلبية من الصعب ان ننتظر منه القيام بدوره التحرري والوقائي على أحسن وجه.

فالمطلوب اولا وقبل كل شيء - على ضوء النقائص المسجلة - ان نراجع هذا القطاع مراجعة عميقة لنجعل منه ادارة فعالة في عملية التحرر الثقافي كسبيل وحيد لاستكمال الاستقلال السياسي والاقتصادي واستكمال السيادة المستوردة. فلا حرية الاَّ حرية الفكر ولا حصانة الاَّ حصانة الضمير المتحرر. فعندما نتعلم كيف نفكر انطلاقا من بعدنا الحضاري، وكيف نوظف طاقاتنا الفكرية في معرفة انفسنا والدفاع عن مصالحنا الحيوية وكيف نهضم المنهج العلمي وأساليب البحث المتطورة يومئذ يتسنى لنا القول بأننا شَرعنا نحو الانعتاق التام للقضاء على رواسب الهيمنة الاستعمارية وكل

مظاهر الاستسلام والتبعية، وبدأنا نحصن أنفسنا بالفعل ضد كل مظاهر الغزو الثقافي والبدع الأخلاقية، وهنا نصل الى بيت القصيد: ترى ماهو الدور الذي يمكن للإعلام الداخلي أن يضطلع به ضمن هذه العملية الثقافية الحضارية الشاملة؟

نظام عربي للمعلومات: نلاحظ أولا في هذا الصدد ان اهمية دور الاعلام الداخلي وفعاليته مرهونة باعتماد الاعلام على نظام عربي للمعلومات، فمن هذا النظام يستمد الاعلام استقلاليته ومقدرته على التأثير ايجابياً، وهناك ثلاثة عوامل أساسية تتحكم في اقامة مثل هذا النظام باعتباره منطلقاً مهماً للعلاقات العربية في كافة الميادين.

أولا: توافر الارادة السياسية العربية كأساس لكل مشروع قومي. ويمكن لهذه الارادة المشتركة ان تعبر عن نفسها من خلال الجامعة العربية كراعية للمصلحة العليا وكهيئة تسمو على الانظمة وحساباتها الخاصة.

ثانيا: الاهتمام اكثر بتصنيع المعلومات الخاصة بالوطن العربي وبتخزينها وتبادلها بين الأقطار العربية وهذا التصنيع عملية استراتيجية في منتهى الأهمية لأنه من غير المعقول بناء فكر مستقل وحر بمواد أولية مستوردة وموجهة بخبث في خدمة مصالح معينة

ثالثا: شبكة اتصالات بين الأقطار العربية تسخر لخدمة نظام المعلومات المستقل، ويعتبر مشروع القمر الصناعي العربي حدثا بارزا في العلاقات العربية شريطة توظيفه في تبادل معلومات عربية بين اقطار عربية بالدرجة الأولى لا لتكريس وضعية التبعية الراهنة وضعية تلقي واستيراد المعلومات من الدول الغربية بصفة خاصة

والملاحظ على مستوى آخر ان لمعظم الأقطار العربية، وكالة انباء محلية لو اشتغلت كمكاتب قطرية وتعاونت فيما بينها على الصعيد الدولي لتقلصت الى حد كبير تبعيتها في هذا الميدان الاستراتيجي الخطير

ومعنى ذلك ان تعريب المعلومات شكلا ومضمونا من شأنه ان يفسح المجال للاعلام الداخلي كي يلعب دورا وقائيا على أكمل وجه، ترى ما

المطلوب اليوم من هذا الاعلام على ضوء القوى المتصارعة في الحقل الاعلامي الدولي والامكانيات البشرية والمادية المتاحة له؟

ان المهمة الرئيسية التي تمليها المرحلة التاريخية التي يمر بها الوطن العربي تتمثل أساساً في تأمين اصحاب الحل والعقد ومراقبة وحماية الأوساط المقربة منهم وتحصين المواطن العربي بصفة عامة ضد محاولات التأثير والاستلاب وسموم الدعاية الغربية الصهيونية، والهدف من ذلك هو ترشيد الوعي السياسي وشحذه الى ان يصبح "حاجزا معنويا" منيعا يصد مختلف أمواج التأثيرات السلبية الخارجية التي تستهدف القرار العربي المستقل أو التأثير الدعائي والتشويش على القيادات الوطنية

ترى كيف يمكن الوصول الى مثل هذه المناعة الفكرية الواقية؟

اسمحوا لي في هذا السياق أن اعود معكم قليلا الى تجربة الثورة الجزائرية ابان الكفاح التحرري. لقد استطاعت ثورتنا بالامس مستعملة الاعلام المباشر والمناشير السرية وصحيفة المجاهد وفترات محدودة من البث الاذاعي استطاعت ان تحتوي القوى الحية في شعبنا وتحيطها بسياج عازل، لم تكن تجدى امامه شيئا لا ترسانة الاعدام الفرنسي والغربي الصهيوني بصفة عامة، ولا كل هجمات الحرب النفسية الصادرة عن الجيش الاستعماري.

لقد كان اعلام الثورة الجزائرية، رغم بساطة وسائله وإمكانياته المحدودة الحق كل الحق في نظر المواطن، وكان الاعلام الاستعماري الزيف كل الزيف.

ان هذا المثل على بساطته يضع بين ايدينا ما يجب على اعلامنا الداخلي بمختلف اشكاله الاضطلاع به اليوم.

فهو مطالب بقلب علاقة التناسب القائمة حاليا بين الاعلام العربي في مجمله والاعلام الاجنبي من تناسب عكسي في صالح هذا الأخير الى تناسب عكسي في صالح الاعلام العربي.

ان درجة تقبل الاعلام العربي من المفروض ان تنمو باطراد بينما تتقلص درجة تقبل الاعلام الأجنبي بنفس الوتيرة.

ترى كيف يمكن الوصول الى مثل هذه النتيجة الأولية الهامة؟

ان النشاط الاعلامي كما سبقت الاشارة يستمد قوته وفعاليته من عملية التحرر الثقافي الشاملة، لذا فالمقترحات التي نستعرضها معكم كمحاولة اجابة انما تندرج ضمن هذا المنظور الشامل.

ويمكن تقديم هذه المحاولة تحت العناوين التالية:

أولا: العلاقة بين المواطن والقيادة:

يمكن ان نسجل في هذا المستوى مايلي:ـ

أ ـ العمل الواعي المسئول والمباشر من أجل الحفاظ على طيبة العلاقات بين المواطنين وقياداتهم، حتى يظل التواصل بين الطرفين جيدا على الدوام ذلك ان التواصل السيء بين الطرفين هو اكبر حليف للتسلل الأجنبي بكل اشكاله والوانه.

ب ـ مصارحة المواطن بأنه يواجه حربا شاملة، يعد الاعلام الأجنبي من امضى أسلحتها حتى يفطن لمخاطر هذا الاعلام، فيتلبس حالة المقاومة واليقظة التي تساعد المسئولين ورجال الاعلام في تعويض الاعلام الجماهيري الى حد ما، مع الاستفادة من مزايا الاعلام المباشر بأكبر قدر ممكن.

ثانيا: العلاقة بين القيادة ووسائل الاعلام.

لعل من اهم الاجراءات التي يمكن ان تنبني عليها علاقة ناجحة بين القيادة والاعلام كسلاح سياسي وجهاز في خدمة سياسة معينة مايلي:

أ ـ اعتماد اجهزة الاعلام كمصدر مستقل للمعلومات، لأن الاعلام الجماهيري في أسوأ حالاته يمكن ان ينور القيادات في مواقف وقضايا هامة قد تغفل المصادر الرسمية وشبه الرسمية الأخرى عن جوانب منها.

ب ـ ضرورة تعصب القيادة للإعلام الداخلي وتشجيعه في مرحلة أولى على علاته ونقائصه، وذلك حتى يحسن مواقعه في صفوف المواطنين ويكسب ثقتهم وتقديرهم.

جـ ـ اقامة علاقات ذكية مع المؤسسات الاعلامية ومساعدتها في القيام بدورها كخلايا توعية وتنوير وتحصين ضد الغزو الاعلامي الثقافي.

ثالثا: اجراءات تخص العمل الاعلامي:

أ ـ توجيه الاعلام الداخلي نحو تعميق الوعي بحقيقة وجود تخلف مزدوج تخلف عن العصر الذي لم نهضم بعد منجزاته الأساسية في مجالات المعرفة العلمية وأدوات البحث والانجاز الثقافي.

ان هذا التوجه ضروري في كل مشروع حضاري جدير بالنجاح. لأن الاعتراف بالجهل ـ كما يقول الحكماء ـ ضرب من المعرفة، ومرحلة متقدمة من الوعي الأساسي، لأن معرفة النفس كذلك هي البداية الطبيعية لمعرفة الآخرين واكتشاف من حولنا.

ب ـ الدراسة العلمية لحاجات الجمهور بمختلف فئاته والاستجابة الملائمة لها، حسب مبدأ لكل مقام مقال.

جـ ـ توفير الانتاج العربي الرفيع مع المواد الاعلامية مع التحكم في عملية استيراد المواد الأجنبية المكملة

ان طموحنا في هذا المجال يمتد نحو تحقيق الاكتفاء الذاتي من المعلومات، واستيراد ما يهمنا كمواد خام، لا كمواد جاهزة وموجهة اذ ما جدوى القمر الصناعي العربي مثلا، ان كنا نستعمله في ترويج المواد الاعلامية المستوردة؟

د ـ تكثيف المبادلات الاعلامية العربية لتلبية حاجة الانتماء القومي وسد ثغرة هي الآن مستغلة من الاعلام الاجنبي على أوسع نطاق.

هـ ـ مضاعفة امكانيات الاتصال المباشر بين الاقطار العربية، حتى تستجيب للمطلب السابق وتساهم في تخفيض حدة التبعية في هذا الميدان بالذات، حيث نلاحظ بأسف أن اتصالات الأقطار الشقيقة بالدول الرأسمالية الكبرى اكثر من اتصالاتها فيما بينها.

و ـ تعميق معرفة الاعلاميين العرب بالأقطار الشقيقة حتى تنتشر هذه المعرفة وتعم الجماهير العربية العريضة.

والمؤسف ايضا ان نلاحظ في هذا الصدد ان بعض الزملاء

الاعلاميين يروجون جهلهم بما يجري في البلدان العربية اكثر مما يروجون معرفتهم بها وهي محدودة بصفة عامة

ز ـ تحرير الاعلام الجماهيري العربي من النزعة التجارية والاتجاه الانحلالي المتمثل في دغدغة العواطف والغرائز البهيمية.

هذه بعض مقترحات في اطار محاولة اجابة عن جانب من التساؤلات الهامة والمصيرية حول الاعلام الداخلي في مواجهة الغزو الثقافي والخلقي الزاحف على شعوبنا من الشمال والغرب بصفة خاصة.

وقد تجرأت في هذه المعالجة، فخضت في موضوع على قدر كبير من التشعب، وحاولت الاجابة عن سؤال جد معقد انطلاقاً من هدف محدد:

مضاعفة القدرة الاحتوائية للاعلام الداخلي وتوظيفه بأسرع ما يمكن وبفعالية متزايدة في سد ما يمكن من الفراغات الكثيرة التي يعانيها الواقع العربي.

والواجب ان نتعاون جميعاً لفك ألغاز الغزو الثقافي الأجنبي، وحماية أنفسنا وتحصين مواطنينا من تأثيراته السلبية التي تمس استقلالنا وسيادتنا وتشل طاقاتنا الابداعية، وليكن تعاوننا بعد الآن تحت شعار:

"اتفق العرب على الاَّ يختلفوا"، علماً بأن الاعلام الداخلي يمكن أن يلعب دوراً حاسماً في تحقيق هذا الشعار.

ومرة أخرى أشكر الاخوة المشرفين على هذه الدورة الذين أتاحوا لي هذه الفرصة الثمينة، فرصة اللقاء بكم والتحاور معكم.

التعقيـــــب

الأستاذ حفناوي زاغز*

ضيوفنا الأعزاء. حضرات السادة.

يطيب لي وان اقف هنا على شاطىء من الزمن أنظر بحدب ووجد الى سفينة دورتكم المباركة، وهي تمخر عباب الأيام وتصارع أمواج الساعات والدقائق، لترسو بعد حين على مرفأ السلامة، والأمن، ـ قلت يطيب لي ـ ان أتوجه اليكم جميعا مسئولي ادارتي المركز العربي، والأمن الوطني، والأساتذة المحاضرين والمشاركين بالشكر الوفير والثناء الجزيل على كل جهودكم المبذولة المظفرة وتعاونكم الايجابي الحيوي وعملكم الدؤوب المسئول، وما أضفيتموه على الدورة من تنظيم محكم واشراف جيد، اذ لولاكم ـ أحبتي الأفاضل ـ لما استطاعت هذه الدورة العلمية ذات البعد الاسلامي والحضاري ان تصل الى آخر مراحلها، قوية كما ابتدأت متماسكة، كما اريد لها ان تكون موفقة في مسارها ومنعرجاتها، يحالفها التفاهم والانسجام، ويقود خطاها العلم والفكر

أحقا هذه الدورة ستنتهي، وهل كل ما كان يجمعنا ويؤلف بين أفئدتنا سيتوقف بعد قليل؟

اني لا أكاد أصدق ذلك وقد لا يصدق المرء أحيانا ما يراه بعينيه، ويعيشه بكيانه ووجدانه

ولكن للأسف كما هو متعارف: ان لكل بداية وان طالت نهاية، وان لكل لقاء وان عز فراقاً.

---

* عضو مجلس الادارة بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب عام ١٩٨٤م. مدير العلاقات العامة بالأمن الجزائر

نعم سوف يفترق جمعكم الموقر وقلوبنا جميعا تهفو الى بعضنا، وجوانحنا تضطرم شوقاً الى لقاء آخرفي اطار المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب لدراسة بعض مشاكل الحضارة الوافدة بأسلوب علمي يستلهم التراث ويستهدي بالشريعة الاسلامية السمحة.

هل يحق لنا بعد تلك الجولة الشيقة الممتعة في آفاق العلم والدين، والأصالة والتجديد، ان نتساءل قائلين: ما مدى ما استطاعت ان تصل اليه هذه الدورة الغنية بموضوعاتها المتشامخة بنوعية اساتذتها، الطموحة في أهدفها وغاياتها، العامرة بالصدق والايمان، هذه الدورة التي تصدت باعتزاز لمعالجة موضوع: **"طرق احكام الرقابة على وسائل الغزو الفكري والخلقي"**، وهو موضوع أقل ما يمكن أن يقال فيه انه على درجة كبيرة من الخطورة والاستعصاء.

ان هذا الغزو الفكري والخلقي، الذي تحاورنا في شأنه طويلا من أجل الوصول الى وضع خطة محكمة للرقابة عليه، وللحيلولة دونه، والوقاية منه، انه لا يمكن بحال ولا بأي شكل من الأشكال ان نتمكن بسهولة ويسر من تطويقه، وأحرى بنا الحد من خطورته، وتفاقم أمره. لأن الرقابة لا يمكن ان تعني غير المنع، بالالغاء أو التعديل أو الاضافة أو الحذف أو الغربلة أو الانتقاء وما شابه ذلك، وهي بكل هذه الأنواع وغيرها هل استطاعت في يوم ما ان ترقى الى مرتبة استبعاد الخطر، واجتناب الأذية، ودفع الضرر عن المواطن العادي وحتى غير العادي، أنا شخصيا لا اعرف فترة من التاريخ بلغت فيها الرقابة هذا المبلغ، أو حتى حاولت الاقتراب منه

ان الرقابة بكل أنواعها وأشكالها هي الوسيلة الأدنى لدرء المفاسد ومكافحة الآفات. وذلك لا لشيء الا لكونها عملية خارجية تحمل معاني التسلط والاكراه والتحكم والمنع.

وهي اساليب قد تُرفض لذاتها دون ان يحاول المرء فهم ما عسى ان تفضي اليه من نتائج

لكل ذلك يجب ان تنصب كل اهتماماتنا منذ البداية (في مجال مواجهة الغزو الأجنبي) الى بناء الانسان العربي المسلم س الداخل وذلك بتوفير المناخ والبيئة الملائمين لنشأة هذا المواطن نشأة سليمة تتوافر له فيها عوامل التكامل، والصحة النفسية، فينشأ متوازن الشخصية، قوي الادراك والملاحظة، يتمتع بضمير يقظ وفكر متوقد ثاقب، ينفذ الى أعماق الأشياء ليسبر بحكمة ووعي أعماقها وأبعادها، وليتأتى له بكل ذلك الارتفاع الى مستوى التفاعل الايجابي مع مختلف الحضارات دون احتمال التأثر بها والانغماس فيها والانجذاب لبعض مظاهرها.

إننا لا نستطيع أن نعيش بمنأى عن الصخب والضوضاء في هذه الدنيا أو أن نمارس حياتنا فيها بعيدا عن الضوء أو نقضي أيامنا داخل قوقعة مغلقة، لا تنفذ اليها اشعة الحضارة، أو يلامس قشرتها لهب العلم، وصقيع الحيرة، فالعالم ضيق، والدنيا مترابطة الأوصال. والمسافات والأبعاد أخذت تتلاشى، في عصر ما بعد التصنيع (عصر التكنولوجية) فأين. والى اين المفر .من وهم يدعى غزوا لا ينفك يطاردنا ويتعقب دون ملل آثارنا، أنّى توجهنا وحيثما كنا، كأنه ليس في هذه الكرة الأرضية سوانا.

أرجوكم التجاوز عن جرأتي ان قلت: ان بعض ما تفرزه حضارة هذا العصر الذي يتسم بالتغير والسرعة لا يمكن ان يعتبر غزواً في حد ذاته، وأحرى ان نعتبر انفسنا ضحايا هذا الغزو، لأن الحياة متطورة أبدا، والحضارات متنامية متغيرة مكتظة بالمفاجآت، طافحة بكل جديد مبتكر، وكل طريف مستحدث.

ومع ذلك لم نكن أبداً هدفاً لمبتكرات العصر ومخترعات الحضارة أو تدفق التطور أو ثورات التجديد، ليس الأمر كذلك وانما كل ما هنالك اننا فقدنا الثقة بأنفسنا وصار الهلع والخوف يتحكمان في مصيرنا، بل وتعترينا الخشية، والشعور بالتضاؤل والانكماش أمام كل اكتشاف واختراع، والرهبة والخنوع تجاه كل حديث مستجد، أو انتاج يتبدى غريبا غامضا

لن نقوى في دنيانا هذه ان نمنع الحياة من ان تمضي قُدما لا تلوى على شيء ولا ان نوقف الحضارة دون ان تتقدم وتزدهر، ولا نملك ان نحول دون الغرب أو الشرق عن مواصلة رحلتهما في عالم التجديد والتوزيع والاختراع والارتقاء.

أبدا لا ومليون لا، اذن لم يبق لنا سوى التشبث بأصالتنا والعمل على تطوير أنفسنا في ظل مبادىء الاسلام والقيم الروحية لكي يتسنى لنا الوقوف على قواعد صلبة تعتبر منطلقا ثابتا للتعامل معهم والتفاعل مع حضارتهم، اخذاً وعطاءً وايحاءً واستهداء، وإلهاما واستجلاء.

لكي نطمح عن جدارة الى التخلص من جميع أنواع التبعية والانتماء اللاواعي، يجب ان نكون أقوياء من الداخل نملك صفاء الرؤية، وحرية الرأي، ونتمتع بالقدرة على الخلق والابداع، وان تكون لدينا قدرات وامكانات حية تؤهلنا للجودة في الانتاج والدقة في العمل والشمولية في التصور، نشعر عن جدارة بأننا فعلا مقتدرون على تحويل كل المعارف والفلسفات لصالح امتنا ووطننا.

وليس هذا بمستبعد لأن لنا في تاريخنا موعظة وعبرة وفي إسلامنا المصفى هدياً ومناعة وترشيداً

المحتويات العامة

الجزء الأول

الجزء الثاني

عوامل الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية
الأستاذ محمد أحمد جمال.

الفن والابداع في الثقافة والاعلام
الدكتور التهامي نقره.

وسائل التحصن من الاعلام الخارجي
الدكتور أحمد صدقي الدجاني.

وسائل احكام الرقابة على الاعلام الخارجي
الدكتور عبدالله شقرون.

دور الاعلام الداخلي في مواجهة الغزو الأجنبي
الأستاذ محمد عباس.

التعقيب
الأستاذ حفناوي زاغز

